مجلة مجمع اللغة العربية




ض
مجمع اللغة العربية

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين فى السنة)

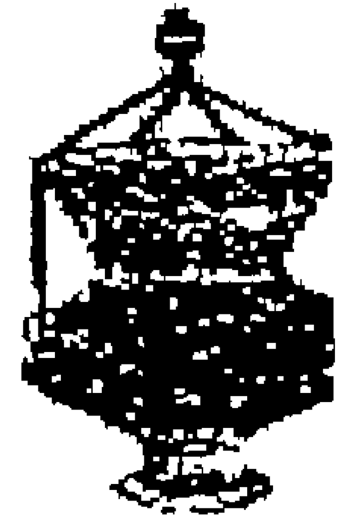
الجزء الثالث والثمانون

رجب ١٤١٩هـ / نوفمبر ١٩٩٨م

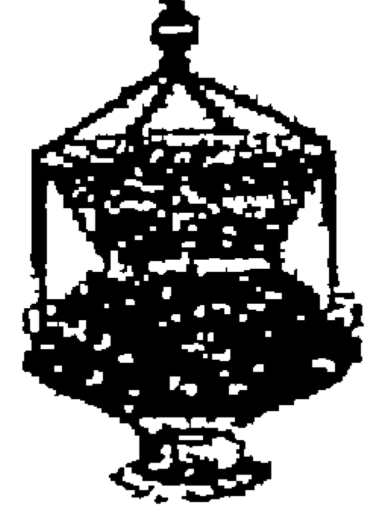
محــــــــررا المجلة :

- جمــال عبد الحى أحمد

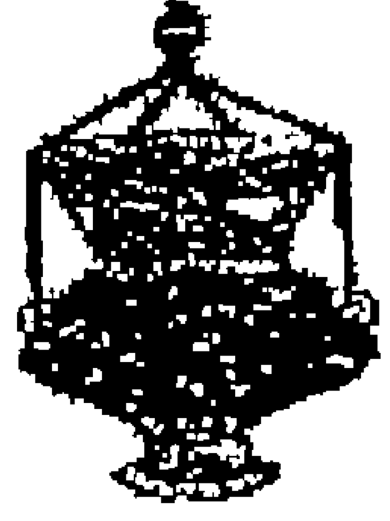
- خــالد محمد مصطفى



الفهرس



الفهرس



الفهرس

أولاً : بحوث لم تلق في المؤتمر

خواطر عن أسماء بعض الأماكن فى بلدنا

للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب

فيما يلى طائفة من أسماء البلاد والأمكنة فى بلدنا أوجزت الحديث عن كل منها :

حلفا ويقال أيضا وادى حلفا:

هذه البلدة فى أقصى شمال السودان. الاسم عربى مأخوذ من اسم الحلفاء أو الحلفا (مقصورة) والحلفاء نوع من الكلأ معروف . وعيب على عتبة بن ربيعة سيد بني عبد شمس فى ملأ من قريش أنه ردّ على حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه حين قال فى يوم بدر :" أنا أسد الله " بقوله :" أنا أسد الحلفاء " . وإنّما أراد عتبة أن يصرّ على كفره ويقول لحمزة أنا أسد وكفى ، أنا أسد مخوف كهذه الأسود المفترسة المتربصة فى الحلفاء . فالعبارة لمن تأمّلها ليست ضعيفة حقًّا من حيث اللغة والبيان ، ولكنها عبارة كافر مصرّ على كفره ، ليس إلاّ . وكأنه يقول لحمزة دعني من قولك أنا أسد الله وهلم للقتال .

هذا ومدينة حلفا القديمة قد غمرها النيل بعد اكتمال بناء السد العالى . وقد كانت فُرْضة تبحر منها الباخرة النيلية الجميلة إلى أسوان فى واد جميل تشرف غابات النخيل على النيل من ضفتيه . وكان بإزاء مدينة حلفا على الشاطئ الأيسر أثر فرعونى قديم فى موضع يسمّى (بوهين) . والأثر حصن ضخم من اللبن أحسب أن بناءه كان فى عهد الدولة الحديثة على زمان رمسيس أو بعده بقليل . وأحسب أن " شوقى " رحمه الله لم يصب حقا حيث قال :

وتاج من فرائده ابن سيتى
ومن خرزاته خوفو ومينا

فإنّه قد يكون ابن سيتي فريدا ، ولكن لا يمكن أن يقال عن " خوفو " باني الهرم الأكبر ولا عن " مينا " مؤسس دولة مصر القديمة إنّهما خرزتان بالنسبة إليه . بل هو وإن يك من الفرائد ليس فى تاج مصر القديم بالنسبة إليهما إلاّ خرزة على ما كان من اتساع فتوحه . فمعاوية بن أبى سفيان مثلا ليس بخرزة فى تاج الملك الأموى بالنسبة إلى الوليد بن عبد الملك .

وقد زرت حصن (بوهين) فى سنة ١٩٦٠م . ثمّ إنى زرت من بعدُ فى سنة

١٩٦١م مدينة القيروان ورأيت مسجدها وبعض آثارها القديمة . وقلت من كلمة نظمتها ونشرت من بعد فى ديوان لى :

وفى القيروان الطلول النواطـ

ــق أطلال بوهين لا تنطق

فأخذ أحد مواطنىّ الفضلاء علىّ وقال يلومنى بكلمات فرنسية وكان يحسنها ولا أحسها : لماذا الموازنة ؟ قلت له بالعربية: إن الشعر قل أن يحسن صاحبه تفسيره ونقده ، ومن أجل ذلك قال أبو الطيب وهو سيد الشعراء :

أَنَامُ مِلءَ جُفُونِى عَنْ شَوَارِدِها

وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

ولا أريد أن أشبه نفسى بأبى الطيب وإنما أريد أن أحتمى به . ولا ريب أن أطلال " بوهين " الآن لا تنطق لأن الماء غامرها. وقد تعلم- أصلحك الله - أن الطلول مهما تكن ظاهرة غير مغمورة فإنها لا تنطق ولذلك قال لبيد :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا

صمًّا خوالد ما يبين كلامها

أم تنطق ؟

أليس عنترة يقول :

أعياك رسم الدار لم يتكلم

حتّى تكلم كالأصمّ الأعجم

دنقلا أو دمقلة أو دنقلة : (أى دنقلة القديمة ويقال لها العجوز) الميم والنون حرفان متقاربان وكثيرا ما يقع بينهما الإبدال. وفى القاموس المحيط للفيروزابادى أن دنقلة عاصمة بلاد النوبة وأنّ سيدنا بلالا أصله من ناحيتها . ولعله أخذ هذا من الجاحظ إذ ذكر فى البيان أو الحيوان أن أصل سيدنا بلال من النوبة والصحيح أن سيدنا بلالا كان من أهل مكّة وُلِدَ بها هو وأبوه واسمه بلال ابن رباح وابن حمامة وهذه أسماء عربية ، وقد أشار إليها أبو العلاء المعرّىّ فى لزوميته :

أياديك عدت من أياديك صيحة

بعثت بها ميت الكرى وهو نائم

هتفت فقال الناس: أوس بن معير

أو ابن رباح بالمحلّة قائم

ونعم أذين المعشر ابن حمامة

إذا سجعت للداكرين الحمائم

ولم أجد عند من يعرف لغة النوبة تفسيرا لاسم دنقلة . ويذكر أنها كانت فى الدهر القديم بلاد خيل . ويقال إن ملوك نينوى فى الزمان القديم كانت تعجبهم الخيل التى تجلب من دنقلة يباهون بها لقوّتها . وبلغنى أنّه فى دنقلا

إلى الآن خيل جياد ، فلا يعلم أهى من خيلهم القديمة أم هى مما جاء به المماليك فى هربهم من محمد على باشا ، إن يك نجا منهم عدد فهرب ، فقد سمعت من ينكر قصة وثوب محمد مراد بفرسه من القلعة يزعم أنّها خرافة . وفى صعيد مصر وفى السودان ممن ينتسب إليه أناس ، فتأمل .

والذى شاهدناه وعرفناه أن الحمير المجلوبة من دنقلة من جياد الحمير ، فارهة عالية ، تزيّن بالقصّ المزخرفة، حتى كأنّها لو بسطت ما عليها من جلد وشعر فافترشته لكان كما تكون الزُّربِيَّة الجميلة.

وياليت شعرى هل كانت (خيل بربرا) التى وصفها امرؤ القيس حميرا من هذا النوع الدنقلاوى الفاره ؟ قال :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنّما
نحاول ملكا أو نموت ونعذرا
على كل مقصوص الذنابى معاود
بريد السّرى بالليل من خيل بربرا
إذا زعته من جانبيه كليهما
مشى الهيدبى فى دفّه ثم فرفرا

والعرب قلما تذكر الحمير (الأهلية) فى شعرها ، على أن جلّ اعتمادها فى حواضرها وفى اليمن والأحساء ومكّة ويثرب كان عليهن . قال الراجز يذكر نعض عمل الحُجَّاج ودفعهم من عرفة إلى مزدلفة :

نحن دفعنا عن أبى سيارة
حتّى أحاز سالما حماره

وقال النميرى حين سأله الحجّاج عن الأبيات التائية التى يذكر فيها زينب الثقفية :

ولما رأتْ ركب النميرى أعرضتْ
وكنَّ من أن يلقينه حذرات

إنه ما كان إلا على حمار مع صاحب له فذلك ركبه .

وقال الفرزدق :

ألا لعن الإله بنى كليب
ذوى الحمرات والعمد القصار

وفى كتاب الله العزيز : " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة " .

وفى تاريخ اليعقوبى أن الخيل العربية أصلها من حيول الجن ، عشرة منها عبرت البحر وخرجت من ساحل جدّة ، ثم صارت من بعد إلى أجياد،أو إلى حيث ألّفها جدّ العرب إسماعيل بن إبراهيم

عليهما السّلام . وللأستاذ الزميل العلامّة الشيخ حمد الجاسر مقدّمة حسنة فى هذا الباب فى كتابه النفيس عن أنساب الخيل القديمة، وقد أهدى إلىّ نسخة منه فى صحب زرنا منزله الكريم فى الرياض ، جزاه الله خير الجزاء .

وفى ابن الكلبى " أن خيل العرب التى أصلها من الجن طارت هاربة من سليمان لما طفق مسحًا بالسوق والأعناق فصارت إلى حرّة بنى سُليم . فهل كان العُبَيْد من نسلها ؟ أعنى العبيد الذى قال فيه العباس بن مرداس السلمى رضى الله عنه لـمّا تألّف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فأعطاه دونهم وكان هو وقومه قد أبلوا بلاء حسنًا يوم حنين :

أتجعل نهبى ونهب العبيـ
ـد بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس
يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما
ومن تضع اليوم لا يرفع

والخيل التى ذكرها اليعقوبى ليست من خيل سليمان . وما أحسبها انبثقت من البحر ، أو قذف بها من أعماقه وكانت بسحرها العفريتى ساكنة فيها ، بل الراجح عندى- إن صح خبرها - (وهو إن شاء الله صحيح أو أحسبه صحيحًا) أنها عبرت البحر على سفينة جاءت من الساحل الغربى . ولعلها إنما كانت بضاعة جلبت من دنقلة القديمة العجوز على النحو الذى كان يُعْهد على دهر ملوك نينوى الأولين،وقد كان منهم من غزا يثرب فى المائة الثامنة قبل الميلاد، وذلك زمان مقارب أو معاصر لزمان الأسرة الخامسة والعشرين من الأسر الفرعونية ، ويقال إن من أسباب مسير "بعنخى " أول فراعنة تلك الأسرة إلى طيبة ما سمعه من أن ولاة طيبة لا يحسنون القيام على الخيل وكان هو لها محبّا وعلى صونها غيورًا .

وأهلنا الجعليون وهم عرب ينتسبون إلى سيد العباس بن عبد المطلب يقولون حين يتحدثون عن "دنقلة" (ضنقلة) بالضاد لا الدال . وأكثر ما تكون الضاد فى لسان الجعليين مقلبة عن الذال . من ذلك قولهم: " الضّهب" أى "الذّهب" . ومنه قولهم: ضهب يضهب أى ضلّ الطريق ، كأنّ الأصل فيه ذهب به يذهب به على غير هدى . وصيغة "فِعِل"

بالكسر فى فُعِل المبنى للمفعول مما ذكره سيبويه فى الكتاب .

ونقول فى عاميتنا ضِرِبْ أى ضُرِبَ وسِرِق أى سُرِقَ والمضارع يَضْـرَبْ أى يُضْرَب ويَسْرَق أى يُسْرَق . وفى الأمثال عندنا : ال يَسْأَل ما بيَضْهَب ، وقد ينطقونها : ال يسعل ما بيضهب أى الذى يسأل لا يضلّ الطريق .

وقالت قينة الجعليين المغنية فى أغانى الدّلُّوكة (والدّلوكة طبل رنّان يستعمل فى الأعراس وأحسب اسمه من اسم ملكة فرعونية قديمة يقال لها دلوّكة) .

يوم الشوف بيشوف الشوف
ما حضر قسمة الخوف
ضكر الفيل الناجع
قلبه أصم خاتى الضّلّ .

أى يوم ينبغى أن يتبين المرء الأمور ببصر وبصيرة فإنه يفعل ذلك ، إنّه يشوف الأمور أى يراها بجلاء .

ولما قسّم الخوف بين الناس لم يحضر هو قسمته و لم يكن له منه نصيب . وهو كالفيل الذكر الذى فارق القطيع وانتجع الأجماتَ البعيدات فى صرامته وشجاعته وقلبه أصم مجتمع قد أخطأه كل ذلّ .

ويقال إن فحل الفيلة إذا فارق القطيع فإنه يكون شديد التوحيش شجاعًا لا يطاق .

ونلاحظ هنا انقلاب الضاد عن الذال فى ضكر وضل أى ذكر وذلّ .

والأبيات من شعر قينة بطحانية والبطاحين فرع من بدو الجعليين .

وقال شاعر من الجمع وهم بدو آخرون من الجعليين :

عقيلة البكار (أى الأبكار)

لابسة الضّهب تلاّل

أى لابسة قرطا من الذّهب . تلاّل بتشديد اللام الأولى أى قرط كبير ، اشتقاقه من التليل وسمى تلاّلا لأنه يظهر جمال التليل أى العنق . قال أبو الطيب يصف الفرس العائم وهذا لعلّه من نسل خيل اليعقوبى البحرية :

تراه كأن الماء مرّ بجسمه
وأقبل رأس وحده وتليل

ويقال عند الجعليين ضنب فى ذنب وجضل فى جذل، أى جذل الحطب وجضام فى الجذام والعياذ بالله منه ، وهلم جرا .

ونقول بعد: هل " ضنقلة " أصلها ذنقلة بالذال " ؟ وهذه مختصرة من قولهم "ذو أنقلة " ثم سقطت الألف فصارت

ذنقلة – وهذا كأنّه علم شـبيه بصيغ بعض الأعلام اليمنية، كقولهم: ذو يزن وذو ظليم ، وذو كلاع ، وذو رعين ، وذو نواس ، وذو شناتر وهل المعنى ذو النقلة أي الانتقال أي السفر، أو ذو أنقلا-ذنقلا- أى ذو الحافر ؟ وكأن اللفظ اللاتينى ungla بمعنى حافر مأخوذ من أصل كنعانى، والكنعانية أخت العربية كما قال صاحب القاموس المحيط . ويكون على هذا معنى ذنقلة أى بلد الحافر أى بلد الخيل .

وهل أصل الخيل العراب من خيل ضنقلة – ذنقلة – دمقلة ؟ وهى كما قدمنا دنقلة القديمة العجوز لا الحديثة التى إنما هى حاضرة عصرية ؟

وهل جاء منها حصان عمرو بن معد يكرب الزبيدى الذى عابه الأمير الباهلى بأنّه هجين فقال عمرو : هجين عرف هجينًا مثله ؟

مقرات :

اسم جزيرة عن منحنى النيل فى ناحية أبى حمد إلى شلال الحماب بعد أن يجتاز وادى الحمار ، متّجها جنوبا كأنه يريد أن يعود إلى الأقاليم الاستوائية التى منها نبع فرعه الكبير المسمّى البحر الأبيض أو النيل الأبيض ، ولكنه بعد أن يصل قرية الدبّة يتّجه شمالا نحو شلال دنقلة أو كرمة التى تقع شمالى دنقلة الحديثة . من عجيب أمر شلالات النيل أنّها تعد عدًّا معكوسًا؛ لأن بواخر محمد على باشا بدأت سيرها من الشمال إلى الجنوب معاكسة لسير تيار النيل ، فقيل لشلال أسوان: الشّلال الأول،وهكذا إلى آخر شلالات النيل شمالى الخرطوم واسمه السّبلوقة أو السبلوقة بالقاف التى كالكاف ، وحرّفت بآخره إلى كاف خالصة تحت تأثير النطق الإفرنجى . وقد سمعنا بعضهم يقول :" أنا ماشى كارتوم" أى إلى الخرطوم يتفرنج بذلك . وسبلوقة أصلها من السّبل أى المطر، ومن كسر السّين فكأنّه بدأ بها شبه ساكنة كعادة البداوة فى خطف الكلام ثمّ تخلص من السكون إلى الكسر . وأحسب أن ابن جنّى قد أشار إلى شيء من نحو هذا فى الخصائص . وأمّا (أوق) و (أيق) فللنسبة فى استعمال أهل النيل فى بلادنا . وعلّها نوبية، وأقرب عندى أنها من نوع عربى الأصل ، وذلك أن أوق وأيق بالقاف وآنج كلها قريبة من ياء النسبة

العربية . وقد تصير هذه جيما كما فى :
البرنج أى البرني فى قول الآخر :

خالى عويف وأبو علج
المطعمان اللحم بالعشج
وبالغداة فلق البرنج

وقد تقلب الياء جيما على أية حال فى نسب وغيره كما فى قول الآخر :

رب العباد إن قبلت حجتج
فلا يزال شاحج يأتيك بج

وفى بدونا من يقول اليمل فى الجمل . وقد تقلب الجيم دالا كما فى الدحش أى الجحش .

وكأنّهم قالوا: سبلى فى الفصيح ثم صاروا بها إلى سبلج سبلق سبلوق . والله أعلم وشلاّل السبلوقة هو الشلال السادس فى العدّ المعكوس، ولشلالات النيل الستة أسماء ذكرنا منها شلال أسوان ، وهو الأول كما قدمنا وله بقية شمالى السّد العالى . والشلال الثانى جنوبى وادى حلفا الغريقة، كأنما كان من بعض أرجائها فى بلاد النوبة السفلى فى موضع يقال به " جمى " وباسمه كان يسمّى الشلال . ولعلها كلمة نوبية الأصل ، ولعلها لا تخلو من نفس أصل عربى كأنه من اليم ، ويقال للماء فى الرمل الجمّام من جمّ الماء يجمّ ، وكان النيل تتقسمه صخور الشلال ورماله أيام التحاريق ، وهو الآن جميعه فى بحيرة السدّ تتلاطم فوق صخيراته الغريقة فى أعماقه أمواج عَيْلَم جديد .

ومقرات التى جرّت إلى هذا الاستطراد لعل أصلها عربى وتكون على هذا أختًا للتى فى معلقة امرئ القيس حيث قال :

فتُوضِح فالمِقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمال

وإنما سميت المقرات فى بيت امرئ القيس لاجتماع ماء الغيوث فيها. وقال الأعشى:

شتّان ما يومى على كورها
ويوم حيّان أخى جابر
أظل فى تيهاء مسجورة
وأنت بين القرون والعاصر

والقرو الحوض . وقد نأنس ههنا بقول حبيب :

ولو كان يفنى الشعر أفناه ماقرت
حياضك منه فى العصور الذّواهب
ولكنه صوب العقول إذا انجلت
سحائب منه أعقبت بسحائب

وخبّرني مواطن من أهل مقرات أن معنى مُقرات الحوض وذلك لأن النيل فى جانبها أو بعض جوانبها كحوض لما يحيط بها من الجنادل وما يتخللها منها . فالكلمة على هذا عربية ، وكثيرا ما تتحول الضمة إلى كسرة أو العكس أو يلتقيان ، كقولنا فى العامية: طُوال وكُبار وصُغار أى طِوال وكِبار وصِغار . وقد تعلم أيها القارئ الكريم أنهما قد تلتقيان فى الفصيح . وذكروا أن أبا الطيب كان ينشد :

تريدين لِقيان المعالى رخيصة

ولابد دون الشهد من ابر النحل

بكسر اللام من لقيان وقالوا إن ضمها أفصح أو هو المحفوظ . وقد كان أبو الطيب من حفظة اللغة ، وذكر أنه كان يحفظ جمهرة ابن دريد عن ظهر قلب . ومن حفظ حجة على من لم يحفظ .

الأُبَيِّض :

بضم الهمزة وفتح الباء وكسر الياء المشدّدة تصغير الأبيض ، هكذا نُطْق المثقفين وكتب الجغرافية وما أشبه لها الآن . والنطق العامى الصحيح بهمزة موصولة ولام مكسورة كأنها مشدّدة هكذا ألبيِّض .

الأبيّض كبرى مدن غرب السودان القريب ويقال له: كردفان، وأشهر عند الجعليين إلى زمان قريب كردفال باللام وكان سفرهم إليها كثيرًا من أجل التجارة والجلب ويقال للتاجر: جلاّبى وللتجّار جلاّبة ثمّ صار يطلق هذا على أهل النيل عند أهل غرب السودان . وكانوا إنما يرون منهم التجار ، ويعجبهم منظرهم وثيابهم . ويتوهّمون عندهم الغنى . وقالت مغنية " الدلوكة " :

شدّوا له فوق ال يتاتى

مناى ليك تاجر مو زيّاتى

أى عاصر لزيت السمسم . ال يتلتى أى البعير الجيد . يتاتى أى يخطو كالصغير الذى يعلّم المشى بعد أن كان يحبو خطوة خطوة . ويقال لهذا النوع من تعليم الطفل المشى بعد الحبو بعاميتنا (التاتاى) أى التأتاء، والتأتأة فى الكلام معروفة . وقال مادح الرسول صلى الله عليه وسلم الحاج الماحى يذكر أمله أن يفوز فى الآخرة بحورية من الحور العين :

ألاعب فيها بالتاتاى

وهى من قصيدة له مطلعها:

قوافل درّجن بيجاى

طالبات الرسول ملجاى

ديوانه رحمه الله تعالى مطبوع ومشروح الأعلام لا تعلل كما ذكر الخليل . ومع لذا لن يبرح الناس يطلبون لها التعليل وجوه التأويل ، وتلك لهم شنشنة . سمعت أن الأبيض أو قل ألبيّض سميت ذلك لأنّها كانت أرض زراعة فى الخريف - أى موسم المطر - وكان لأحدهم حمار أبيض مربوط هناك ، فكان الناس يشيرون إلى موضع عريشهم أو اجتماعهم أو مخيمهم أو تايتهم بالقرب من آريّه كقولهم: عند ألبيّض أى عند الحمار الأبيض بالتصغير كما ذكرنا آنفًا من طريقة نطقهم ، ثم صار ذلك قرية ومدينة ، وقال المهاجرون لحرب جراب الفول الباشا الذى كان يحكمها ثائرين عليه مع المهدى :

السيد إياه السيد

المهدى أل فى الأبيض (البيض)

ثم نطق الإعلاميون العصريون كما قدمنا بالهمزة مضمومة وبالباء مفتوحة وضبط كذلك فى الخرائط .

الأبواب :

يقال إن هذا هو الاسم التاريخى للمنطقة الواقعة جنوب نهر أتبرا إلى شندى. ويرى بعضهم أنها تشير إلى الطرابيل أى الأهرام بناحية البجراوية وهي نحو من ستة وأربعين هرما وإلى القصور التى بناحية المصورات والنقعة شرقى النيل بين شندى وود بان النقا.

ولم أجد تفسيرًا شافيا ، والمؤرخون يذكرون أن اسم الأبواب هكذا وجدوه وهو الاسم التأريخى لبلد الجعليين . وعندى أنه قد يكون هذا الاسم محرّفا من " أرباب " وهى كلمة تطلق على سيد القوم وشيخ القبيلة . وأحسبها خليط من أصل عربى وأصل بجاوى . أما الأصل العربى فهو رب وأما الأصل البجاوى فهو (آب) وهى أداة جمع ونسبة . فبنو نافع يقال لهم نافعاب وبنو حسن حسناب . وهذا كقول العرب المغيرات فى بنى المغيرة والتويتات فى بنى تويت وكلاهما من قريش . وأرباب الجعليين أى سيدهم وملكهم والأرابيب الذين معه عسى أن يكونوا هم المراديين بهذا اللفظ ووقع فيه ما وقع فصير به إلى الأبواب، ولا معنى لها إلاّ أن يكون معنيا بها القصور وهو بعيد، وليس بالموضع قصور وإنّما أهرام وخرائب، وكلمة الطرابيل المستعملة أقوى دلالة عليها .

الأُضيّة :

اسم بلدة تقع غــــربى الأبيــض فى الطريق إلى الفاشر والكلمة عربية الأصل تصغير أضاة أى بحيرة ونطقــها ألضيّــة همزة وصل ولام مكسورة وضم الهمـزة إعلامى حديث .

النُّهود :

بلدة أخرى فى الطريق إلى الفاشـــر عاصمة دارفور - والنّهود مرادفة فى المعنى من حيث هى لفظ عربى لقولهم: النهوض، أى ينهد أو ينــهض منــها إلى النجعــة والسفر. قال أبو تمام :

لم يغز قوما و لم ينهد إلى بلد

إلا تقدمه جيش من الرعب

أراد بلم ينهد لم ينهض وليست الدّال هنا منقلبة عن الضّاد ولكن نهد لغة فى نهض.

الحُصَيْحِيصة :

وينطقونهــا الآن الحصاحيصــة ولا أدرى من بدأ هذا النطق الذى لا معـــنى له. وفيها محطة للسكة الحديدية . فعـــلّ أحد الكتبة خيل إليه أن الإمالـــة بعــد الصاد منقلبة عن ألف .

والكلمة مصغرة من حصحاصــة أى حصاة.هذا وجه،ووجه آخر بمعنى تمحص وتحقق وتدقق فى الأمر ونقول فى العامية: فلان حصحاص وحصيحيص بالتصغير .

وردّ دلك إلى " حصحص الحق " ليـــس ببعيد. والحصيحيصة الآن مدينة كبـــيرة فيها تجارة ومال وهى فى منطقـــة غنيـــة بالزراعة فى أرض الجزيرة على الشـــاطئ الأيسر من النيل الأزرق على بعد نحـــو أربعين ومئة كيلو متر من الخرطوم وفيـها معمل نسيج . وبالشاطئ الشرقى بالقرب منها غير بعيد مزرعة الجنيــد، ومعمــل لقصب السكر أنشئ فى أيام الرئيس عبود رحمه الله، وإزاءها بالشـــاطئ الشــرقى مدينة رفاعة، وأخذت اسمها من قبيلـــة رفاعة التى تمتد مراعيها شـــرقى النيــل الأزرق إلى قريب من أعاليه بعد ســـنار وفى أرض البطانة ، وهى الأرض الواسعة الواقعة بين الأتبراوى - أى نهـــر أتـــبرا ويقال الآن: عطبرة ولا أدرى لماذا يقــال ذلك - وفرعى النيـــل الأزرق الدنــدر والرهد - أما الرهد فمعناهـــا النــهر ، والدندر أحسبها اسمًا صوتيًا من صـــوت الأسد . قالت المغنية تمدح موســـى ود جلى :

ادر يوية يوم رِكِبْ دَفَّر

طلع ظيته شال بنات بربر

ولا بياكل الملاح أخدر

ولا بيشرب الخمر يسكر

الادر هو الأسد وهذه حكاية صوته ويويه صوت الخائفين منه من زغاريد النســـاء للخوف . ظيته أى صيته . شال بنـــات بربر أى ذهب وارتفع من غرب البـــلاد حتى وصل بندر بربر فى شمالها . أخدر أى أخضر واللفظة بالدال فى الفصيح . قـــال الشاعر :

خدراية فتخاء لبد ريشها

من الطل يوم ذو أهاضيب ماطر

ومن ذلك قولنـــا فى العاميـــة: " الطـــير الخدارى" .

وقد نظم الشيخ بابكر بدرى رحمـــه الله أسماء مراكـــز مديريـــة النيـــل الأزرق ، وكانت عاصمتها فى أيام الحكم الثنائى – ومازالت – ودمدنى . قال :

حصيحيصة سلم رفاعة قبلها

وود مدنى الكرسى مناقلها الأدنى

سلم أى مركز المسلمية وهى قريبة مـــن ودمدنى ورفاعة قبلها للقادم من الخرطـــوم والمناقل أدنى المراكز من ودمدنى .

الطين أو أبطين أى أبوطين :

جزيرة بالقرب من مقرات والاســـم عربى كما لا يخفى وقد وردت فى أغنيـــة، فزعموا أن الشبان سمعوا هـــذه الأغنيـــة ومعها ضربات الدلوكة و " سيرة " نسـاء عرس . و " السّيرة " هى مســـيرة مـــن الشبان والشواب وأهل العرس، وقد تكـــون فيها زينة من الخيل والحمير والإبـــل مـــع المشاة . فحفوا ليشهدوا الفرح ويشـــاركوا فى سروره . وكـــان صـــوت الدفـــوف والدلاليك وأصوات الغناء قريبة رخيمـــة أخّاذة مطربة . ولكنهم لم يجدوا السيرة ولا شيئا يدلّ عليها . كانت فى الهواء . كانت حفل عرس للجن يتغنى مغنيهم هكذا :

يا الساكنين قبالة الطين (أب طين)

وقرنك مرقـــد الوزين

كدى يا يم لل بتـــوق

العينة ام سحاب وبروق

أى يا هؤلاء الساكنون بالقرب من أو بمقابلة جزيرة (أب طين) أو الطين . مـــا أجمل شعرك كأنّه فى طوله وغزارته العشب الناعم الذى يرقد عليه الأوز – كذلك يـــا أماه عجبا لهذه التى تتوق بعنق ووجه بـــواق كالغيث الذى فيه سحاب وبروق .

هذا المقطع هو أول الأغنية التى أنشأها مغنى الجن، وقد حرصت على أن أحصـــل عليها كاملة وأنا فى سبيل ذلك إن شاء الله تعالى، وله الحمد أولا وأخيرا وصلـــى الله على سيدنا محمد وعلـــى آلـــه وصحبـــه وسلم..

عبد الله الطيب

عضو المجمع من السودان

البلقاء

في كتب الجغرافيين العرب

للأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد

تزخر كتب التراث بذكر "البلقاء" ومدنها وقراها وأوديتها وجبالها ، ومنها "عمّان" التي ذهب بعض الجغرافيين إلى أنها "قصبة البلقاء" (١) . ولن نطيل التطواف في كتب السيرة النبوية الشريفة وكتب التاريخ والأدب العام ودواوين الشعر ، فذلك أمر يخرج بنا عن العنوان الذي اخترناه لهذه الدراسة وحصرناه في كتب الجغرافيين العرب دون غيرها من كتب التراث ، إلا نُتَفًا يقتضيها المقام .

- ١ -

وقد اختلف أولئك الجغرافيون في تحديد " البلقاء " مثلما اختلفوا في تحديد كثير من المواقع غيرها. فتفاوتَ تحديدهم بين الضيق والاتساع : فهي حينًا لا تتجاوز "مدينةً بالشام" كما ذكر الحِمْيَري في الروض المعطار (٢) ، وهي حينًا آخر تتسع قليلا لتصبح كورةً محدودة ، تُقْتَطع منها مدن وقرى وجبال، ويُجعل بعض هذه المواقع المقتطَعة كورًا مستقلة ، فقد نقل ابن الفقيه عن المدائني قوله (٣) : " دمشق مدينتها الغوطة ، وكورها . وظاهر البلقاء ، وحبرين الغور ، وكورة مآب ، وكورة جبال،وكورة الشراة.. وعمّان...". ولكنها حينًا ثالثًا تتسع لتشمل جميع ما يسمّى الآن بالمملكة الأردنية الهاشمية ، شرقيَّ نهر الأردن من جنوبي دمشق إلى أيلة على بحر القُلزم، قال ياقوت : (٤) : "البلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القُرى ، قصبتها عمّان ، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، وبجودة حنطتها يضرب المثل ... ومن البلقاء قرية الجبارين (يقصد : أريحاء) التي أراد الله تعالى بقوله: ﴿ إن فيها قومًا جبّارين ﴾ وقال قوم : وبالبلقاء مدينة الشراة ، شراة الشام ، أرض معروفة ، وبها الكهف والرقيم فيما زعم بعضهم..." . وذكر المقدسي أن البلقاء رستاق ، وجعل عمّان فيها ، وقال : إنها على سيف البادية(أي شرقي نهر الأردن) قال (٥): "وعمّان على سيف البادية ذات قرى ومزارع رستاقها البلقاء...".

(١) ياقوت ، معجم البلدان (عمّان) .

(٢) ص ٩٦ ، وانظر كذلك ص ١٦٤ .

(٣) كتاب البلدان ١٠٥ .

(٤) معجم البلدان (البلقاء) .

(٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ١٧٥ .

وقد زاد المقدسي موقع عمان والبلقاء توضيحًا بقوله(١) :"ووضع هذا الإقليم طريف (يقصد إقليم الشام) هو أربعة صفوف، فالصف الأول يلي بحر الروم (يقصد البحر الأبيض المتوسط) وهو السهل ، رمال منعقدة ممتزجة ، يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل . والصف الثاني : الجبل ، مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وإيليا ونابلس واللجّون ... والصف الثالث : الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ... يقع فيه من البلدان وَيْلة (أيلة) وتبوك وصغر وأريحاء وبيسان وطبرية وبانياس . والصف الرابع : سيف البادية وهي جبال عالية باردة ، معتدلة مع البادية ، ذات قرى وعيون وأشجار ، يقع فيه من البلدان : مآب وعمّان وأذرعات ...". ويبدو أن "البلقاء" تقع فى هذا الصف إذ ذكر المقدسي فيه عددًا من بلدانها . وربما يشير إلى ذلك أيضًا قوله (٢) - وهو يذكر دخول بني إسرائيل أريحاء - "...فلم يبق إلا دخوها من نحو الجبال وكذلك فعلوا لأنهم دخلوها من تحت البلقاء وعبروا الأردن إلى أريحاء ...". فالبلقاء إذن هى تلك الجبال الواقعة فى الصف الرابع . ويستأنف المقدسي كلامه السابق بقوله (٣) :"مع أنه يلزم صاحب هذه المقالة (أي دخول أريحاء من تحت البلقاء) شيئان : إما أن يقول إنهم لم يؤمروا بدخول جبال القدس ، وإما أن يقول إن جبال إيلياء والبلقاء ليست من الأرض المقدسة . ومن زعم شيئًا من هذين فترْك الكلام معه أصوب ...". وقال المقدسي كذلك (٤) :"... ومن أمثالهم قيل للبرد أين نطلبك ؟ قال: بالبلقاء . "

ومما يزيد هذا الموقع الشرقي للبلقاء وضوحًا وتحديدًا أن نذكر عددًا من المواقع التي ذكر بعض الجغرافيين العرب أنها من البلقاء ، أو من نواحيها . فمن ذلك ما ذكره الحميري من قوله (٥): "مآب : بالشام من أرض البلقاء .." وقوله(٦): " بلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء .." وكان ياقوت قد قال (٧) عنها :" مدينة في طرف

(١) المصدر السابق : ١٨٦ .

(٢) المصدر السابق : ١٨٧ .

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : ١٨٧-١٨٨

(٤) المصدر السابق : ١٧٩ .

(٥) الروض المعطار : ٥١٧ .

(٦) المصدر السابق ٥٦٥

(٧) معجم البلدان (مآب) .

الشام من نواحي البلقاء ". وقال عن مؤتة (١) :" قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ...". وقال عن مشارف(٢) "... بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف" . وقال عن مَعان (٣) "... معان البلقاء ... وهي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء ..." . وقال عن الكرك (٤): "اسم لقلعة حصينة جدّا في أطراف الشام من نواحي البلقاء في جبالها ..." . وقال الحميري عن الحُمَيْمة (٥) :"بلفظ التصغير ، قرية من كور دمشق من أعمال البلقاء ". وقال ياقوت عن "الشَّراة" (٦) :" وبالبلقاء مدينة الشَّراة، شراة الشام ، أرض معروفة ". وقال(٧): " والشراة أيضا : صُقْع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحُمَيْمة التي كان يسكنها ولد علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب في أيام بني مروان". وقال أبو عبيد البكري عن أذرُح (٨) : " مدينة تلقاء الشراة من أداني الشام...". وقال ياقوت عنها (٩) "... اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة ، ثم من نواحي البلقاء . قال ابن الوضَّاح : هي من فلسطين . وهو غلط منه ... وبأذرُح إلى الجَرباء كان أمر الحَكَمين ... "

وهذه المواقع كلها في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية ، وبعضها ، مثل "الحميمة" ، في أقصى الجنوب ليس بينها وبين خليج أيلة (العقبة) على بحر القلزم إلا أميال قليلة . وهي كلها كذلك تقع في "الصف الرابع " بحسب تعبير المقدسي إلى الشرق من الأغوار .

أما المواقع التي ذكر هؤلاء الجغرافيون أنها في البلقاء ، وتقع الآن في منتصف المملكة الأردنية الهاشمية ، فمنها :"الرقيم" قال الإصطخري (١٠) :"وأما رقيم فإنها مدينة بقرب(ا) البلقاء وهي صغيرة ، منحوتة بيوتها كلها ، وجدرانها من صخر كأنها حجر واحد ". وقال ياقوت(١١): " وبقرب البلقاء من أطراف الشام موضع يقال له : الرقيم . وقال غيرهم إن بالبلقاء بأرض العرب من نواحي دمشق موضعًا يزعمون أنه الكهف والرقيم قرب عمّان " . وهذا الموضع هو بلدة معروفة

(١) معجم البلدان (مؤتة) .
(٢) المصدر السابق (مشارف) .
(٣) المصدر السابق (معان) .
(٤) المصدر السابق (كرك) .
(٥) الروض المعطار : ١٩٩ - ٢٠٠ .
(٦) معجم البلدان (البلقاء) .
(٧) المصدر السابق (الشراة)
(٨) معجم ما استعجم (أذرُح) .
(٩) معجم البلدان (أذرح) .
(١٠) المسالك والممالك . ٤٧ .
(١١) معجم البلدان (الرقيم) .

الآن باسم " الرجيب " على عادة بعض العرب في قلب حروف معينة ، وفيها آثار يتداول الناس أنها قبور أهل الكهف. وقال ياقوت عن "زَيْزاء" (١) :" من قرى البلقاء وفيها بركة عظيمة ..." . ولا تزال هذه القرية وبركتها قائمتين في جنوبيّ عمان ويسمّونها "زِيزياء" وأحيانا "الجيزة ". وقال ياقوت عن القسطل(٢): " وقسطل موضع قرب(ا) البلقاء من أرض دمشق في طريق المدينة ، قال كُثيِّر:

سقى الله حيًّا بالموقَّر دارُهمْ

إلى قسطل البلقاء ذات المحارب

ومع أن الشاعر الأمويّ يضيفها إلى البلقاء ويجعلها منها ، فإن ياقوتًا يضعها "قرب البلقاء" وهي لا تزال قائمة إلى اليوم بين عمّان ومطارها . و"الموقر" التي ذكرها كُثيِّر ، معروفة مشهورة بهذا الاسم إلى اليوم ، وقد قال عنها ياقوت(٣): " ... اسم موضع بنواحي البلقاء من نواحي دمشق ..." ثم يقول عن أحدهم إنه " من أهل الموقّر : حصن بالبلقاء ...".

وهذه المواقع - فضلا عن أنها تقع في منتصف المملكة الأردنية الهاشمية بالقرب من مدينة عمّان التي ذكر ياقوت أنها " قصبة البلقاء " - فهي كلها أيضًا تقع في " الصف الرابع " إلى الشرق من الأغوار ، بحسب تعبير المقدسي .

فإذا تركنا جنوبي البلقاء ووسطها ، واتجهنا إلى الشمال ، وجدنا مدينة جَرَش التي يقول عنها ياقوت (٤) :"... وهي في شرقي جبل السواد من أرض البلقاء...". وجرش الآن مدينة عامرة كبيرة يؤمّها السياح لرؤية آثارها . ثم نوغل في الشمال حتى نشارف الحدود السورية فنجد " أذرعات " التي يقول عنها ياقوت (٥) :" بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمّان ... قال الحافظ أبو القاسم : أذرعات مدينة بالبلقاء ...". وقال الحميري كذلك (٦) " ...أذرعات: مدينة بالبلقاء ". وأذرعات تُعْرَف اليوم باسم درعا وهي بلدة الحدود السورية من ناحية المملكة الأردنية الهاشمية .

فعند هؤلاء الجغرافيين تمتد البلقاء من الحميمة في أقصى الجنوب ، وكانت مركز الدعوة العباسية السرّيّة ، وهي بعد عقبة أيلة المعروفة اليوم برأس النقب قرب خليج العقبة على البحر الأحمر . ثم تمتدّ إلى أذرعات في أقصى الشمال . وتقع البلقاء على سيف البادية ، على

(١) معجم البلدان (زَيزاء) .
(٢) المصدر السابق (القسطل) .
(٣) المصدر السابق (الموقّر) .
(٤) معجم البلدان (جرش).
(٥) المصدر السابق (أذرعات) .
(٦) الروض المعطار (أذرعات) .

المرتفعات شرقي الأغوار وهذه هي المملكة الأردنية الهاشمية بحدودها التي نعرفها اليوم ، إذا كانت "أذرعات" هي "درعا" أول الحدود السورية من جهة شمالي الأردن . ومع ذلك فإن البلقاء في يومنا هذا إحدى محافظات المملكة الأردنية الهاشمية ، وعاصمتها السلط ، وتقع إلى الغرب من عمّان وتشمل جزءا من الأغوار .

ومما يحسن التنبه له في هذا المجال أن لفلسطين والأردن نوعين من التقسيمات: تقسيمات عسكرية سياسية هي التي سُمّيتْ الأجناد . وهي تقسيمات خاصة بحركة الجيش الإسلامي في زحفه من الحجاز إلى الشمال . فكان الجُندُ الأول هو جندَ فلسطين ، وكان الجند الثاني جند الأردن (١) . وكان امتداد كلٍّ من هذين الجندين امتدادًا أفقيًا عَرْضيًا غربًا وشرقًا ، فعمَّان (٢) ومعان مثلاً من جند فلسطين ، وطبرية وصور مثلا من جند الأردن . والنوع الثاني : تقسيمات جغرافية طبيعية ، لها امتداد طولي عمودي من الشمال إلى الجنوب . كذلك هي البلقاء على ما وصفنا .

وكذلك هي الأغوار التي تسمّى عند الجغرافيين العرب " الأردن " في التقسيم الجغرافي الطبيعي . وكذلك هي فلسطين التي تمتد من رفح في الجنوب إلى اللجُّون في الشمال . قال ياقوت (٣) :"...أولها رفح من ناحية مصر وآخرها اللجُّون من ناحية الغور ...". وكان المقدسي قد قال(٤):" اللجُّون مدينة على رأس حدّ فلسطين في الجبال ...".

فهل نحن مصيبون في فهمنا لما ذكره هؤلاء الجغرافيون إذا ذهبنا إلى أن "جند الأردن " هو غير "الأردن"؟فالأول تقسيم عسكري سياسي إداري وهو تقسيم أفقي عَرْضي ، ويقع شماليّ جند فلسطين. أمّا " الأردن " ، فتقسيم جغرافي طبيعي يُقْصَدُ به جزء من الغور وهو الجزء المتمشّي مع نهر الأردن نفسه ويمتد امتدادًا طوليًا من الشمال إلى الجنوب . و"جند فلسطين" تقسيم عسكري سياسي إداري أيضًا ، وهو أول أجناد الشام من ناحية الحجاز . أما "فلسطين" وحدها فتقسيم جغرافي طبيعي يمتدّ طوليًا من الشمال إلى الجنوب . وعلى هذا نفهم تقسيمات المقدسي الأربعة التي

(١) وأجناد الشام خمسة ، بقيتها : جند دمشق وجند حمص وجند قِنّسرين .
(٢) أحسن التقاسيم : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ومعجم البلدان (فلسطين) .
(٣) معجم البلدان (فلسطين) . (٤) أحسن التقاسيم : ١٦٢ .

سمّاها "صفوفًا" ، وعلى هذا نفهم أيضًا قوله (١) :" ويلي كورة فلسطين من جهة المشرق كورة الأردن" وإلا لو كان يقصد "جند " الأردن لكان يلي " جند" فلسطين من جهة الشمال وليس المشرق. ولكن ياقوت الحموي يجمع ـ في الموضع الواحد ـ بين "كورة" و"جند" فيقول عن فلسطين(٢) " وهي آخر كور الشام من ناحية مصر ...".وبعد ثلاثة أسطر يقول: "وقيل في تحديدها : إنها أول أجناد الشام من ناحية الغرب ...(ا) وزُغر ديار قوم لوط وجبال الشراة إلى أيلة كله مضموم إلى جند فلسطين ...". فهل "كورة" و"جند" بمعنى واحد؟ وكيف يكون "جند" فلسطين أوّل أجناد الشام من ناحية الغرب؟ وليس من ناحية الشمال (شمال الحجاز) وقد ذكر ياقوت نفسه أن "عمّان" من مشهور مدن فلسطين ، وعمّان تقع إلى الشرق على "سيف البادية" (٣) في "الصف الرابع" .

و لم أستطع تفسير هذا التداخل في التسميات وفي المواقع إلا على أساس واضح من التمييز بين التقسيم العسكري السياسي أو الإداري والتقسيم الجغرافي الطبيعي ، وكذلك التفرقة بين "كورة" و"جند" (٤) . ومع ذلك فالموضوع لا يزال محتاجًا إلى مزيد من البحث والتدقيق، لتأكيد ما ذهبتُ إليه ، أو لتغييره وتفسير هذا التداخل تفسيرًا آخر يوضّح الصورة ويجلو اختلاف التسميات والمواقع.

-٢-

وعمّان ، قصبة البلقاء ، وعاصمة المملكة الأردنية الهاشمية ، وصفها المقدسي بأنها (٥) " على سيف البادية ذات قرى ومزارع ، رساتيقها البلقاء ، معدن الحبوب والأغنام ، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء ، ولها جامع ظريف بطرف السوق ، مفسفس الصحن ، وقد قلنا إنه شبه مكة (٦) . وقصر جالوت على جبل يُطل عليها . وبها قبر أوريّا

(١) أحسن التقاسيم : ٣٧٧ (٢) معجم البلدان (فلسطين). (٣) معجم البلدان (عمان).

(٤) حدّد ياقوت في مقدمة معجم البلدان (١٠ ٣٦ - ٣٩) هذين المصطلحين مع غيرهما من المصطلحات الجغرافية للمواقع ، فقال :"الكورة كل صُقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لكل القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسْم الكورة ..." وقال ." ... سَمّى المسلمون كل واحد من أجناد الشام جندًا لأنه جمع كُوَرًا ، والتجنّد على هذا : التجمع . وقيل سمّى المسلمون لكل صقع جندًا بجند عُيّنوا له يقبضون أعطياتهم فيه منه ..." وقال " ... و لم يبلغني أنهم استعملوا ذلك في غير أرض الشام" .

(٥) أحسن التقاسيم : ١٧٥ .

(٦) وذلك قوله : " مكة ... حُطّتْ حول الكعبة في شعب وادٍ ، رأيت لها ثلاث نظائر · عمّان بالشام واصطخر بفارس وقرية الحمراء بخراسان " (ص : ٧١) .

عليه مسجد ، وملعب سليمان ، رخيصة الأسعار ، كثيرة الفواكه ، غير أن أهلها جُهَّال ، وإليها الطرق صعبة (١) (ا)

وقد كرر وصفه لأهل عمّان في الفصل الذي عقده بعنوان "ذكر الخصائص في الأقاليم " تتبّع فيه صفات أقاليم العالم المعروف عنده،وذلك قوله(٢) :"...وليس أكثر ولا أرذل من مذكّري نيسابور ، ولا أطمعَ من أهل مكة ولا أفقر من أهلْ يثرب ولا أعفّ من أهل بيت المقدس ... ولا أجهل من أهل عمّان ...".

ثم يصفهم وصفًا آخر بقوله (٣) : "... وأهل طبرية ونصف نابلس وقَدَس وأكثر عمّان شيعة ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم في خفية ...". ثم يقول عن أنواع التجارة والبلاد التي تجلب منها (٣): "...ومن عمّان : الحبوب والخرفان والعسل...".ويصف مكاييلهم بقوله(٤): " ... ومُدْيُ (٥) عمّان ستّ كيلج(٦)، ويتحدث عن مُوقع عمّان في طريق الحج فيقول (٧) :"... وأما طريق تبوك فتأخذ من عمّان إلى معان مَنْهَلَين ثم إلى تبوك مثلهما ... وأما طريق وبير فتأخذ من عمّان إلى وبير ثلاثة مناهل ... وهذه المحجّات الثلاث طرق العرب إلى مكة ، وفيها كان بريد ملوك بني أمية وقت كونهم بدمشق ، وإيّاها سلكت جيوش العُمَرَين وقت فتح الشام . وهنّ قريبات آمنات ، أصحابها بنو كلاب ، ويصحبهم كثير من أهل الشام يجتمعون في عمَّان . وقد سلكتُها غير مرَّة ..."

ونقل ياقوت وصف المقدسي لعمان ورستاقها البلقاء ، ولأنهارها وجامعها وقصر جالوت (٨) ، مع تغيير يسير في بعض الألفاظ ، وأضاف - بعد الوصف- ستة أبيات للأحوص بن محمد الأنصاري مطلعها :

أقول بعمَّانٍ وهل طربي به
إلى أهل سَلْعٍ ، إنْ تَشوّقتُ ، نافعُ

وثلاثة أبيات للخَطيم العُكْلي اللصّ ، مطلعها :

أعوذ بربّي أن أرى الشام بعدها
وعمَّان ما غنَّى الحَمامُ وغرَّدا

(١) في الأصل (الصعبة) واخترنا ما في ياقوت نقلا عن المقدسي. (٢) أحسن التقاسيم : ٣٤ .

(٣) المصدر السابق : ١٧٩ . (٤) المصدر السابق : ١٨٠ .

(٥) المصدر السابق : ١٨١ . (٦) "المُدْيُ (بالضم) :مكيال للشام ومصر،وهو غير المُدّ ، ج:أمداء" القاموس المحيط.

(٧)جمع كيلجة ، وتقديرها صاع ونصف (أحسن التقاسيم : ١٨١) . والصاع النبوي وزن ما فيه من القمح بموازين اليوم كيلوان ونصف الكيلو .

(٨) أحسن التقاسيم : ٢٤٩ - ٢٥٠ . (٩) معجم البلدان (عمّان) .

ولم يذكر أبو عبيد البكريّ شيئًا ذا غَنَاء عن عمّان إلا أنه أورد بيت الفرزدق(١):

فحبُّك أغشاني بلادًا بغيضة
إليَّ ، وروميًّا بعمَّانَ أقشرا(٢)

سامح الله الفرزدق .

ونقل ياقوت " عن بعض اليهود أنه قرأ في بعض كتب الله "... تفسيرًا إسرائيليًا لاسم عمّان . وهو تفسير بعيد عن الحقيقة، وقد عقّب على ذلك بقوله: " وهذا كما تراه ، ونقلته كما وجدته ، والله أعلم بحقّه من باطله! " واسم عمان مأخوذ من اسم قبيلة عربية سكنتها منذ عصور قديمة هم العمونيون .

-٣-

وقد تعرضت عمّان للدّمار مرارًا في تاريخها الطويل (٣) ، وكان يعاد بناؤها في كل مرّة . فقد خضعت لحكم "بطليموس المصري"خلال جزء من القرن الثالث ق . م ... وأعيد بناؤها وسمّيت فيلادلفيا على اسم بطليموس فيلادلفوس الثاني (٣٨٣ - ٣٤٦ ق.م) ... وبعد الفتح الروماني (نحو سنة ٣٠ ق.م.) أعيد تخطيط المدينة وبناؤها على مقياس واسع ... " (٤) .

وفي الإسلام أعيد بناؤها مرارًا أيضًا . فقد ذكر ابن قاضي شهبة في حوادث سنة ٧٥٧هـ (٥) أن الأمير سيف الدين صَرْغَتْمِش اشترى "عمان من البلقاء ، اشتراها من بيت المال ، ورسَم بِعمارتها ، فعُمِّر منها جانب ونُقل إليها الولاية والقضاءُ من حُسبان . وهي بلد قديم لها ذكر في الأشعار " .

وفي حوادث سنة ٧٦١هـ أن كُجْكُنّ بن الأقوش الجُوكنداري "وَلّيَ نيابة الأمير صَرْغَتْمِش وعَمَّر له مدينة عمّان(٦) ".

وفي حوادث رجب من سنة ٧٩٧هـ قال (٧) :" وفيه اشترى نائب

(١) معجم ما استعجم (عمّان) .

(٢) يمدح الفرزدق سليمان بن عبد الملك حين وَلِيَ الخلافة ، وقبل هذا البيت :

فما كنتُ عن نفسي لأرحل طائعًا — إلى الشام حتى كنتَ أنتَ المؤمّرا
فلما أتاني أنها نُتِجَت له — بأوتادِ قَرْمٍ من أمية أزهرا
نهضتُ بأكناف الحاجين نهضةً — إلى خير أهل الأرض فرعًا وعُنْصُرا
فحبك ... (البيت)

(٣) انظر:لانكستر هاردنج،آثار الأردن،تعريب سليمان موسى: ٦٨- ٧٣ ، منشورات وزارة السياحة والآثار،عمان،الأردن١٩٧١م.

(٤)لانكستر هاردنج : آثار الأردن ، تعريب سليمان موسى . ٧٢ .

(٥) تاريخ ابن قاضي شهبة ٣/٢ . ٩٩ ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٩٤م ، وقد دلني على هذا النص والنص الذي برقم (٣) في هذه الحاشية الصديق الأستاذ إبراهيم شبوح .

(٦) المصدر السابق ١٧٤ (٧) المصدر السابق ٣: ٥٥٠ ، دمشق ١٩٧٧م .

الشام مدينة عمّان بالبلقاء من وكيل / ورثة بلوط. وكانت انتقلت إليه من صَرْغَتْمِش ، وكان انتقل لنائب مصر الأمير سُودُون منها جزء من التراب فباع أيضًا وكيله ، وغرم النائب على عِمارتها وإعادتها على ما كانت عليه أيام صَرْغَتْمِش . وكان قد اشتراها من بيت المال وبناها له نائب كُجْكُنِّي في سنة سبع وخمسين و لم تكمُل عِمارتها ، لكن سُكِنت ونقل إليها القاضي والوالي وأهل سوق حُسبان وجماعة منهم ومن تلك البلاد ، وصارت أمّ البلاد كما كانت قديمًا " .

ونعود إلى نصّ المقدسي الذي نقله عنه ياقوت ، ونقف عند بعض ما ورد فيه لنجد عمّان في أيامنا الحديثة هذه قد تغيّرت عمّا وصفها به المقدسي ، عن عِيانٍ ومشاهدة في زمانه ، حتى إن المرء حين ينظر إلى حاضر عمّان يظن أن المقدسي وصف بلدة أخرى ، أو أنه أخطأ في الوصف . ولكننا إذا رجعنا إلى ما يزيد قليلا على ستين سنة ، إلى سنة ١٩٣٣م وهي السنة التي جئت فيها مع أسرتي من معان إلى عمّان، لوجدنا أن المقدسي كان في الغاية من الدقّة والضبط في وصفه عمّان. فقد كانت حقّا ذات قرى ومزارع ملاصقة لها ، ومحيطة بها ، وقد تبتعد عنها قليلا ولكنها تظل متصلة بها . ومنذ تلك السنة حتى الآن أخذ العمران يزحف على تلك المزارع حتى طغى عليها ، فاندثرت أو كادت . ولا يزال الذين تجاوزوا الخمسين من أعمارهم يذكرون تلك المزارع وأنها حقًا كانت "معدن الحبوب والأغنام " !

أما أنهار عمّان فيبدو أنها كانت معروفة منذ العصور القديمة ، فقد كانت توصف في زمن النبي (الملك) داود بأنها " مدينة المياه " لكثرة الينابيع الغزيرة التي تتفجر حولها (١) والتي استمرت تسقي أهلها إلى ما يقرب من منتصف القرن الحالي . وقد شهدت في طفولتي - حين سكنّا عمّان - سيلين كبيرين يتدفقان معظم شهور الشتاء من غرب عمان (في وادي عبدون) ومن شمالها الغربي (في وادي صقرة) ويجرفان في طريقهما كثيرًا من البيوت والمتاجر ، ويصبّان مع ما ينضمّ إليهما من سيل " رأس العين " في مجرى السيل الرئيسي في وسط المدينة فتتدفق مياهه ويفيض على حِفافَيْه ، فيُغرق كثيرًا من البيوت والمزارع حوله ،

(١) لانكستر هاردنج ٠ ٧٠ .

ويستمر تدفقه صيفًا وشتاءً، طوال السنة، مع تفاوت في غزارة مياهه، مارًا ببلدة "الرصيفة" ثم ببلدة "الزرقاء". وكنا ونحن أطفال نصيد فيه السمك ونشاهد البط يسبح فيه.

وقد جُهّز نفق في الشوارع الرئيسية في عمان ليستوعب مياه السيل القادم من وادي صقرة، ثم سُقف هذا السيل؛ فأمن الناس شر تدميره لما على جانبيه من منازل ومتاجر. وكانت هذه المتاجر تنصب ألواحًا خشبية مستعرضة لتمتص جزءًا من ماء السيل وتحول دون اقتحامه تلك المتاجر. ثم سقف مجرى السيل الرئيسي في وسط المدينة.

ومثلما تقلصت مزارع عمان وقراها وطغى عليها العمران، أراد الله، سبحانه، لهذه السيول أن تجفّ ولمياهها أن تشحّ. حتى تغيّرت صورة عمان الحالية عما وصفها به المقدسي ونقله عنه ياقوت.

أما ذلك الجامع الذي وصفه المقدسي بأنه " جامع ظريف بطرف السوق مفسفس الصحن ... وقد قلنا إنه شبه مكّة ... في شعب واد ..." فلا يزال قائمًا، وقد أحاطت به الأسواق، في شعب الوادي، في طرف سوق عمان القديم، وقد هدم مرارًا وأعيد بناؤه، ولا يزال له بهاؤه وأصالته بصحنه الجميل. وكان يسمّى في طفولتنا بالجامع العمري، ويعرف الآن بالجامع الحسيني.

أما ما ذكره المقدسي من " قصر جالوت على جبل يطل عليها " فهو قلعة عمان التي بنيت منذ عصور قديمة، وكشفت الحفريات الأثرية الحديثة عن عدة طبقات أهمها: الطبقات الرومانية والبيزنطية والأموية. وأما ملعب سليمان فهو المدرج الروماني الكبير الذي لا يزال قائمًا وقد رمّم ترميمًا أصبح معه مكانًا لأنواع من النشاط الثقافي.

أما الطرق إليها فقد أصبحت معبدة ميسرة للسالكين، وأما " أن أهلها جهال" فيبدو أن المقدسي لم يجد فيها حين زارها مرارًا - كما ذكر - أحدًا من علماء الحديث أو الفقه أو التفسير أو الفلك أو غير ذلك من علوم عصره في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

وبعد:

فقد اختصرنا الكلام اختصارًا وقصرناه على "عمّان" من مدن "البلقاء" وقراها التي ذكرها الجغرافيون العرب. وعسى أن يعين الله سبحانه على استكمال ما لم نستكمله في هذه الدراسة، له الحمد وبه التوفيق.

ناصر الدين الأسد

عضو المجمع من الأردن

المصادر والمراجع

١- الإصطخري ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي (٣٤٦هـ)
المسالك والممالك ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦١م .

٢- البكري الأندلسي ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (٤٨٧هـ) .
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، نشر المعهد الخليفي للأبحاث المغربية ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٥م.

٣- الحميري،محمد بن عبد المنعم الحميري (٩٠٠هـ).
الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ،ط:٢، ١٩٨٠م.

٤- ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني (٣٦٥هـ) .
كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٣٠٢هـ = ١٨٨٥م .

٥- ابن قاضي شهبة ، تقي الدين أبو بكر بن أحمد الأسدي (٨٥١هـ).
تاريخ ابن قاضي شهبة ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٩٤م .

٦- لانكستر هاردنج ، آثار الأردن ، تعريب سليمان موسى.
منشورات وزارة السياحة والآثار ، عمان ، الأردن ١٩٧١م .

٧- المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي البشاري (نحو ٣٨٠هـ).
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ، ليدن، ١٩٠٩م .

٨- ياقوت ، الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (٦٢٦هـ) .
معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٤م - ١٩٥٥م .

في " الأعلام الجغرافية اليمنية "

للأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائي

كان لي أن عرضت في مؤتمر المجمع – في السنة التي انصرَمَت – للأعلام الجغرافية في العراق ، وها أنذا أتبع ما كان لي في ذلك المؤتمر بشيء آخر أتعقّب فيه طائفة من الأعلام البلدانية في اليمن. وسأختار هذه الطائفة، فيكون لي فيها ملاحظات لغوية تاريخية ، وها أنذا أدرجها على حروف المعجم :

إبّ :

قال ياقوت : قال ابن سِلفة هي بكسر الهمزة، وهي من قُرَى ذي جبلة باليمن ، وهي عندهم بكسر الهمزة.أقول:وهي بليدة جبلية مازالت معروفة ذات خضرة وشجر. وهي عند الأصمعي بالفتح والتشديد. (١) أقول أيضًا : لعلّ الفتح في همزتها أوجه، ولكن الاستعمال غلّب الكسر . وإني لأذهب إلى هذا مستفيدًا من قوله تعالى : "وفاكهة وأبّا" (٢)

وإني لأنظر إلى "الأبيب " في اللغة العبرانية (٣) وهي كلمة بصيغة الجمع ، والمفرد أبّ" و" فعيل " من صيغ أسماء الجمع في العبرية ، ومنه هذه الكلمة ، وكذلك "فعيل" من أبنية التكسير نحو : نخيل وعبيد وغيرهما .

دلنا أن نستأنس بـ " تل أبيب" من الحواضر التي أنشأها اليهود في فلسطين العربية إبان الحكم البريطاني غير بعيدة عن القدس – حَرَسها الله – وكأنها في الأصل موضع تلٌ فيه زرع .

أَبْيَن :

من حواضر اليمن

ولا يعرف أهل اليمن غير فتح الهمزة

قال ياقوت : حَكَى أبو حاتم قال : سألنا أبا عبيدة كيف تقول: عَدَنُ أَبْين أو إبّين؟ قال : هما جميعًا .

وقال عُمارة بن الحسن اليمنى الشاعر : أبيَن موضع في جَبَل عَدَن .

وإلى أَبْيَن يُنسَب الفقيه نُعَيم ، عَشَريُّ اليمن ، وإنما سُمِّي عَشَريَّ اليمن ؛ لأنه كان يعرف عشرةَ فنونٍ من العلم .. (٤)

---

(١) معجم البلدان ياقوت ، هامش قرّة العيون ص ٢٨٢ ، اليمن الخضراء ٨٢/١ .

(٢) ٣١ سورة عبس .

(٣) W. Gesenius, Hebraeisches und Aramaeisches Handwoeterbuch ueber das Alte Testament, Leipzig 1910.

(٤) معجم البلدان وانظر : الإكليل ٤٧/٢ ، والمفيد ص ٥٤ ، وبهجة الزمن ص ٢٦ ، واليمن الكبرى ص ١٦٤ .

الأثلاء :

قرية من قُرَى ذِمار باليمن (١). وهي عزلة من بلاد عَنس فيما أضافه المقحفي في معجمه.

أقول : و"ذمار" من حواضر اليمن وسآتي عليها.

أثافث :

اسم قرية باليمن ذات كروم كثيرة. قال الهمداني " وتُسَمَّى أُثافة بالهاء، والتاء أكثر. قال : وخبَّرني الرئيس الكباري من أهل أثافِت ،قال : كانت تُسَمَّى في الجاهلية " دُرْنا" وإياها أراد الأعشى بقوله :

أقول للشَّرب في دُرْنا ،وقد ثَمِلوا
شِيموا،وكيف يَشِيمُ الشَّارِبُ الثَّمِلُ

وكان الأعشى كثيرا ما يتَّجر فيها ، وكان له بها مِعْصَرَة للخمر يعصر فيه ما جَزَل له أهل أثافة من أعنابهم.

قال الأصمعي : وَقَفتُ باليَمَن على قريةٍ فقلتُ لامرأةٍ : بِمَ تُسَمَّى هذه القرية ؟ فقالت : أما سمعت قول الأعشى :

أحبُّ أُثَافةَ ذاتَ الكرو
م ، عند عصارة أعنابها(٣)

الأثلوث :

عزلة من مخلاف نَقَذ من وصاب العالي(٤)

أقول : إن بناء أفعول معروف في مواضع اليمن وقبائله. وقد رأيت أن أذكر هنا شيئا من هذا ثم أعود إلى ما أنا فيه من ذكر الحواضر منسوقة على حروف المعجم. ولم أجد شيئا من "أفعول" في مصادر البلدان القديمة ، وليس في أبنية العربية "أفعول" بفتح الهمزة *

الأجدون :

قال الأستاذ القاضي إسماعيل بن محمد الأعكوع في مقالة له نشرها في مجلة مجمع اللغة العربية من سنوات بدمشق : إن الأجدون منسوب إلى ذي جَدن وهو قَيْل من الأقيال اسمه : عَلَس بن يشرح ابن الحارث بن صفي بن سبأ ، وهو أوّل من غَنّى باليمن فلُقّب بالجَدَن ، والجَدَن حسن الصوت. وقيل : جَدَن مفازة

---

(١) معجم البلدان لياقوت.

(٢) معجم البلدان والقبائل اليمنية. والعزلة : تجمع سكاني من عدة قرى برأسها ويحكمها شيخ ، وهو دون الناحية.

(٣) معجم البلدان.

(٤) معجم الحجري.

* قد يكون لي أن أذهب إلى أن " أفعول " بفتح الهمزة هو شيء من بقايا اللغة السبئية التي أسماها اللغويون العرب : "الحميرية" أو أن " أفعول " بفتح الهمزة من العربية التي استبدل اليمنيون بضم الهمزة فتحها.

باليمن يُنسَب إليها ذو حَدَن .

والأجدون : من حضرموت (١) .

الأجروم :

قرية من عزلة بني شيبة التابعة لناحية الشمايتين في الحَجْرية (٢) .

أقول : هل لي أن أقول : إن وجود بناء "أفعول" في المملكة المغربية في الجهات البربرية في الأعلام هو بعض ما كان من أثر يمني قديم نجده في الأعلام في إفريقيا والأندلس ، ومن هذا " أريانة " في الأندلس وتونس وأصلها يمني قديم ملزال في عصرنا وسيأتي ذكره .

وسأتبع ما ذكرته مما وَرَدَ على "أفعول" وأكثره مما صنَّفه اليمن في قولهم :"عُزلة" وهو موضع تجمّع سكاني صغير ، دون أن أفصِّل فيه إلا ما كان من أفعول مما يتجاوز هذا الوصف ، وهذا هو :

أجرون ، الأجشوب ، الأجعود (٣) ، الأحبوب ، الأحدوث ، الأحدود ، الأحروج ، الأحسون ، الأحضوض ، الأحطوب ، الأحكوم ، الأحموم ، الأحنوش ، الأحبوق ، الأخدود (٤) الأخدوع ، الأخضوض ، الأخطور ، الأخلود ، الأحمور، الأدروب ، الأذمور، الأزهور ، الأسروع ، الأسلوم ، الأشجور ، الأشروع ، الأشعوب ، الأشمور ، الأشنوس ، الأصبوح ، الأصبور ، والأصوت ، الأصيور ، الأضمور ، الأطمول ، الأظلوم ، الأظهور، الأعبود ، الأعبوس ، الأعجول(٥) الأعدول ، الأعدون (٦) الأعذور ، أعرود ، الأعروش، الأعروق، الأعشور ، الأعضود ، الأعمور ، الأعموق، الأعنود ، الأفروع ، الأفيوح، الأفيوش (٦) الأقحوز ، الأقدور ، الأقروض ، الأكبوش ، الأكروب ، الأكروف، الأكهوم ، الأمجود ، الأمروم، الأملوك ، الأنبوع ، الأنجود ، الأنقور ، الأنموم ، الأهجور ، الأهجوم ، الأهزون، الأهمول ، الأهنوم (٧) ، الأهيون (٨) ، الأبدوع ، الأيزوع ، الأيزون ، الأيفوع .

---

(١) مجلة الإكليل,عدد ٢ ص ١١.

(٢) ذكره الواسعي في "تاريخه" لا أدري أيكون آجروم في لغة البربر في المغرب الأقصى من هذا ، ونحن نعرف أن صاحب "الآجرومية" في النحو هو محمد بن محمد بن آجروم ، لعل لأهل العلم مقطع الرأي فيما حاك في نفسي

(٣) جاء في هامش الإكليل ٢/٦٥ ، ومجلة الإكليل (عدد٢ص١١) . أنها منطقة على مقربة من "الصالح" .

(٤) أقول . إن "الأخدود" بفتح الهمزة بناء خاص باليمن ، والأصل في العربية بالضم ، قال تعالى :" قُتِل أصحابُ الأخدود" ٤سورة البروج

(٥) قد يرد بين ما هو أفعول " قرية ومنه الأعجول " وغيره

(٦) ومما يندرج في "أفعول" ما هو نسبة فأعدون نسبة إلى عَدَن . وانظر " أحدون " .

(٧) والأهنوم : ناحية في الشمال الغربي من صنعاء .   (٨) الأهيون · بطن من الأرد .

أقول:هذا جملة ما ورد في بناء"أفعول" مما يدحل في "العُزَل"و"القبائل"وسائر المواضع.

أرحب :

ناحية تابعة إلى محافظة صنعاء في الشمال الشرقي منها على مسافة خمسة كيلو مترات . وهي أيضًا قبيلة كبيرة من همدان تنسب إلى أرحب بن الدعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل بن جُشم بن خيوان بن نَوف بن همدان . (١).

إرْيان :

بلدة مشهورة تقع ضمن ناحية القفر بالجهة الغربية من يريم ، وتقوم على جبل بني سيف المطل على مجموعة من الأودية الخُضْر . يُنسَب إليها جماعة من أهل العلم . (٢)

أقول : قد قلت إن في تونس بليدة إلى جوار تونس تطل على البحر هي أريانة ، وهي المدينة التي قيل : إن مهاجرة الأندلس مصَّروها وأعطوها اسم المدينة الأندلسية ، فهل لي أن أقول : إن الذين أسسوا حكم المسلمين في إسبانيا كان فيهم ولا سيما جيش الفتح يمانيون اعتمد عليهم الأمويون منذ عصر معاوية .

أزال:

عُزْلة من ناحية الرظمة وأعمال يريم . وهي الاسم القديم لمدينة صنعاء نسبة إلى بانيها أزال بن يقطن .. أقول : وقد أحيّا اليمنيون هذا الاسم فأطلقوه على مدارس وغيرها من مؤسسات .(٣)

وأهل اليمن في حاضرنا يقولون "آزال" بالمدّ .

أقول : لابد أن يكون هذا الاسم من السبئية القديمة ، فقد وجدت هذه المادة من موادّ المعجم السبئي الذي استُفيدت موادّه من النقوش القديمة .

غير أنه ينبغي أن نعرف أن السبئية عربية جنوبية في اليمن ، ومن هنا تكون "أزال" مثل مادة " أَزَل" في العربية القديمة .

"والأَزَل " القِدَم . قال أبو منصور [الأزهري] : ومنه قولهم : هذا شي أَزَليّ أي قديم . وذكر بعض أهل العلم أنّ أصل هذه الكلمة قولهم للقديم : لم يَزَل ، ثم نُسبَ إلى هذا فلم يستقم إلاّ بالاختصار فقالوا : يَزَليّ ثم أُبدِلت الياء ألفًا لأنها أخفّ فقالوا أَزَليّ، كما قالوا في

(١) معجم الحجري ، واليمن الكبرى ص ٧٣ .

(٢) معجم الحجري .

(٣) أقول : وكأننا نحن العرب لا نعير الماضي إرثه وحقّه حين يحلو ليمني أن يسمّي مغسلة افتتحها بـ " أزال" وقد رأيت نظير هذا في بلد عربي آخر فكان أن رأيت " صالون حلاقة المتنبي " !! وانظر معجم الحجري

الرمح المنسوب إلى ذي يَزَن : أزَنِيّ ، ونصل أثربيّ "(١) .

وأقول أيضًا : لقد فات المشتشرقين الذين صنعوا المعجم السبئي(٢) أن يفيدوا من العربية إضاءةً وإيضاحًا . وكان ينبغي للأستاذ محمود الغُول - رحمه الله - الذي شارك في صنعة المعجم أن يدلّ هذا الفريق الألماني على مكان العربية في هذا الدرس ، ولكنه لم يفعل .

ذي أشرق :

بلدة أثرية في سفح جبل التَّعْكَر بالجنوب الغربي من إبّ، وأعلى وادي نَخْلان من ذي الكلاع .

قال الأستاذ القاضي محمد بن علي الأكوع : هي بلدة نزهة ، يمّمها أرباب الصنائع وروّاد العلم (٣)

أقول : أدرجتُ هذه البلدة الأثرية لأشير إلى المواضع اليمنية عامة التي تُصَدَّر بـ(ذو) وهي في الأغلب الأعمّ يمنية جنوبية وفيها : ذو أشرع وذو الكلاع وغيرهما .

باجِل :

مدينة في الشمال الشرقي من تِهامة على مسافة ٥٥ كيلو مترًا من الحديدة . كانت عمارتها في القرن الرابع الهجري ، تتبع الحديدة إداريًّا .(٤)

بَعْدان :

جبل مشهور يطل على مدينة إب من ناحية الشرق ، وهو على حد تعبير الحجري - ناحية واسعة جملة عُزَل..(٥)

وجاء في "معجم البلدان " : بَعْدان ، بالفتح ثم السكون .. مخلاف باليمن يقال لها العدانية من مخلاف السَّحول ، قال الأعشى :

بِبَعْدانَ أوريمانَ أو رأس سلبه
شفاء لمن يشكو السمائم باردُ
وبالقَصْر من إريابَ لو بتّ ليلةً
لجاءك مثلوج من الماء جامد(٦)

أقول : قصدتُ أن أُثبت "بَعْدان" هنا لأشير إلى أن بناء "فَعْلان" خصوصية يمنية لشيوع هذا البناء فأنت تجد منه : كَهلان وقَحطان وخَولان وثَهلان وغير هذا من

---

(١) لسان العرب (أزل) .

(٢) المعجم السبئي ، من منشورات جامعة صنعاء ، صنعة أ.ف.ل بيستون وجاك ريكمانز ، ومحمود الغول ، ووالتر مولر. دار نشريات بيترز في لوفان الجديدة ومكتبة لبنان في بيروت سنة ١٩٨٢م وكان لي على هذا المعجم مستدرك أفدت فيه من العربية وغيرها من اللغات السامية .

(٣) معجم البلدان والقبائل اليمنية (الطبعة الثالثة) لإبراهيم أحمد المقحفي.

(٤) معجم الحجري . أقول لا أدري أيكون " با" في هذا الاسم هو "أبا" الذي لزم الألف في اليمنية الحميرية وكانت سابقة في أعلامهم نحو باعلوي ، وباعزمة، وبازرعة وغيرهم، وهذه هي اللغة التي ذكرها النحاة في الشاهد : إنّ أباها وأبا أباها" ؟ أيكون هذا في "باجل" أم أن "با " من عَلَم على فاعل .

(٥) معجم الحجري ومعجم المقحفي .

(٦) معجم البلدان لياقوت .

الأعلام القديمة. وفي عصرنا هذا نجد سَيْلان وعَمْضان وحَرْدان وشَمسان (غير مثنى لشمس). وكأني أذهب إلى أن "عدنان" الذي في شمال بلاد العرب واختص به قوم هم العدنانيون من أصل يمني، فهو منسوب إلى "العَدَن" الذي هو "الأصل" في العربية والسبئية، ومن هذا جاء معنى الإقامة، ومنه قوله تعالى: "جنّات عَدْنٍ يدخلونها" وبهذا سُمِّيت حاضرة عَدَن وليس كما ذهب أحد اللبنانيين الذي بحث في موطن اليهود فزعم أنّها بلاد جنوب بلاد العرب، وكان من زعمه أن " عِدِنْ " في أدبيات اليهود وفي بعض أسفار العهد القديم هي مدينة عَدَن.

بُقْلان :

مخلاف وقبيل من حضور بن عديّ، (ناحية البستان قديمًا) به محل " وقش" الأثري، وبُقْلان أيضًا موضع في محافظة مأرب.(١)

أقول: يطلع علينا هنا بناء " فُعْلان" بضم الفاء، وهذا قليل في العربية في بناء المفرد، وهو يترشح للمبالغة في الصفات، ومن ذلك: حُمْران وشُقْران، وقد سمّوا بهما ومن أولئك "حُمْران بن أعْيَن" ترجم له القفطي في "الإنباه" (٢) و"شقران" من أسماء العبيد المماليك.

بُكال :

عُزلة من ناحية الجَبَى وأعمال رَيْمة، نُسب إليها نَوف بن فُضالة البكالي التابعي المتوفّى سنة ٩٥هـ، من رجال الحديث وإمام أهل دمشق في عصره، ذُكِر في الصحيحين البخاري ومسلم، كما نُسب إليها عُمَر البُكالي الصحابيّ الذي جُزَّت أصابعه يوم اليَرموك، ثم عكف على تدريس الحديث في الشام، وكان أفقه مَن بقي على وجه الأرض من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (٣).

(١) معجم المقحفي.

(٢) إنباه الرواة ج٣، قال القفطي: إنه متشيّع على مذهب جعفر بن محمد. وأودّ هنا أن أشير أن صفة " حُمران" هذا بالتشيُّع قد ألحقها أو ادّعاها مهدي المخزومي للخليل بن أحمد في رسالته لنيل الماجستير التي أعدّها في القاهرة بإشراف الأستاذ مصطفى السقا – رحمه الله –، ونشرها في بغداد منذ أكثر من ربع قرن، ولم يفطن المشرف.

وتفصيل الخبر أن المخزومي رجع إلى إنباه الرواة (الجزء الثالث) في نسخة مخطوطة في دار الكتب برقم ٩٨٠ كما أظن. ونقل عن هذه المخطوطة هذه الصفة للخليل. لقد قرأت هذا واستبعدته لأني أعرف أن عامة من ترجم للخليل ذكروا أنه شديد في أهل السنّة، فكيف يكون متشيعًا على مذهب جعفر بن محمد؟

وأذكر أني في إحدى زياراتي للقاهرة ذهبت إلى دار الكتب المصرية وطلبت المخطوطة لأتحقق فوجدت: أن الناسخ أعطى صفة "حُمران" إلى الخليل وهو ينسخ سهوًا، لأن الخليل تأتي ترجمته بعد حمران مباشرة، ثم تنبّه إلى سهوه فضرب خطا على ما نسخه ورجع إلى ترجمة الخليل فصحّح. فانظر أخي القارئ كيف صنع المخزومي الذي أفاد مما هو خطأ ضَرب عليه الناسخ خطا ليُنسب التشيّع للخليل؟ وسبب ذلك أن المخزومي شيعي نجفي عراقي، قاتل الله التعصب!!

(٣) معجم المقحفي

بَيْنُونِ

قال ياقوت : اسم حصن عظيم قرب صنعاء ، يقال : إنه من بناء سليمان ابن داود- عليهما السلام- والصحيح أنه من بناء التبابعة .. (١)

أقول : ذكرت هذا لأنّ بناء "فَعْلُون" كثير في أسماء المواضع وأعلام الرجال في اليمن . وكأن هذا قد حُمل إلى إفريقيا والأندلس فشاع هناك في أسماء المواضع . ولي أن أحمل على هذا "بَيْنونة "الموضع بين عُمان والبحرين . قال ياقوت: بينه وبين البحرين ستون فرسخًا .

تَبالة :

قال ياقوت : قيل تَبالة التي جاء ذكرها في كتاب مسلم بن الحجّاج : موضع ببلاد اليمن ، وأظنها غير تبالة الحجّاج بن يوسف ، فإن تبالة الحجاج بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن . وهي ممّا يُضرَب المثل بخصبها ، قال لبيد :

فالضَّيفُ والجارُ الجنيبُ ، كأنّما
هَبطا تَبالةَ مُخصِبًا أهضامُها

وفيها قيل : أهوَنُ من تَبالةَ على الحجّاج، قال أبو اليقظان : كانت تبالة أوّل عمل وَلِيَه الحجّاج بن يوسف الثقفي ، فسار إليها فلمّا قرب منها قال للدليل : أين تَبالة وعلى أيّ سَمْتٍ هي ؟ فقال : ما يسترها عنك إلاّ هذه الأكمة ، أهوِنْ بها ولاية !

وكرَّ راجعًا ولم يدخلها ، فقيل هذا المثل. وبين تَبالة ومكة اثنان وخمسون فرسخًا ، وبينها وبين الطائف ستة أيام . وقد نُسبَ إليها جماعة من الرجال". (٢)

تَريم :

إحدى مدن حضرموت القديمة . (٣)

قال ياقوت : إحدى مدينتي حضرموت لأنّ حضرموت اسم للناحية بجملتها ، ومدينتاها شبام وتريم ، وهما قبيلتان سميت المدينتان باسميهما ، قال الأعشى:

طال الثواء على تَريم
وَلقد نأتْ بكرُ بن وائلْ (٤)

أقول : وشِبام وتريم مازالتا معروفتين في اليمن في عصرنا .

ولابد لي من الإشارة إلى أن جمهرة من المواضع والمدن وغيرها تبدأ بالتاء على

(١) معجم البلدان .
(٢) المصدر السابق ، وانظر الإكليل ١٥٥/٨ وصفة جزيرة العرب ص ٣٣
(٣) معجم المقحفي
(٤) معجم البلدان .

صيغة الفعل ، كما أن طائفة أخرى وردت على صيغة الفعل المبدوء بياء وسنأتي على ذكرها .

تَعِز :

قال ياقوت : قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات .(١)

قال الأكوع محمد بن علي : ظهرت بهذا الاسم على مسرح التاريخ في أواخر القرن السادس الهجري عندما تولى توران شاه الأيوبي سنة ٥٧٩هـ ، ولم تحدّد المصادر التي بين أيدينا موقعها ... وأما ما يُسمَى اليوم بتَعِز التي يضمّها السور والتي فيها جامع المظفر فكانت تسمّى "عدينة" .. (٢)

أقول : ومن المفيد أن أشير إلى بعض المدن والمواضع المبدوءة بالتاء ذات الوجود التاريخي التي لم يبق منها سوى رسوم وأطلال منها "تَعْكَر" كما ضبطها ابن المجاور والواسعي ، وهي بضم لدى ياقوت ، وهو جبل منيف يقع في أرض ذي الكلاع .

و"تَعود" وتشير إلى العَوْد، وتَفيش قرية في حضرموت (أشار إليها البكري في "معجمه" ١٢٧٣/٤ و " تَنعم " قرية في خولان العالية . (٣)

تِهامة :

هي السهوب الممتدّة على ساحل البحر الأحمر ، سميت بذلك لحرارتها وركود الريح فيها ، وتمتد من باب المندب جنوبًا إلى جيزان والقنفذة والليث شمالاً ، طولها نحو ٥٠٠ كيلو متر وعرضها ما بين ٣٠و٤٠ كيلو مترًا وفيها من المدن: الحديدة ونجران وعَدَن وزَبيد والمخا والمهجم وحَرَض ولَحِيج..(٤)

أقول : وهي تتجاوز حدود اليمن فتكون تهامة الحجاز .

والاسم قديم ، ولا يعني أنه أخذ من معنى الحرارة وركود الريح ، ذلك أن مادة تهم سامية وتعني الأرض الخالية ، وهي بهذا المعنى في الإصحاح الأول من سفر التكوين .

ثَقْبان :

بلد وواد شماليّ صنعاء بمسافة ١٣ كيلو مترًا . ينسبه الأخباريّون إلى ثقبان ابن نَوف ذو ثعلبان بن شرحبيل ..(٥)

(١) معجم البلدان

(٢) اليمن الكبرى ص ٣٣ .

(٣) العقود اللؤلؤية ٢٢٩/١ .

(٤) معجم المقحفي .

(٥) صفة جزيرة العرب ص ٢٨٩ .

أقول : كنت أشرت إلى أنّ بناء "فَعْلان" كثير في اليمن ، ومثل هذا في النقوش السبئية التي بقي منها شيء في اللغات اليمنية الدارجة التي هي عربية جنوبية .

جازان :

بلدة قديمة على ساحل البحر الأحمر من جهة صبيا وأبي عريش ، وهي فرضة تلك الجهة وبها معدن الملح . وإلى جازان ينسب وادي جازان النازل من بلاد خولان .. (١)

جُبًّا :

مدينة أثرية غربي جبل صَبِر المطل على تَعِز ، وقد جاء ذكرها في النقوش القديمة باسم (جباو)(٢) نُسبَ إليها الملوك الجُبّائيون ، كما خرج منها جمع كثير من الفقهاء والقراء ...

جُباح :

قرية في حصن جُعُر من وُصاب العالي ، وجباح أيضًا بلدة في مِلْحان..(٣)

الجُبْجُب :

اسم مشترك بين عدد من الأماكن، منها بلدة من عُزلة الجبل غربي آنِس بمسافة ميلين ، وبلدة في عَنَس . (٤)

الجَبَر :

ناحية تابعة لقضاء الشَّرَف المربوط بمحافظة حَجّة ، ينسبها الأخباريون إلى الجَبر بن عبد الله بن قادم بن زيد ..(٥)

جِبْلة :

مدينة مشهورة بالجنوب الغربي من إب بمسافة ٧ كم ، وتُسمَّى قديمًا مدينة النهرين ، لأنها كانت بين نَهرين كبيرين، ابتناها عبد الله بن محمد الصليحي سنة ٤٥٨هـ وسمّاها (جِبْلة) باسم يهوديّ كان يبيع الفخار فيها قبل عمارتها ...(٦)

الجِراف :

قرية جنوبي " روضة حاتم" صارت في عصرنا مع التوسع العمراني جزءا من صنعاء . والجراف أيضًا قرية حميرية في بلاد حاشد على مقربة من خَمَر في شرقيها ، نُسب إليها بنو الجرافي أهل صنعاء وإب ، نُسب إليها جماعة من أهل العلم . (٧)

جَرْبان :

عُزلة من ناحية وصاب السافل وأعمال ذِمار . وجربان أيضا قرية من

---

(١) معجم المقحفي .

(٢) معجم البلدان ، الإكليل ١٩٤/٨ .

(٣) معجم المقحفي .

(٤) المصدر السابق .

(٥) تاريخ الواسعي ، صفة جزيرة العرب ص ٢٢٣ .

(٦)الإكليل ٣٦/٨

(٧) اليمن الكبرى ص ٧٤ .

بلاد همدان إلى الشمال من صنعاء بمسافة ١٨ كيلو مترًا (١)

الجَنَد :

بلدة مشهورة بالشمال الشرقي من مدينة تعز، سُمّيت بجَنَد بن شهران أحد بطون المعافر، وكانت من كبريات حواضر اليمن وأحد أسواق العرب المشهورة في الجاهلية والإسلام ، وأوّل مدينة أسس فيها مسجد على يد معاذ بن جبل الأنصاري ، بعثه النبي – صلى الله عليه وسلم – في العام الثامن للهجرة ، ذكرها الراجز :

كلّفني حبّي إغناءَ الوَلَدْ
والخوفُ أن يفتقروا إلى أحَدْ
تنقلاً من بلدٍ إلى بَلَدْ
يومًا بصنعاء ويومًا بالجَنَدْ

نُسب إليها كثير من أهل العلم منهم أبو قرة موسى بن طارق الجَنديّ صاحب المسند ، والمؤرخ بهاء الدين الجَنديّ مؤلف " السلوك في طبقات الملوك "

قال القاضي محمد بن علي الأكوع : بلدة هي اليوم متشعثة لم يبق منها غير جامعها الأثري ومنارته السامقة آية للماضي المشرق . (٢)

الجُوف :

مدينة قديمة بالشمال الشرقي من صنعاء فيها مركز محافظة الجوف ، وتقوم في وادٍ بين جبَلين وهذا الوادي يحفل بالمواقع الأثرية .

ونُسب إليها جماعات شتى . وأرض الجوف خصبة تزرع فيها الذرة البيضاء والحمراء والشعير والقطن والسمسم وغير هذا . (٣)

حَجَّة:

مدينة كبيرة في الشمال الغربي من صنعاء ، بمسافة ١٢٧ كيلو متر ، على قمّة جبل ارتفاعة ١٩٠٠ متر من سطح البحر . وهي مركز محافظة تتعبها نواح عدّة . (٤)

حَدّة :

قرية في ناحية بني مطر ، غربيّ صنعاء بمسافة قليلة ، كثيرة الشجر..(٥).

الحُدَيدة :

أكبر مدن تهامة ، يرجع تاريخها إلى القرن الثامن الهجري ، وكانت مرفأ

(١) صفة جزيرة العرب ص ١٢٤ .

(٢) معجم البلدان لياقوت ، الإكليل ٢٥٧/١٠ ، وهامش صفة جزيرة العرب ص ٩٩ .

أقول : إن الكثير من حواضر اليمن متصلة برئيس لقبيلة استقر هو وأتباعه فكان منها وطن لهم .

(٣)الإكليل ٦/٨ ، معجم البكرى ، معجم البلدان ، وانظر المفصل في تاريخ العرب ٧٤/٢ .

(٤) معجم المقحفي . (٥) المصدر السابق .

للسفن ومركزًا للصيد ، وهي على بعد ٢٢٦ كم من صنعاء . (١) .

حَراز :

صُقع واسع غربيّ صنعاء بمسافة ٨١ كم في رأس جبل حراز سُمِّي باسم حراز ابن زيد يرجع إلى حمير بن سبأ . وهو يتبع إداريًا محافظة صنعاء ... (٢)

حَضْرانْ :

قرية في الشرق من بلاد آنس ، ينسب إليها أحمد بن محمد الحضراني والد الشاعر إبراهيم الحَضراني. (٣) وذو حضران قرية من عزلة أقيان التابعة لناحية شبام كوكبان .

حَضْرَمَوت :

مدينة قديمة مازالت معروفة ، كانت تُعرف باسم "الأحقاف " وهي اليوم مركز محافظة نسب إليها طوال العصور جماعة من أهل العلم (٤)

حُوث :

بلدة مشهورة في أعلى بلاد حاشد ، بها مركز الناحية . وهي مولد اللغوي نشوان بن سعيد الحميري صاحب "شمس العلوم " و " القصيدة النشوانية "،ونسب إليها إبراهيم بن عبد الله الحوثي صاحب كتاب "نفحات العنبر " ... انظر معجم المقحفي .

ذو خَشْرانْ :

قرية في قاع جَهْران من عزلة المدارج ، تنسب إلى "ذو خَشران بن جهران بن يحصُب" ، تهدَّم منها مئة منزل في زلزال ديسمبر عام ١٩٨٢م ، وفيها معدن الفضة . (٥)

أقول : هذه القرية كغيرها من المواضع تُصَدّر بـ " ذو " وهو طريقة يمنية في التسمية في جنوب اليمن . وكأن "ذو" هذه غير ما نعرفه من نظيرها في العربية من الأسماء الستة التي لها طريقة معروفة في الإعراب ، فهي من تمام الاسم فتلزم الواو .

الاسم خشران بن جهرانْ ، وهما من الأسماء اليمنية المختومة بالألف والنون ، وهي كثيرة وقد عرفت في النقوش السبئية .

وأقول أيضًا : إن بناء فَعلان يرد علمًا

(١) معجم المقحفي .

(٢) معجم البلدان ، وطبقات الخواص ، واللباب ٣٥٢/١

(٣) معجم المقحفي .

(٤) تاريخ الواسعي ص ٣٧

(٥) الإكليل ١٩٤/٢ .

للإحال وللقبيلة ويتصل بالموضع أو القرية أو المدينة التي تحفل بتجمّع سكاني وإني لأقف من هذا على :

خَوْلان :

هي من القبائل الكبرى ، وهي ثلاثة أقسام: خولان صنعاء، وخولان صعدة ، وخَولان قضاعة .

وتعرف خَولان صنعاء بـ (خولان الطيال) أو (خولان العالية)، وقديمًا (خَولان أدد) ومنازلها شرقي مدينة صنعاء إلى قرب مأرب . نسبها الهمداني في الإكليل (الجزء الأول) إلى مالك بن حمير، ثم عاد في الجزء العاشر فنسبها إلى كهلان ، وإلى هذا ذهب القلقشندي في " نهاية الأرب"(١).

أقول : ويؤيدني فيما ذهبت إليه أعلام المواضع والقرى الآتية : (٢)

خَولان كُحلان (٣) : قرية من عزلة عفّار إلى الغرب من حجّة .

وخَولان الطويلة : قرية من عزلة بني الخياط من ناحية الطويلة .

وخَولان أخرى : عزلة من جبل حبشي في الحجرية .

وخَولان أيضًا : عزلة من المديخرة ذكرها الجندي ، ومازالت إلى اليوم .

خَيْوان :

بلدة مشهورة في حوث إلى الجنوب من حرف سنيان وفي الشمال من صنعاء بمسافة ١٢٢ كيلو متر . تنسب إلى خَيْوان بن زيد بن مالك بن جُشَم بن حاشد ، ذكرها الهمداني قبل ألف عام وقال : هي من غرر بلد همدان وأكرمه تربةً وأطيبه ثمرة . (٤)

دَبَر :

قرية خاربة في سحان بوادي الفروات قرب دار عمرو ، نُسِبَ إليها القاضي إسحاق بن إبراهيم الدَّبَريّ الذي قصده الإمام الشافعيّ للاستماع منه ، وفيه قال :

لابدّ من صَنْعا وإنْ طال السَّفَرْ

ونقصد القاضي إلى هِجرة"دَبَر"(٥)

أقول : المصراع الثاني من إجازة الإمام الشافعيّ مشيرًا إلى قصده في الذهاب إلى شيخه .

وسيأتي الكلام على هذا الرجز عند الكلام على "صنعاء". والهجرة في قول الشافعي معروفة في اليمن ، وهي المستقر

(١) انظر : الإكليل الجزء الأول والجزء العاشر ، وانظر : نهاية الأرب .

(٢) معجم المقحفي .

(٣) أعود إلى " فُعلان " بضم الفاء لأؤكد فائدتها في المبالغة فقد ذكرنا حُمران وشُقران ، وكأنّ المبالغة في دلالة الألوان . وقد وحديث من هذا خُضْران أيضًا .

(٤) صفة جزيرة العرب ، ومعجم البلدان .

(٥) تاريخ اليمن الثقافي ٩٧/١ .

الذي يقصده طلاّب العلم .

دَثينة :

من الحواضر اليمنية القديمة وتقع في الشمال الشرقي من مدينة عَدَن فيما بين البيضاء غربًا وبلاد العوالق شرقًا . أشار إليها حمزة لقمان في كتابه " تاريخ القبائل اليمنية " وقال : إنها إحدى المناطق المهمة في أيام الممالك اليمنية القديمة التي كانت تعبرها قوافل الجمال ، وهي محمّلة بمنتوجات بلاد العرب السعيدة وبلدان الخارج (١)

أقول : ورد ذكرها لدى الرحالة العرب والأجانب .

دَرْوان :

عُزلة من ناحية الحَيْمة الخارجية وأعمال صنعاء وكانت سابقًا تتبع حَراز . ودروان أيضًا قرية في الضواحي الشمالية الشرقية لمدينة حجّة كانت تعرف باسم "أدران" نسبة إلى أبى قبيلة من همدان ، وفيها قبر الإمام المطهّر بن يحيى المرتضى المتوفّ سنة ٦٩٧هـ (٢)

دَمُّون :

بلدة حربة بحَضْرَمَوْت في السفح الشرقي لجبل الهَجَرَيْن شرقي تَريم ، كانت قديمًا جزءا من مدينة المنيظرة ، وقد سكنها الملوك من بني الحارث بن معاوية الذين منهم الشاعر الجاهلي امرؤ القيس ، وهو القائل :

تَطاوَلَ الليلُ علينا دَمّونْ
دَمّونُ إنّا معشَر يَمانُونْ
وإننا لأهلنا مُحبّونْ

وقد وهم ياقوت فرسَمها بالذال المعجمة(٣) .

دَهْران :

حِصن قريب في شكله من المربّع يسيطر على عزلة يَريس من جنوبها (٤)

أقول : ذكر محقق كتاب " المفيد في أخبار صنعاء وزبيد" (٥) في حاشية له: أنّ " دهران" تثنية دهر . وليس لي أن أذهب إلى هذا فالألف والنون تكملة عامة عُرِفت في اليمن القديمة في النقوش القديمة ، ومازال اليمنيون يستعملون

---

(١) تاريخ القبائل اليمنية ، وانظر مجلة العرب (عدد مايو ١٩٨٦م) ، والإكليل ١٨١/٨ .

(٢) معجم الحجري عن معجم المقحفي .

قلت : وناحية الحَيْمة داخلية وخارجية تشتمل على قرى عدة ، نسب إليها عدد من أهل العلم .

انظر معالم الآثار ص ٣٧

(٣) اليمن الكبرى ص ١٦٨ ، وهامش الإكليل ١٦/٢ ، ٢١ وانظر معجم البلدان لياقوت .

(٤) معجم المقحفي .

(٥) المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ، حاشية في ص ٨٠ .

"شمسان ونجمان" ولا يريدون بها التثنية .

الدّهْناء :

بلدة في ضواحي رَداع من عُزلة العَرْش .و "دَهْنا" : محلة في قيفة من أرض رَداع(١) .

أقول : وقد بسط البلدانيون الكلام في الدهناء لأنها من أعلام المواقع التي لها حضور في الأدب والتاريخ القديم .

دَوْس :

بطن من الأزد ، منهم أبو هريرة الدَّوسيّ الصحابيّ .

دَوْسان : حصن يُطلّ على مدينة المَهْجم(٢)

دَوْهَن :

هو الوادي الرئيسي في حضرموت، وإليه يُنسَب عمر بن زيد الدوهني الحضرميّ ، عاش في القرن العاشر الهجري ، وله مصنّف في التاريخ (٣)

أقول : قد يكون لي أن أثبت هنا أن "دَوْهان " من الأعلام في العراق لدى نفر ذوي أصول قبائلية يمنية معروفة ومنها قبائل الجُبُور .

ذُبْحان :

عزلة من ناحية الحجرية (المعافر)(٤)

ويرى أحمد حسين شرف الدين في كتابه "تاريخ اليمن الثقافي " أن أصل الكلمة (ذَبحْن) وهو مصدر الذبح ، وكان القربان الذي يُقدَّم لهياكل الآلهة هو البخور والذبائح ، وتقوم النون مقام حرف التعريف في لغة (المُسنَد) مثل : وَثرن أي الوَثر وهو أساس البناء ، ومحفدن أي المحفد وغير هذا . (٥)

أقول : ليس لي أن أوافق الأستاذ شرف الدين فيما ذهب إليه . ذلك أن الكلمة لو كانت مصدراً هو الذَّبح لكان لنا منها "ذبحان" بفتح الذال ، وهي بهذا تتحوّل إلى الصفة كالذابح ولكني أراها " فُعْلان" بضمّ الفاء إفادة للمبالغة .

ثم إن زيادة النون في الكلمة السبْئية لا تعني قطعًا أنها للتعريف ، فقد وجدت النون في كلمات تشعرنا أنها علامة للاسمية كالتنوين في العربية وكزيادة الميم في اللغة الأكدية .

وقد ختمت ألفاظ في أعلام المواقع

---

(١) هامش صفة جزيرة العرب ، وانظر : معجم البلدان .

(٢) اليمن الكبرى ص ١٦٨ .

(٣) معجم المقحفي .

(٤) معجم المقحفي

(٥) تاريخ اليمن الثقافي ١٠٣/١ .

والحواضر والقرى والعُـزَل في اليمـن بالألف والنون دون أن تبدل بفتحة فـاء الكلمة ضمة، مثل ذَرحـان وذَعْفـان وذَهْبان وضَمران وذَودان ، ورحبـان ، ورَدْنان ، ورَدْمان وغيرها .

وأما ذُمْران من قرى بلاد يَريم يُنسَـب إليها بنو ذُمْران (١) فهي جمع كأنّ المفرد أذمَر نحو : السُودان والحُمْران والخُلْصان وغيرها .

أقول : إن المواقع في اليمن على ما يكون منها ذا أصول سبئية تشهد بها النقـوش ، فقد أخذت من العربية التي عمّت بـلاد العرب القديمة الكثير من مادتها اللغوية .

ولي أن أذهب إلى أن "ذُؤَال " من أوديـة زَبيد (٢)لابد أن تشعرنا أن الوادي كان مسرحًا للذئاب ، ومن هـذا جـاء في العربية "ذُؤَالة " مـن أسمـاء الذئـب ، و"الذألان" مشي الذئب . وقد حضـر "الذئب" في أسماء مواقع عدّة في اليمـن منها بنو ذويب ، وذياب ، وبنو الذيب ، وذيبان (٣) .

كما صدرت مواقع بـ "ذي " نحـو : ذي بين ، وذي حازب ، وذي سُـعال ، وذي سعد ، وذي الماء ، وذي مَرْمر (٤)

أقول : و " ذي " هذه في صدور هـذه الكلم ترجع إلى "ذو " القديمة في أسمـاء ملوكهم وآلهتهم ، ومن ذلك ذو جَـدَن ومن هذا " ذو رائح " بطن مـن حمـير يُنسَب إلى "ذو رائح بن ميمون" ، وتنتهي سلسلة النسب بحمير بن سبأ . (٥)

رَداع :

مدينة كبيرة شرقي ذَمار (٦) بمسافة ٥٣ كيلو مترًا . ورد ذكرها في النقوش، وسكنها التُّبع شَمَّر يُرعش.(٧)

ذو رُعَين :

عزلة من ناحية يَريم وأعمال إبّ ، نسبها أهل الأخبار إلى القيل ذو رُعَيْن واسمـه يَريم بن زيد وينتهي نسبه إلى حمير . (٨)

رَيْدان :

حصن مشهور جنوبي مدين يـريم بمسافة ١٧ كيلو مترًا . (٩)

أقول:وقد ورد في النقوش القديمة"ذورَيْدان"

---

(١) معجم المقحفي .	(٢) بغية المستفيد ص ١٧ ، والمفيد ص ٦٦ .

(٣) انظر معجم المقحفي .	(٤) المصدر السابق .

(٥) تاريخ اليمن الثقافي ٨٤/١ .

(٦) ذَمار مدينة كبيرة جنوبي صنعاء بمسافة ٩٩ كيلو مترًا ، مركز محافظة أشار الأستاذ أحمد حسين شرف الدين إلى أنها سُمّيت باسم ذَمار علي يهبر ملك سبأ وذو رَيْدان (١٥- ٣٥م) والنقوش تشير إلى هذا . (معجم المقحفي) .

(٧) المصدر السابق .	(٨) المصدر السابق .	(٩) المصدر السابق .

زَبار :

قرية من خَوْلان بالقرب من جَحانة، إليها ينسب بنو زَبارة من ولد الأمير المعروف بـ "زَبارة" من رجال القرن العاشر للهجرة . (١)

زَبيد :

وادٍ مشهور في تهامة ثم البحر الأحمر ومصدره جبال العُدَين وأودية بَعْدان وغيرها .

وقد أُطلق اسم الوادي على مدينة زبيد الواقعة في منتصفه ". يقال إنّ الذي اختطها محمد بن زياد مؤسس أسرة بني زياد في القرن التاسع الهجري ، في حين يرى القاضي محمد بن علي الأكواع أنها قديمة ذكرها الجاهليون ، واتّخذها بنو أيوب عاصمة لهم في القرن الثاني عشر الميلادي . وممن نُسب إليها عبد الرحمن الديبع صاحب "بغية المستفيد" (٢) .

زُبَيد :

بلدة قيل فيها في عَنْس جنوبي ذَمار، وهي أيضًا من مَذْحِج من ولد زُبَيد .. ومنهم عمرو بن معدي كرب (٣) الزُّبَيدي الشاعر ، ومحمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزُّبيدي الأندلسي الأشبيلي صاحب "مختصر العين" وقد طُبع شيء منه .(٤)

زُقَر :

جاء في "معجم المقحفي للبلدان والقبائل اليمنية " أن زُقَر جبل في البحر الأحمر بالقُرب من ساحل زَبيد . (٥)

أقول : وهذا "الجبل" الذي في البحر الأحمر كما تفيد عبارة "المعجم" جزيرة يمنية صغيرة مع الجزيرة الكبرى التي اعتدت عليها أرتريا فاحتلّتها وهي "حُنَيش الكبرى " في أول شهر ديسمبر من سنة١٩٩٥م.

---

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ الواسعي ص ٣٤ ، واليمن الكبرى ص ١٧٠ ، ومعجم ما استعجم ص ٦٩٤ .

(٣) كأني أرى أن يكون الرسم "معد يكرب" وتأويل هذا أن "معدّ" هو في اليمنية القديمة بمعنى العبد العامل وإن خلا المعجم السبئي منه ، ذلك أن المعجم اشتمل على الألفاظ التي وقف عليها أصحاب المعجم الأوربيون ومعهم محمود الغول في النقوش السبئية ، ولم يُوثّقها بما يكون من نظائرها في العربية . و " مَعَدّ : هذا المعنى رأيته كما بدالي في العربية ، فهو حيّ من العرب ، مذكر ، ولكن شاهد سيبويه يشير إلى ما ذهبت إليه وهو

ولسنا إذا عُدَّ الحصَى بأقلّه   وإن مَعَدُّ اليوم مُوذٍ دليلها

ويدلّنا على هذا المعنى المثل المشهور "تسمع بالمُعَيْدِيّ خير من أن تراه " والمُعَيْديّ مصغّر مَعَدّيّ المنسوب إلى مَعَدّ، بإرادة التحقير لأنه يعمل ويفلح الأرض . ومن المعلوم أن العامل في الأرض أي الفلاح لم يكن من العَرَب الذين كرهوا المهن ، فاختص بها العبيد . وأعود إلى العلم "معد يكرب " الذي يدلّ على رجل " يكرب " الأرض أي يجهد فيها ليفلحها . ومادة " كرب" وردت في النقوش السبئية وهو فعل يفيد القيام بعمل شاق قد يُكرَه عليه صاحبه . ثم إن الوصف بالفعل في أعلام اليمنيين الأوائل معروف ، ومنه "شمّر يرعش" وغير هذا كثير .

(٤) معجم المقحفي .

(٥) المصدر السابق .

ولفظ " حُنَيش " على التصغير مصغَّر حَنَش بمعنى الأفعَى . و" حَنَش " من أعلام العرب في كل مكان ، ومازال معروفًا في طرائق التسمية .

وبنو حَنَش في اليمن من بيوت العلم . ومنهم الوزير العلاّمة حسن بن علي بن حسن حَنَش المتوفّى سنة ١٢٢٥هـ ونسبتهم إلى السلطان حنش من بني شهاب الأكبر الذي تفيد سلسلة نسبه فيرجع إلى كهلان بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان . (١)

السَّبيع :

قبيلة من حاشد من ولد السبيع بن السبيع بن صَعب بن معاوية بن كثير بن مالك بن جُشَم بن حاشد . وهم من القبائل التي نزلت في الكوفة في أوّل عهود الفتوح الإسلامية ، ونُسبت إليهم (خطّة السبيع) بالكوفة مع خطط أخرى يمنية بالكوفة ، أشار إليها أبو الطيّب حيث قال :

أمُنْسِيَّ "السَّكونَ " و " حَضْرَموتا"
و(وَالدتي) و(كِنْدةَ) و (السَّبيعا)

أراد بقوله :" والدتي" خُطة آبائه الجعفيين من سعد العشيرة من مدحج اليمانية.(٢)

ذو سَحْر :

قرية في عزلة وادي الحار من بلاد عَنْس.

وذو سَحْر : بلدة في وادي الأجيار من بلاد سخان : تعرف اليوم بـ (حوزة سحر) أرض خصبة ذات زرع وكَرْم.(٣)

أقول : ودو سحر من ملوك حِمير المثامنة.. (٤) و(ذو سحر) تسمية صدرها "ذو" تضاف إلى غيرها فكانت للآلهة وعظام الرجال من الملوك والأمراء.

السَّحول :

قاع معروف ما بين مدينة إبّ جنوبا وحتى قَفْر يَريم شمالاً، يُنسَب إلى السحول في سوادة.. بن جُشَم بن عبد شمس . والمعاصرون ينكرون هذه النسبة فيقولون: سحول بن ناجي بن أسعد التباعي الحميريّ (٥) .

أقول : وقد ورد في قصائد عدة من الشعر الجاهلي ومنها قول طَرفة :

وبالسَّفح آياتٌ كأنّ رسومَها
يَمانٍ وَشَتْه رَيْدةٌ وسَحُولُ

---

(١) نيل الوطر ص ٣٤٨ .

(٢) معجم الحجريّ عن المقحفي . وفي " نزهة النظر " بنو السبيعْي في بلدة الشقيق على ساحل البحر الأحمر بين جازان والقحمة.

(٣) اليمن الكبرى ص ١٦٩

(٤) معجم الحجري .

(٥) معجم المقحفي .

و" رَيْدة " : وهي اسم لعدة بلدان يمنية. انظر " اليمن الكبرى " ص ٨١ ، ١٧٠.

السِّرّ :

وادٍ مشهور بالشمال الشرقي من صنعاء بمسافة ٢٣ كيلو مترًا . نُسب لى "السرّ" جماعة من أهل العلم . (١)

السَّرْو :

وهو الاسم القديم لمنطقة هي سَرْو مذحج التي تُدعَى البيضاء ، وسَرْو حمير ، وهي اليوم يافِع وما جاورها من الأجعُود، وقد ورد ذكرها في شعر الأعشى :

فنَجْرانُ فالسَّرْو من حِمْيَرٍ
فأيُّ امرئٍ ما له لم يرمْ

وقال حسّان بن ثابت :

ونحنُ جَلَبْنا الخَيلَ من سَرْوِ حميرٍ
إلى جاسمٍ بالمحنقات السناجِرِ(٢)

سُقَطْرَى :

جزيرة في المحيط الهنديّ شرقي عَدَن، احتلّها البرتغاليون (١٥٠٧-١٥١١م) وكانت مأوى "قراصنة " البحر . ثم احتلها الإنجليز سنة ١٨٧٦ واتّخذوها قاعدة أسطولهم . (٣)

سَيْئُون :

المديرية الشمالية في المحافظة الخامسة من جنوب اليمن ، وهي من مدن حضرموت القديمة ، وكانت قبل استقلال جنوب اليمن عاصمة للدولة الكثيرية . وهي على سفح جبل سيئون . وقد اشتهرت هجرةً لطلاب العلم . لم يذكرها الهمداني ولا ياقوت . (٤)

أقول : وفي اليمن جملة مواضع تختم بالواو والنون ومن هذه يَبنون ودَمّون .

شاكِر :

من قبائل همدان ثم من بكيل من ولد شاكر بن لهم .. بن دَوْمان بن بكيل .. وبلاد شاكر ما بين مأرب ونجران . وشاكر بلدة في أرْحَب .

وبنو شاكر في صنعاء والأهنوم منهم جماعة من أهل العلم . (٥)

شاوَر :

وبلاد شاور [وهي بطن من حاشد الهمدانية] في كحلان من نواحي حَجّة ، انتَسَب إليها جماعة من أهل طوال العصور. (٦)

---

(١) الإكليل ١٠/١٨١ .
(٢) الإكليل ٢/١٩٢ .
(٣) الموسوعة الميسّرة .
(٤) معجم المقحفي .
(٥) معجم الحجري عن المقحفي .
(٦) الإكليل ٢/٨٥ .

شِبام :

اسم مشترك بين أربعة بلدان في اليمن وهي : شبام كوكبان ، وشبام حضرموت ، وشبام العِراس ، وشبام حَراز. (١)

شَبْوة :

منطقة أثرية فيما بين مأرب وحضرموْت ، وكانت قديمًا عاصمة لدولة حضرموت . ومن المدن السبئية التي عُرفت بشهرة تجارية ... (٢)

الشّحْر :

مدينة وناحية في حضرموت، تُطلّ على البحر الهندي ، وقد عُرفت في المصادر التاريخية . (٣)

الشّرَف :

اسم مشترك بين جملة بلدان في اليمن أشهرها شَرَف حجور ، وهو جبل واسع في الشمال الغربي من حَجّة . وينسب إلى هذا "الشرف" بنو الشرفي..(٤)

شَعُوب :

ضاحية صنعاء الشمالية ، وقد دخلت في عصرنا مع التوسّع العمراني في صنعاء ، سُمّيت باسم شعوب بن جشم ابن عبد شمس . وكان بها قصر حميري ورد في شعر عمر بن أبي ربيعة في قوله:

لعمرك ما جاوَرتُ غُمدانَ طائعًا
وقصر شَعوبٍ أن أكون بها صبّا(٥)

شَمْسان :

جبل مشهور في الشمال الغربي من مدينة عَدَن . وشمسان علم لقرية في ناحية الرُّجم وغير هذا (٦)

أقول : وشَمْسان من أعلام اليمنيين في عصرنا ، وهو " فَعْلان" ، وليس مُثنّى شمس .

شُهارة :

جبل مشهور في بلاد الأهنوم شمالي حَجّة ، من معاقل اليمن . احتلّه الترك العثمانيون سنة ٩٩٥هـ. نُسب إليه عدد كبير من الأعلام ، ومن هؤلاء الشاعرة زينب بنت محمد الشهاري المتوفّاة سنة ١١١٤هـ ، ترجم لها الزركلي في "الأعلام " (٧)

---

(١) معجم الحجري ، وانظر : شمس العلوم ص ٥٣ .

(٢) معجم الحجري ، هامش صفة جزيرة العرب ص ١٧١ ، وذكرها جواد علي في "المفصل" ١٤٧/٢.

(٣) اليمن الكبرى ص ١٧٣ .

(٤) هامش الإكليل ٨٦/١٠ ، والمعيد ص ١٤٨ .

(٥) معجم البلدان لياقوت ، هامش الإكليل ١٧٤/٨ ، صفة جزيرة العرب ص ١٥٦ .

(٦) معجم الحجري .

(٧) انظر : مصادر الفكر الإسلامي ، والأعلام للزركلي .

شَوْكان :

بلدة في بني سِحام من خولان العالية، يُنسَب إليها بنو الشوكاني، منهم القاضي محمد بن علي الشوكاني شيخ الإسلام صاحب " البدر الطالع " و"فتح القدير " ووفاته سنة ١٢٥٠ هـ (١).

صِرْواح :

اسم مشترك بين ثلاثة أمكنة في اليمن ، أهمها صِرْواح خَولان العالية : وهي مدينة أثرية شرقيّ صنعاء بمسافة ١٢٠ كيلو مترًا . قال أحمد حسين شرف الدين : إنّها عاصمة السبئيين قبل مأرب..(٢)

صَعْدة :

مدينةمشهورة تاريخية إلى الشمال من صنعاء بمسافة ٢٤٣ كيلو مترًا ، كان اسمها القديم (جُماع) ذكرها الهمداني في "الإكليل" . (٣)

صنعاء :

عاصمة اليمن وأكبر مدنها وأقدمها تاريخًا، ولهذا تُسَمَّى مدينة (سام) وصلاً بما يقال إن سام بن نوح هو أوّل من اختطّها . وقد رأيت أنها سُمِّيت "أزال" وذكر أهل الدرس الآثاري أنها كانت أحد مراكز السبئيين ، ولكنها لم تكن عاصمة لهم إلا منذ القرن الخامس للميلاد.

وقد ورد في النقوش اسم صنعاء كما ورد صنعَن .

وهي في وادٍ فسيح تحيط بها الجبال العالية فمن جهة الشرق تتصل بجبل نُقُم ، ومن الغرب تتصل بجبل (عيبان) ، وفيها من المعالم الأثرية قصر غمدان الذي يرجع تاريخه إلى القرن السادس الميلادي، وكذا الجامع الكبير ، ومسجد مُسَك بن فروة، ومسجد وهب بن منبّه . (٤)

أقول : ليس لنا إلى أن نطمئن إلى النقوش وقراءتها ، فكثيرًا ما عَدَل أصحاب النقوش عن قراءاتهم الأولى كما وقع هذا لأكثر من نقش في قراءة الألمان الأوائل. وهذا قد يكون شيء منه فيما ذهب إليه الأستاذ أحمد حسين شرف الدين من أن "صعَن" في النقوش هي الصانع ، والنون للتعريف .

(١) البدر الطالع ٢/٣٣٨ .

(٢) تاريخ اليمن الثقافي ٢/١٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، وهامش الإكليل ١/٢١٢.

(٣) اليمن الكبرى ص ١٧٧ ، وانظر معجم البلدان .

(٤) معجم البلدان ، مجلة الإكليل عدد (٢) وهو عدد خاص بصنعاء ، دائرة المعارف الإسلامية ص ٣٤٤ ، صفة جزيرة العرب ص ١٠٣ ، اليمن الكبرى ص ١٧٨ ، المفصل في تاريخ العرب ٣/٥٣١

أقول : إن شرف الدين أفاد أن في اليمنيين في عصرنا من لايزال يستعمل "صنعَن" ويريد بها " صنعاء " . ثم إن النون في صنعن وغيرها من الألفاظ القديمة اليمية هي الألف واللام في الأسماء اليمية ، والألف فتحة ممطولة ، لأننا لا نعرف لغة سامية خُتمت بأداة التعريف إلا ما قيل في الألف التي ختمت بها الألفاظ الآرامية التي تومئ على رأي الدارسين إلى معنى التعريف ، ثم فقدت هذه الألف وظيفتها وبقيت رسمًا لازمًا.(١)

صِنْهاجة :

قبيلة حميرية لها بقية في وادي حضرموت، وكانت تعرف بـ "شناهز" وفي "تاريخ مصر " لابن الحكم أن غالبية قبائل صنهاجة هاجرت استجابة لنداء أبي بكر الصديق لفتح الشام مع قبائل يمنية أخرى ومنها يافع والمعافر.ثم دخلت صنهاجة مصر في جيش الزبير بن العوام ، ثم اشتركت في فتح (برقة) بقيادة معاوية بن حديج الكندي الحضرمي، ثم تونس بقيادة حسان بن النعمان الغساني .. أما فروع صنهاجة الحميرية التي استقرت في إفريقية فقد اندمجت بـ " زناتة والمصامدة البربر حتى ظن أن صنهاجة قبيلة بربرية . (٢)

الضالِع :

مدينة كبيرة في جنوب اليمن على بعد ٩٦ ميلاً من عَدَن . (٣)

ظَفَار :

اسم مشترك بين جملة بلدان يمنية أشهرها ظفار حمير ، جنوب يريم بمسافة ١٧ كيلو مترا . وهي عاصمة حمير بعد مأرب : يقال لها " ظفار الملك ". (٤)

عَدَن :

مدينة كبيرة جنوبي تهامة عند مضيق باب المندب ، نسبها الأخباريون إلى

---

(١) ومن فوائد ياقوت في معجم البلدان ما أتى به من شعر في مدح صنعاء ومنه قول أبي محمد اليزيدي :

قلتُ ونفسي جمٌّ تأوُّهها ... تصبو إلى أهلها وأبعدُها
سقيًا لصنعاءَ لا أرى بَلَدًا ... أوطنه الموطنون يُشبهها

كما ذكر مقطوعة أخرى لزياد بن منقذ وقد نزل صنعاء فاستوبأها فقال :

لا حبَّذا أنت يا صنعاءُ من بَلَدٍ ... ولا شَعوبُ هوى منّي ولا نُقُمُ
وحبَّذا حين تُمسي الريحُ باردةً ... وادي أُشَيٍّ وقيعان به هُضُمُ

وياقوت في " معجمه " صاحب منهج وأدب ناقد .

(٢) دائرة المعارف البريطانية ٤٩٧/٣ عن معجم المقحفي .

(٣) هامش صفة جزيرة العرب ص ١٢٧

(٤) معجم المقحفي . وقد جاء فيه . ظفار الحبوظي وظفار آنس وظفار داود . وقد ذكر ظفار ياقوت في " معجمه " وغيره وقد ذكر اللغويون الأوائل أن ظفار مدينة حميرية فقالوا : من دخل ظفار فقد حمَّر .

عدن بن سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان .

وقال الواسعي في تاريخه إنها سُمّيت برجلٍ عَدَنَ فيها أي أقامَ . (١)

أقول : أخذ الواسعي هذا المعنى من العربية ، والذى أراه أن " اسم المدينة " أعطى العرب معنى الإقامة فعرف في أدبهم ، وبهذا ورد قوله تعالى : "جنات عَدْنٍ يدخلونها " .

العُدَين :

مدينة في الغرب من إب بمسافة ٣٠ كيلو مترًا تتبعها نواح وقرى . (٢)

عسير :

منطقة كبيرة إلى الشمال من صعدة، ومن أشهر مدنها : ظهران و جيزان.(٣)

عَمْران :

مدينة كبيرة شمال صنعاء ، ضبطها ياقوت بضم العين ذاهبًا إلى أنها أخذت من المصدر . وهي "عَمران" بفتح العين على شاكلة كثير من المدن التي وردت على "فَعْلان" . غير أننا نقف على "عُمران" بضم العين في "الجوف" وهي مدينة خربة . (٤)

عَنْس :

ناحية واسعة غربي ذَمار ، نُسب إليها طائفة من أهل الفضل والعلم . (٥)

ذو غَيلان :

من قبائل بكيل ، وغيلان جبل غربي صعدة . (٦)

الغَيْل :

قرية خربة في صعدة وأخرى في نِهْم، وبلاد غَيل : جبال في المحويت ، وبنو الغيل من أهل صنعاء ، وغَيل باوزير من أودية حضرموت غربي الشحر نُسب إليها بنو باوزير . (٧)

كُحلان :

اسم مشترك بين عدد من المناطق في اليمن : كُحْلان تاج الدين ، وكُحْلان الشَّرَف، وكُحْلان حَضْوَر(٨) .

أقول : وهذا يؤيد ما ذهبت إليه في بناء " فُعْلان" الخاص بالألوان .

الكَلاع :

لما يُسَمَّى اليوم " العُدَيْن " والكَلاع: قبيل من حمير ، منه ذو الكلاع يزيد بن يعفر . وإلى هؤلاء نسب محمد بن الحسن الكلاعيّ المتوفى سنة ٤٠٤هـ صاحب

(١) اليمن الكبرى ص ١٨٠ ، صفة جزيرة العرب ص ٩٤ .
(٢) اليمن الكبرى ٤٤ .
(٣) معجم الحجري عن المقحفي .
(٤) صفة جزيرة العرب ص ١٥٩ ،اليمن الكبرى ١٨٤،٨١
(٥) معجم المقحفي .
(٦) معجم الحجريّ .
(٧) اليمن الكبرى ص ٦١ .
(٨) صفة جزيرة العرب ص ٢٠١ وانظر معجم البلدان .

القصيدة الرائية في أنساب حمير ومفاخرها وأيامها وملوكها وأقيالها . (١)

كَمَران :

جزيرة في البحر الأحمر إلى الشمال من الحديدة . (٢)

الكُمَيْم :

مخلاف مشهور من أعمال ناحية الحدا جنوبي صنعاء . إليه ينسب بنو الكُمَيْم أهل صنعاء وذمار ، ويشمل القرى : قَهْلان والجهارنة والزيلة . وفيها آثار سبئية . والكُمَيْم قرية في خولان العالية من مخلاف اليمانية العليا . (٣)

كِنْدة:

قبيلة من ولد كندة بن عُفَير بن عَدِيّ بن الحارث... بن زيد بن كهلان. وهي قبيلة مشهورة ذات بطون وأفخاذ أشهرها : السكاسِك ، والسَّكون ، وتُجيب ...

قال أحمد حسين شرف الدين : هي إحدى القبائل السبئية التي هاجرت إلى حضرموت خلال الحملات التي وجَّهها ملوك سبأ وريدان . وردت في النقوش التي عثر عليها في مأرب . (٤)

كَوْكَبان :

حصن ومعقل شهير يُطل من الشمال الشرقي على مدينة شِبام الأثرية. قيل سُمِّي " كَوْكَبان " لأنه كان به قصران فيهما نقوش بالأحجار الكريمة . غير أن الهمداني ذهب إلى أن الحصن باسم كوكبان بن ذي سَفال، وذكر آخرون غير هذا. وقال الدكتور حسين العَمْري : إن كوكبان مركز نفوذ آل عبد القادر من أحفاد شرف الدين ، وكان هذا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريَّين . (٥)

كهلان :

بطن من سبأ ، ينسب إلى كهلان ابن سبأ بن يَشجُب بن يَعرب بن قحطان. وكهلان قرية من أعمال مأرب.(٦) ومن أشهر قبائل كهلان : الأزد وهمدان ومذحج وطيىء والأشعر

(١) اليمن الكبرى ص ١٩٠ .

(٢) تاريخ الجزر ص ١٩٠ .

(٣) معجم المقحفي .

(٤) تاريخ اليمن الثقافي ٧٠/١ ، وجاء فيه أن قبيلة كندة قد تمكنت حوالي القرن الأول للميلاد من تأسيس مملكة دَمّون التي قال فيها امرؤ القيس :

كأنّي لم أزجُر بدَمّونَ مرّةً ... ولم أشهد الغارات يومًا بعَنْدَلِ

ومن بطون كندة خارج اليمن " تُجيب " وأصلها في حضرموت ، ومن رجالها حرملة بن عمرو التُّجَيبيّ صاحب الشافعيّ توفي سنة ٢٤٦هـ ، روى عنه مسلم .

(٥) الإكليل ١٠٢/٢ ، تاريخ اليمن الثقافي ٥٨/١ .

(٦) معجم الحجري عن المقحفي .

ولخم وجذام وكندة وخولان .

لَخْم :

بطن عظيم ينتسب إلى لخم واسمه مالك بن عَديّ . بن زيد بن كهلان بن سبأ. منهم المناذرة في الحيرة في العراق، وبنو عبَّاد ملوك أشبيلية بالأندلس ، ومنهم بطون أخرى في مصر. (١)

مأرِب :

من أقدم المدن اليمنية ، وهي عن صنعاء بمسافة ١٩٢ كيلو مترًا شرقا ، عاصمة السبئيين في القرن الثامن قبل الميلاد ، كانت على طريق التجارة بين الهند والصين وفارس إلى الغرب ، وفيها السد المشهور . ومأرب في عصرنا مركز مهم للبترول . (٢)

المَخا :

مدينة مشهورة على البحر الأحمر غربيّ مدينة تَعِز بمسافة ٩٤ كيلو مترًا . ذكرت في النقوش باسم (موزا). والمخَا: بلدة بحضرموت حكاها الهمداني في "صفة جزيرة العرب". (٣)

المَدان :

مدينة في جبل الأهنوم مركز ناحية شهارة في محافظة حَجَّة نسب إليها جماعة من أهل العلم . وبنو عبد المدان من قبائل بني الحارث بن كعب في نجران . (٤)

المَقالح :

قرية من ناحية الشِّعر وأعمال النادرة في الغرب : ومنها الأديب الشاعر عبد العزيز بن صالح المقالح مدير جامعة صنعاء.(٥)

يافع :

بلدة في الشمال الشرقي من عَدَن ، وهي منطقة غنية بالآثار ، نسبت إلى يافع بن قاول ... بن زيد بن يريم ذو رُعَين الأكبر ، نسب إليها جماعة من أهل العلم.(٦)

يُحابِر :

هو الاسم القديم لقبيلة مراد . (٧)

يَخْبُرُ بن أخرم :

بطن من بكيل، من همدان (٨)أقول: ولابد من الإشارة إلى كثرة بناء الفعل (يَفعُل)و(يفعِل)،و(يفعَلْ) في أعلام المواقع

(١) معجم الحجري عن المقحفي
(٢) المصدر السابق .
(٣) تاريخ الواسعي ص ٣٥ .
(٤) الدر الطالع ص ٣٣٦ .
(٥) معجم المقحفي .
(٦)معجم الحجري .
(٧) الإكليل ١٧٦/٨ .
(٨) قبائل العرب ١٢٦٠/٣ .

والحواضر والقبائل في اليمن . وقد يكون لي أن أذهب إلى أن وجود هذا في خارج اليمن كان بسبب تاريخي يتصل باليمن . ومن هذا الاسم القديم للمدينة المنورة هو " يَثرِب " وهذا يرجع إلى أن أهل يثرب الذين مصّروها وسكنوها هم الأوس والخزرج وهما قبيلتان يمنيتان قحطانتان . ومثل هذا مدينة " يَنبُع " من مواني السعودية .

وقد يكون لي أن أدرج هنا :

يَحصِبُ :

قال ياقوت : مخلاف فيه قصر ريدان(١)

ويحصب : قبيلة من حمير تنتسب إلى يحصب بن مالك ... بن حمير بن سبأ(٢)

ومن هذه الأسماء التي هي أفعال ذهب فيها إلى الصفات الدائمة :

يَحمَد (قبيلة من الأزد) (٣) ، ويَحِير وهي عزلة من خُبان رُعَين (٤)، ويَختَل وهي عزلة شمالي المخا (٥)،وذو يدوم من قرى خَولان (٦)، ويَريم وهي مدينة جنوبي ذَمار،(٧) ويشكُر : قبيلة من بكر بن وائل، (٨) وبنو يَعْفُر وهي عزلة من ناحية رَيْمة (٩) ، ويَعْمُون موضع ذكره ياقوت (١٠)، ويُكَالِم من قبائل ذي الكلاع في العُدَين (١١) ، ويَفُوز اسم مشترك لعدد من الحصون (١٢) ويَعُوق وهو صنم لهمدان وخَولان، قيل إنه كان في خَيْوان . (١٣)

يَثرِب :

أقول : وجدت هذا في الشاهد اللغوي القديم وهو قول الأشجعي.(١٤)

وَعَدْت وكان الخُلفُ مِنْكَ سجيةً
مواعيدُ عُرقوب أخاه بيَثرِب

جاء هذا في " مجمع الأمثال " و" لسان العرب " وكتب النحو القديمة . وقيل في المثل : ويروى " بيَثْرِب " وأما من أثبت " يثْرِب " بالتاء المثناة فقال : إنها موضع باليمامة .

ولابد من العَود إلى اليمامة التي قيل فيها

(١) معجم البلدان .
(٢) هامش الإكليل ١٩٣/٢ .
(٣) معجم المقحفي .
(٤) هامش صفة جزيرة العرب ص ٩٣ .
(٥) اليمن الكبرى ص ٢٧ .
(٦) معجم الحجري .
(٧) الإكليل ١٩/٢ .
(٨) معجم المقحفي .
(٩) العقود اللؤلؤية ٢٣٩/١.
(١٠) معجم البلدان . أقول : وبناء يفعول غير بعيد عن بناء الفعل ، وقد جاء على هذا الكثير من الأعلام للمواقع وغيرها ، انظر كتاب يفعول للصغاني ، تحقيق إبراهيم السامرائي .
(١١) قبائل العرب ١٢٦٨/٣ .
(١٢) اليمن الكبرى ص ١٩٨ .
(١٣) معجم البلدان .
(١٤) لسان العرب ، ومجمع الأمثال وانظر المصادر النحوية .

إنما ما بين عُمسان إلى الشِّحْر إلى حَضْرَمَوْت إلى عَدَن أبيَن وعلى هذا فأهل اليمامة من اليمن ، واليمامة من اليمن .

وأنا أميل إلى " يَثْرِب " في رواية البيت لأن في البيت دلالة لغوية تاريخية لم يفطن لها ناشروا المصادر النحوية ومنهم الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد - رحمه الله- وهي وجود " أخاه " بالألف والألف تلزم الأسماء الستة لدى أهل اليمن، وهذا معروف في جملة من شواهدهم .

ثم إن دلالة المثل تشير إلى البعد بكون الموضع في إحدى هذه الجهات البعيدة ، وإن كانت حكاية المثل كما بسطها الميداني تومئ إلى الصنعة وإني لأذهب إلى هذا مفيدًا من قول زهير :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرقوبٍ لَهُمْ مَثَلاً
وَمَا مَوَاعِيدُه إِلاَّ الأَبَاطِيلُ

اليمن :

قال ياقوت : قال الشرقي : إنما سُمِّيت اليمن لتيامنهم إليها . وقال ابن عباس : تفرَّقت العرب فمن تيامن منهم سُمِّيت اليمن .

غير أن لياقوت رأياً ذهب فيه إلى غير هذا فقال : قُلتُ قولهم : "تيامَن الناس فسُمّوا اليمن " فيه نظر لأن الكعبة مربعة فلا يمين لها ولا يسار ، فإذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار آخرين وكذلك الجهات الأربع إلاّ أن يريد بذلك من يستقبل الركن اليماني .(١)

أقول : وقد أخطأ المستشرقون أصحاب المعجم السبئي ومعهم محمود الغول -رحمه الله - في أنهم أدرجوا مادة "يَمَن" والأصل الذي كان ينبغي أن يكون هذا في مادة " منن " التي تعني الفائدة والنماء(٢)

ولي أن أختم هذه الطائفة فأشير إلى ان في معجم البلدان مواد كثيرة نسبها أهل العلم إلى اليمن لم يفد منها إخواننا في اليمن أصحاب الدرس التاريخي والآثاري.

إبراهيم السامرائي

عضو المجمع من العراق

---

(١) معجم البلدان .

(٢) المعجم السبئي .

مصادر البحث

الأكوع ، محمد بن علي · اليمن الخضراء . مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٧١م.

الجعدي، ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد. مطبعة السنّة المحمدية – القاهرة١٩٥٧م.

الجَندى ، بهاء الدين : السلوك في طبقات العلماء والملوك ، تحقيق محمد الأكوع ، مشــورات وزارة الثقافة صنعاء ١٩٨٣م.

جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٠م.

الحبشي ، عبد الله : مصادر الفكر الإسلامي في اليمن ، منشورات مركز الدراســات والبحــوث اليمني، صنعاء ١٩٨١م .

الحجري ، محمد أحمد : مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع ، منشــورات وزارة الثقافة ، صنعاء ١٩٨٤م .

الحموي ، ياقوت : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٧م .

الخزرجي ، علي بن الحسن : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، تحقيق محمــد بــن علــي الأكوع ، منشورات مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ١٩٨٣م.

الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩م.

شرف الدين ، أحمد حسين : تاريخ اليمن الثقافي ، مطبعة الكيلاني ، القاهرة ١٩٦٧م .

الشوكاني ، محمد بن علي : البدر الطالع ، تحقيق محمد بن محمد زبارة ، القاهرة ١٣٤٨هـ.

القفطي ، علي بن يوسف:إنباه الرواة، تحقيق (أبو الفضل إبراهيم)، القاهرة ١٣٦٩هـ –١٩٥٠م – ١٩٧٠م.

كحالة ، عمر رضا : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، بيروت ١٩٧٨م.

لقمان ، حمزة علي : تاريخ القبائل اليمنية ، دار الكلمة ، صنعاء ١٩٨٥م.

المقحفي ، إبراهيم أحمد : معجم البلدان القبائل اليمنية ، صنعاء ١٩٨٨م .

الهمداني ، محمد الحسن : الإكليل ج١ تحقيق الأكوع ، بغداد ١٩٧٧م .

الإكليل ج٢ تحقيق الأكوع ، القاهرة ١٩٦٦م .

الإكليل ج٨ تحقيق نبيه فارس ، صنعاء ١٩٧٩م .

الإكليل ج ١٠ تحقيق محي الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨هـ .

صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، الرياض ١٩٧٤م.

الواسعي ، عبد الواسع بن يحيى : تاريخ اليمن (فرجة الهموم ...) القاهرة ١٣٤٦هـ .

اليمني ، عمارة : المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ، تحقيق محمد بن علي الأكوع ، القاهرة ١٩٧٦م .

تيمـــاء

لمحة تاريخية وآثارية

للأستاذ الدكتور أحمد حسين شرف الدين

تقع بلدة تيماء بشمالي المملكة العربية السعودية على مسافة ٤٢٠ كيلو مترًا شمال المدينة المنورة ، وكانت تتبع إمارة حائل، وهي اليوم تتبع إمارة تبوك ، ويقدر سكانها بسبعة آلاف نسمة(١).

وهي من الواحات الزراعية الخصبة، وقد كسبت أهميتها التاريخية لوقوعها على طريق القوافل التجارية التي كانت تربط الجزيرة العربية بالعراق بواسطة عرار ووادي العبيد ، ثم بالشام بواسطة البتراء ومعان وغزة ، ولموقعها الاستراتيجي على أطراف النفودات المعروفة بنفودات البتراء من الشمال وغزيَّة من الشرق، والحيزاء من الجنوب الشرقي .

وتتصل هذه النفودات بالنفود الكبير أعظم صحاري الجزيرة العربية والمعروف عند الجغرافيين العرب برملة عالج، وهو يمتد شمالاً إلى وادي السرحان ، وجنوبًا إلى جبلي أجأ وسلمى (جبل شمّر) وشرقًا إلى مدينة حائل وغربًا إلى تيماء(٢).

ولوقوعها على طريق الحاج الشامي، تكلم عنها عدد من الرحالة والمؤرخين العرب، واصفين موقعها وآثارها ، منهم ياقوت الحموي في معجم البلدان وأبو عبيد البكري في المسالك والممالك . وابن الفقيه في البلدان، والإصطخري في مسالك الممالك، وأبو الفداء في تقويم البلدان ، والمقدسي في أحسن التقاسيم والقزويني في آثار البلاد وأخبار العباد، وقال عنها المقدسي المتوفى سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م إنه ليس بالحجاز أجلّ وأعمر وأكثر تجارًا وأموالاً منها بعد مكة(٣).

كما وصفها الإصطخري إبراهيم بن محمد المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م قبله في كتابه مسالك الممالك بمثل ذلك.

وجاءت في عدد من قصائد الشعراء الجاهليين ، نكتفي هنا بقول امرئ القيس:

وتيماء لم يُترك بها جذع نخلة
ولا أُطُمًا إلا مشيدًا بجندل(٤)

والأُطُم البناء الشامخ جمعه آطـــام وكانت الآطام منتشرة في شماليّ الجزيـرة العربية. وقد أورد السمهودي في كتابـه خلاصة وفاء الوفا بمدينة المصطفـى (٥) أسماء عدد من آطامـــها ، كالسـعدان والزيدان والأجش والأشنف والضحيان ، ولا تزال أطلال الأخير قائمة حتى اليوم .

وفي مطلع قرننا الميــلادي كـانت تيماء محطة من محطات ســكة حديـد الحجاز التي قام السلطان عبـد الحميـد بإنشائها بمعاونة عدد من الدول العربيـة والإسلامية، والتي بدئ العمل فيها سـنة ١٩٠٠م وانتهى سنة ١٩٠٨هـ (٦).

وأهم من كتب عـن تيمـاء مـن المؤرخين المعاصرين الأستاذ الشيخ حمـد الجاسـر الـــذي زارهـــا ســـنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م وأفرد لها فصـلاً مطولاً في كتابه (في شمال غرب الجزيـرة العربيـة) والأسـتاد عبـد القـدوس الأنصاري الذي رارها في التاريخ نفسـه وسط الكلام عنها في كتابــه (بـين التاريخ والآثار) وحافظ وهبة مؤلــف كتاب (جزيـــرة العــرب في القـرن العشرين) المطبوع في الريـــاض ســنة ١٣٨١هـ/١٩٦١م، وفؤاد حمزة مؤلف كتاب (قلب جزيرة العرب) المطبوع في الرياض ســنة ١٣٨٨هـــ/١٩٦٨م ، ولمجيء ذكرها في جغرافيـة بطليمـوس والحوليات الأشورية والبابلية كحوليـات تيغلات بلاسر ونابو نيدوس كما سـيأتي بيانه ؛ فقد زارها عدد مــن البـاحثين والرحالة الأجانب ، نذكر منهم من يلي، وقد جاء وصف رحلاتهم ونتائجـهم في مؤلفات موسل وفلبي وديتلف نيلسون :

١- تشــارلز دوتي Charles M. Doughty الرحالة البريطاني الذي وصل إلى تيمـاء سنة ١٨٧٧م واستنسخ منـــها نقوشًـا لحيانية وثمودية ونبطية ، نشــرت ســنة ١٨٨٤م بترجمة الباحث اللغوي جوزيف رينان J. Renan ، أما كتاب رحلته فقــد نشر بكامبرج سنة ١٨٨٨م في مجلديـــن بعنوان :(رحلات في صحراء الجزيــرة العربية)Travels in Arabia Deserta .

٢- الرحالة الإنجليزي يوليوس أويتنـــج Julios Aoiting الـذي زارهـا ســـنة ١٨٧٧هـ بصحبة تشارلز دوتي ، وجمع نقوشًا ثمودية ونبطية نشرت في لندن سنة ١٩١٤م .

٣- الرحالة الفرنسي شارل هوبر Charles huber الذي وصل إليها ســـنة ١٨٨٤م

واستنسخ منها عدداً من النقوش ، نشرها بكتاب رحلته (رحلة في بلاد العــــرب) Journal d'un Voyage in Arabia الذي نشر في باريس سنة ١٨٨٨م ، ومنها ما نشــــره بمجلة الجمعية الجغرافية ســـــنة ١٨٩٢م بعنوان:(نقوش من وسط الجزيرة العربية) Inscriptions Recueillies Dans l'Arabie Centrale وقد أعاد نشر النقوش الثموديـــــة مـــع مجموعـــة دوتي واويتنـــج : الدكتـــــور اوليتمان E. Littmann وهـــ مولر H.Muller وفان دن برندن Ven Den Brenden وكتـــب عنها بإفاضة ديتلف نيلســـون Nelson detılf وررود دكانـــــاكس detilf Rodo Kanakis وفريتز هومل F.hommel وقــــام بترجمـــة أبحاث هؤلاء الثلاثة وتكميلها الدكتـــور فؤاد حسنين علي في كتابــــه (التـــاريخ العربي القديم) المطبوع بالقــــاهرة ســـنة ١٩٥٨م ، كما قام أويتنـــج بدراســة النقوش النبطية ونشرها في برلين ســــنة ١٨٨٥م . وقد تمكـــن هـــذا الرحالـــة الجريء (هوبر) بمساعدة أحـــد ســـكان تيماء بنقض صخرة ضخمة بهـــا نقـــش مطول من حدار أحد منـــازل تيمـــاء ثم نقلها على ظهر جمل إلى العلاء فمعـــــان فدمشق ومنها إلى باريس ، واتضـــح في باريس أن النقش أرامي يعود إلى القــــرن الخامس قبل الميلاد ، أقامه أحد الكهنـــة كنُصْب على معبد (صُلم هجَّام) كبــير المعبودات التيماوية القديمة ، وقد تضمــن النقش أسماء معبودات قديمة أخرى منها : أشير وذو محرم وأســـيراء وســـنحلاء ، ويوحد النقش حاليًا بمتحف اللوفـــر في باريس ويعرف بمسلة تيماء ، وقد قمـــت خلال زيارتي لبــــاريس ســـنة ١٩٧٤م بدراسة النقش ونشر محتواه بكتابى (اللغـة العربية في عصور ما قبل الإسلام) .

٤- وفي سنة ١٩١٠م زار المنطقة-ومنها تيماء- البعثة الفرنسية المعروفـــة ببعثـــة جوســـن وســـافيناك Jussen et Savıgnac Mission وكان عمل هذين البــــاحثين - وهما من الآباء الفرنسيسكان - من أجلّ أعمال البحث الأثري والإبيقرافي في شبه الجزيرة العربية ، ولم تقتصـــر زيارتهمـــا لبلدة تيماء فحسب ؛ بل قاما بـــالاطلاع على آثار ونقوش المواقع الأثرية خارجـــها كجبل غنيم والخَبْوْ وبين الآكام الصخرية المنتشرة في غربي تيماء وشماليها، وقـــــد نشرت رحلتها في باريس ســـنة ١٩١٤م بعنوان : Avoig de Archeologigue in Arabia, paris 1914 كما نشرت نتائج أبحاثـــــهما ودراستهما وما جمعاه في رحلتهما مــــن

معلومات ونقوش ثمودية ونبطية في باريس خلال الأعوام ١٩٠٤م ، ١٩١١م ، ١٩١٤م في ثلاثة مجلدات ، الأول عن القدس والبتراء ، والثاني عن مدائن صالح ، والثالث عن تيماء والعلاء وحرة تبوك ، وكلها بعنوان : (بحوث أثرية عن حزيرة العرب) A T jaussen and R. Savignac Archaelogical en Arabie 4 Vol. Paris, 1904, 1911, 1914, 1920

وجاء في النقش رقم ١٣٨ من نقوش جوسن وسافيناك ما يفيد وجود علاقات تجارية بين بابل والجزيرة العربية .

لقد كانت أبحاث جوس وسافيناك الأساس الأول والأكبر الذي اعتمدت عليها المؤلفات المستفيضة عن الحضارة النبطية في مثل مؤلفات كرامر وكونتينو A.K ramer ; J contineau ، وعن الحضارة اللحيانية فى مثل مؤلفات فريدريك وينيت وفريتز كاسكل F V.Winnett W.caskel وعن الحضارة الثمودية في مثل مؤلفات مولر وفان دن برندن H (V) . Muller; Van den brenden

٥- الرحالة التشيكوسلوفاكي الويس موسل Alois Musil الذي زار تيماء خلال تجواله بشماليّ الحجاز ونجد سنة ١٩١٧م وأورد عنها معلومات كثيرة في كتابه (شماليّ الحجاز) The North of Hejaz الذى طبع في نيويورك سنة ١٩٢٦م ، وقام بنشره مترجمًا إلى العربية الدكتور عبد المحس الحسيني ، وطعت الترجمة بالإسكندرية سنة ١٣٥٢هـ/١٩٥٢م .

ولموسل كتابان آخران أحدهما شماليّ نجد The North of Negd وقد طبع في نيويورك سنة ١٩٢٨م ، والعربية الصخرية Arabia petraea وقد طبع في فيينا ١٩٠٧م ولم يترجما حتى الآن .

٦- الرحالة والبحاثة الإنجليزي هاري سان حون بريدجر فلبي S J.B. Philby الذى اعتنق الإسلام وسمي الحاج عبد الله فلبي ، الذي رار تيماء ضمن مازاره من مناطق الآثار بشمال غرب الجزيرة العربية سنة ١٩٥١م وأفرد لها في كتابه أرض مدين Land of Madian فصلاً مطولاً، وصف فيه زيارته لبلدة تيماء والخوبة وجبل غنيم ، متتبعًا آثار من سبقه وبالأخص الويس موسل ، وقد قام بترجمة الكتاب المذكور عمر الديراوي ونشر في بيروت سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م بعنوان (أرض الأنبياء) .

٧- الباحث الإنجليزي جيرالد لانكستر هاردينج G. Lankster Hlarding صاحب

كتاب (آثار الأردن) المنشـــــور ســـنة ١٩٦٥م بترجمة سليمان موسى ،وقـــد زارها ضمن البعثة الأمريكية الـــتي زارت تيماء والعلاء ومدائـــــن صــالح ســنة ١٩٦٢م، ونشر بحثه في مجلة (باســـور) البريطانية بنفس العـــام BASOR, NO 168, 1962, P. 9-12 .

٨- الباحثان الكنديان فريدرك وينـــت ووليم ريــــد F.V. Winett and W.L Read. اللذان كانا هما الآخران ضمــــن البعثــة الأمريكية ، وكان كتاهمـــا وعنوانـــه (كتابات أو مدونات من شمال الأســـرة العربية) الذي طبع بترونتو سنة ١٩٧١م من أهم وأشمل ما كتب عن آثار ونقوش المنطقة Ancient Record : From north Arabia, Toromto, 1970 .

وقد كشـــفت دراســـات هـــؤلاء الباحثين العرب والأجانب أن (تيمــــاء) أخذت حظًا من الازدهـــار في التـــاريخ القديم ، ولذا فقد ورد ذكرها بأســــفار التكوين.وأيوب وأشعيا من التوراة ، وفي جغرافية بطليموس وحوليات تيغـــــلات بلاسر الآشوري (٤٧٥ - ٧٢٧ قـــدم) كما جاءت في حوليات الملك البــــابلي نـــابو نيـــدوس (٥٥٥ - ٥٣٨ ق م) كواحدة من الأماكن التي غزاها في شمالّي الجزيرة العربية حسبما جـــاء في نقشـــه الذي عثر عليه ســـــنة ١٩٦٥م بحـــران وأودع بالمتحف البريطاني .

ويفيد هدا النقش الذي قام بدراسته ونشره سدني سميـــث S Smith في مجلـــة بابليون التاريخية Babylaniun Historical p.89، أن هذا الملك البابلي قد اســـتقر بتيمـــاء وبنى بها قصرًا على غرار قصره في بــــابل بعد أن تجول في المدن المجاورة كــــداداان -العلاء - وخيبر وفداك ويثرب ، وعقـد صلحًا مع المصريين والعرب،وقد نُشر هذا النقش مترجمًا في مجلة الدراسات الأناتولية Antolian Studies, The Harran Inscription of Nabonidus vlll,1958, P.P. 35, 69, 78.(٨)

وأهم من كتب عن تيماء واصفًــــا مبانيها وآثارها ومزارعــــها وســـكاها الأستاذ الشيخ حمد الجاسر في كتابه (في شمال غربي المملكة) ومن قبله موســـــل وفلبي ، وقال فلبي: إن أبرز أسرها عندما زارها سنة ١٣٧١هــ/١٩٧٧م أسرة آل رمَّان بن هتيمي التي تولت إمارتها مـــــن ســـنة ١٢٨١هـــــ/١٨٦٤م إلى ســـنة ١٣٦٩هــ/١٩٥٠م .

وقد زرتها سنة ١٣٩٨هــ/١٩٧٧م وكنت حينها في طريقـــي إلى دمشـــق

وكتبت عن تاريخها وآثارها ضمن كتابي (المدن والأماكن الأثرية في شمال وجنوب الجزيرة العربية) المطبوع بالرياض سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، واطلعت من آثارها على أطلال سورها وقصر زللوم وبئر هدَّاج .

والمدينة ذات شوارع ضيقة وتدل أحجار خرائبها الضخمة المتناثرة على أنها كانت مليئة بالعمران كما قال امرؤ القيس في شعره السابق ذكره .

ويطل عليها من الناحية الجنوبية الغربية تل مرتفع قال عنه الأستاذ عبد القدوس الأنصاري إنه بالنسبة لتيماء كجبل سَلْع للمدينة المنورة ، وحصن مرحب بالنسبة لخيبر (٩) ويوجد بقمته ركام من الأحجار يسميه السكان قصر السموءل ، وتحكي المؤرخات العربية أن السموءل بن عاديا الذي عاش بالتاريخ الجاهلي كان له بتيماء قصر يسمى (الأبلق) وفيه قالت ملكة تدمر قولها المشهور:" تمرد مارد وعز الأبلق "، وذلك عند ما غزتهما وصعب عليها احتلالهما ، و (مارد) هو حصن دومة الجندل بشماليّ المملكة العربية السعودية .

وجاء في شعر الأعشى مادحًا شريح بن السموءل :

بالأبلق الفرد من تيماء منزله
حصن حصين وجار غير غدَّار(١٠)

وزعم بعض المؤرخين أن السموءل كان إسرائيليًّا ، على دين موسى عليه السلام كما رأى البعض الآخر ومنهم الأستاذ حمد الجاسر أنه كان عربيًّا قحطانيًّا (١١) ، وذهب بعض المستشرقين إلى أنه شخصية وهمية اخترعها أهل الأخبار لما سمعوا من أقاصيص مذكورة في التوراة . (١٢)

ولي بحث في الموضوع سبق أن نشر بجريدة الرياض (العدد : ٥٤٨ في ٧ من رمضان ١٤٠٣ هـ) حول شخصية السموءل أوضحت فيه بالأدلة العلمية أن (سموى إل) اسم لقبيلة تيماء لورودها في عدة نقوش ثمودية تيماوية مجاورة لقبيلة ماسا ، نشرها البروفسر فريدرك وينيت في كتابه سالف الذكر . (١٣)

وأقول إنه لو صح وجود شخصية تسمى السموءل قد حكمت تيماء فهو دون شك عربي لا إسرائيلي ، لأنه يصعب على يهودي دخيل على بلاد العرب أن يتملكها وفيها ملوكها وزعماؤها

وقبائلها ذات المنعة والقوة المشهورة عبر التاريخ .

وتتواتر الأخبار التي تفيد أن تيماء قد سكنها اليهود إلى جانب قبيلة طيئ العربية ، كما سكنوا غيرها من الأماكن الحجازية كخيبر والعلاء ويثرب ، وتفيد تلك الأخبار أنهم قد وفدوا إلى الحجاز في القرن الأول للميلاد عندما هاجم تيتوس الروماني أورشليم ، أما البعض الآخر فيقول إن فرارهم من فلسطين كان عندما احتل بختنصر الملك البابلي فلسطين . (١٤)

ومن الأماكن التي زرتها في تيماء وما حولها : قصر بن رمان أحد أمراء تيماء السابقين ، وقصر الرَّضم وهو مليء بالنقوش الثمودية التي سبق أن نسخها وصورها كل من هوبروفلبي ، ويقع بشمالها جبل غنيم وهو يرتفع عن سطح البحر ٤٠٠٠ قدم ، ويوجد فيه من النقوش الثمودية واللحيانية ما قد يكون أقدم من الكتابات السبئية والمعينة الموجودة في معين وصرواح ومأرب باليمن والمعروفة بالمسند والتي مرت بمراحل من التحسُّن والتطوُّر .

ويبدو من الآثار الموجودة على قمة هذا الجبل وصور الأصنام وأطلال المباني ومعبد ثمودي لصنم تيماء المسمى (صُلم هجَّام) وغير ذلك من الآثار ؛ أن حصنًا قد شيد على قمته لما يتمتع به من الحصانة والشموخ والاستراتيجية ومن يدري فقد يكون هو حصن (الأبلق) الذي يقول فيه السموءل :

لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل
هو (الأبلق) الفرد الذي شاع ذكره
يعز على من رامه ويطول
رسا أصله تحت الثرى وسما به
إلى النجم فرع لا يُنال طويل

ومطلع قصيدة السموءل:

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل

وهي طويلة وبليغة ولها شهرتها لدى مؤرخي الأدب العربي .

أحمد حسين شرف الدين
عضو المجمع المراسل من السعودية

قائمة المراجع

١- كحالة ، عمر رضا : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ١٢٩ ط ٢ مطبعة الفجالة الجديدة القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

عاتق غيث البلادي : معجم معالم الحجاز : ٧٢/٢ دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٢- ياقوت الحموي : معجم البلدان : ٧٠/٤ .

الإصطخري : مسالك الممالك ص ٢٢. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ١٩٣/١ ، ٩٣/١ ط ٣ ، دار العلم بيروت ١٩٨٠م .

أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١ ، بيروت ١٩٦٩م .

٣- أبو عبيد البكري : المسالك والممالك ص ٩٣ نشر ذات السلاسل للنشر والتوزيع ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٤- الهمداني ، الحسن بن أحمد : صفة جزيرة العرب ص ٣٩٥ ، منشورات اليمامة ١٣٩٤هـ/١٩٧٧م.

٥- خلاصة الوفا بمدينة المصطفى : ص ٤٥٢ وما بعدها ، مطابع الجامعة - جدة ١٤٠٣هـ/ ١٩٧٤م .

٦- كانت تبدأ من دمشق فعمّان فمعان فالعلاء فتيماء فالمدينة المنورة ، وقد توقفت في الحرب العالمية الأولى ، انظر (الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية) تأليف نبيل عبد الحي رضوان جدة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٧- الدكتور عبد العزيز صالح : تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة ص٢٢ مكتبة الإنجلو المصرية ١٩٨٨م .

الدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٥٧،دار النهضة العربية- بيروت ١٩٧١م.

٨- حتّي ، فيليب : تاريخ العرب المطول : ٤٩/١ ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع، القاهرة ١٩٣٥ .

تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٩٨ ، بيروت ١٩٤٨م .

ألويس موسل : شمال نجد ، Mosil, Aluis Northern Nejd P. 86.132.225 .

جواد علي : المصدر السابق : ٦١٤/١ .

٩- عبد القدوس الأنصاري ،: بين التاريخ والآثار ، ص ٣١١ .

١٠- حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة العربية ص ٣٤٥ دار اليمامة بالرياض ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

١١- المصدر نفسه ص : ٣٣٤ ، ٣٣٧ .

١٢- جواد علي : المصدر السابق : ٥٧٩/٦ .

١٣- المصدر نفسه : ٥٧٨/٦ .

١٤- المصدر نفسه .

تحقيق أعلام الطريق

التي سلكها المتنبي هاربًا من الفسطاط إلى الكوفة

(من ٩ ذي الحجة ٣٥٠ إلى ربيع الأول سنة ٣٥١)

للأستاذ الدكتور يحيى جبر

تمهيد :

تجمع المصادر التاريخية على أن أبا الطيب المتنبي ضاق ذرعًا بالحياة في رحاب كافور الإخشيدي لأسباب مختلفة أبرزها منزلة كافور الاجتماعية ، وأنه لم يحظ لديه بما كانت تطمح إليه نفسه ، غير أن كافورًا لم يكن ليخلي سبيله ، فهو يخشى إن أفلت من يده أن يوسعه هجاءً وذمًّا مثلما أوسعه مدحًا ، وقد كان يعلم أنه الشاعر الذائع الصيت، وأن شعره سرعان ما يستطير في الآفاق ، ولذلك كان كل منهما يُحاذر من الآخر، ويتوجس في نفسه منه .

ولكنَّ أبا الطيب ، وهو الشاعر الفارس الذي لم يستقر به المقام طويلاً في أي بلد ، أبت نفسه إلا تحررًا ، فاتخذ البيداء قلوصًا ، ولاذ بجانبها على نحو ما كان من شأن العرب في قول الأخنس :

لكل أناس من معد عمارة

عروض إليها يلجؤون وجانب

وقول الذبياني :

فموضع البيت في صماء مظلمة

تقيد العير لا يسري بها ساري

تدافع الناس عنها حين نركبها

من المظالم تدعى أم صبار

أو كقول أحدهم :

قد شمرت عن ساقها فشمري

واتخذي الليل قلوصًا تظفري

ودبر أمره بليل ، وأعد لفراره العدة في صمت وتكتم ، واهتبل فرصة اشتغال كافور يوم عرفة بأعطيات الجند ، وولى وجهه شطر المشرق،وبه عن طريق الشام حيدة ، وعن درب الحج ازورار كيلا يسهل على كافور طلبه . وكان أبو الطيب قد جسّ نبض كافور إذ استأذنه في الخروج إلى الرملة (من أرض فلسطين) لغرض يقضيه ، فأبى وقال له: نكفيك ذلك ، ونرسل من يقضيه لك .

وكانت الطرق والدروب السالكة تحت سيطرة ولاته وعماله ، الأمر الذي جعل أبا الطيب يسلك طريقًا مجهولاً ، على نحو ما ذكره صاحب الإيضاح من أنه سار "على الحلل والأحياء والمفاوز المجاهيل والمناهل والأواجن ". (خزانة الأدب ٢/٣٣٥٣).

ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن أبا الطيب لم يمر ببلبيس في رحلته هذه ، وذلك أنه كتب إلى عاملها عبد العزيز بن يوسف الخزاعي يطلب منه دليلا ، فأنفذه إليه ، ولو كان يخطط للمرور بها، وهي على طريق الشام، لما أنفذ الدليل إليه.وقد مدحه بقصيدة مطلعها:(ديوانه ص٥٥٦)

جزى عربا أمست بِبُلْبَيس ربها
بمسعاتها تقرر بذاك عيونها

وهذا يناقض ما أورده عبد الوهاب عزام في ذكرى أبي الطيب نقلاً عن مخطوطة وقف عليها من أن أبا الطيب قصد عبد العزيز الخزاعي في بلبيس ، ونزل عنده حين مر ببلده هاربًا . وربما أوهم بعض حاشيته أنه سيتوجه إلى هناك للتضليل ، وهذا يفسر ما أقدم عليه كافور إذ كتب إلى عماله بالحوفين والجفار وغزة والشام وجميع البوادي ظنًا منه أنه سلك طريق الساحل إلى بلاد الشام(ذكرى..ص١٣٦) وكان المتنبي قد حمل من الماء على الإبل من نهر النيل عُدة لعشر ليال ، وتزود من المؤونة لمدة عشرين يومًا . ونورد فيما يلي قصة خروجه العجيبة نقلاً عن عبد الوهاب عزام في " ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام " (ص ١٣٧ - ١٤٢) .

" وكانت للأسود عليه عيون . وكان جميع جيرانه يراعونه حتى كان قوم يسهرون حذاء منزله يتفقدونه ويتعرفون من يدخل إليه ويخرج من عنده. ويفد كل يوم صاحب الخبر إلى بابه ، حتى يقف على حاله . وهو يعلم بذلك فلا يظهره لهم .

وكان يتسلّى بفاتك والحديث معه . وتوفي فاتك فعمل أبو الطيب على الرحيل . وقد أعد كل ما يحتاج إليه على مر الأيام في رفق ولطف لا يعلم به أحد من غلمانه ، وهو يظهر الرغبة في المقام. وطال عليه التحفظ ، فخرج ، فدفن الرماح في الرمل ، وحمل الماء على الإبل في الليل من النيل عُدَّة لعشر ليال ، وتزود لعشرين .

وكتب إلى عبد العزيز بن يوسف الخزاعي " الأبيات التي قدَّمتُها " وأخفى طريقه ، فلم يأخذوا له أثرًا حتى قال بعض أهل البادية :

هبه سار فهل محا أثره .

وقال بعض المصريين :

إنما أقام حتى عمل طريقًا تحت الأرض.

وتبعته البادية والحاضرة ومن وثقوا به من الجند ، وكتبوا إلى عمالهم بالحوفين والجفار وغزة والشام وجميع البوادي .

"وعبر أبو الطيب بموضع يعرف بنجهة الطير ، إلى الرثنة " ، حتى خرج إلى ماء يعرف بنخل في التيه بعد أيام ، وتسميه العامة بحرا فلقي عنده في الليل ركبًا وخيلا صادرة عنه ، فقاتلوه فأخذهم . وتركهم ، وسار حتى قرب من النِّقاب ، فرأى رائدين لبني سُليم على قلوصين . فركب ، وطردهما حتى أخذهما ، فذكرا له أن أهلهما أرسلوهما رائدين ، ووعداه النزول ذلك اليوم بين يديه . فاستبقاهما ، ورد عليهما القلوصين وسلاحهما . وسار وهما معه حتى توسط بيوت بني سُليم آخر الليل . فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء ، وذبح له ، وغدا ، فسار إلى النقع ، فنزل ببادية من معن وسُنْبُس . فذبح له عفيف المعنيّ غنمًا وأكرمه ، وغدا من عنده وبين يديه لصّان من جُذام يدلانه في الطريق . فصعد في النقب المعروف بتربان ، وفيه ماء يُعرف بغرندل فسار يومه وبعض ليلته ، ونزل وأصبح فدخل حِسْمى .

وحسمى هذه أرض طيبة . تؤدي أثر النحلة من لينها . وتنبت سائر النبات مملوءة جبالا في كبد السماء متناوحة مُلس الجوانب ، إذا نظر الناظر إلى قلّة أحدها فتل عنقه حتى يراها ، بشدة ، ومنها ما لايقدر أحد أن يصعده . ولا يكاد القتام يفارقها . وذلك معنى قول النابغة :

فأصبح عاقلاً بجبال حسمى
دُقاق التُّرب محتزم القتام

وقد اختلف الناس في تفسير هذا البيت ولم يعلموا ما أراد . وبكون مسيرة ثلاثة أيام في يومين ، يعرفها من رآها من حيث رآها ، لأنها لا مثيل لها في الدنيا ، ومن جبالها جبل يُعرف بأرَم ، عظيم العلوّ، تزعم البادية أن عليه كرومًا وصنوبرًا .

فوجد بني فزارة شاتِين بها، فنزل بقوم من عديّ فزارة فيهم أولاد لاحق ابن مخلب . وكان مخلب هذا خارج يطلب ناقة له فقدها . وكانت فزارة قد أخذت غزيّا غزاها ، فكانت الأسرى في القِدّ بين البيوت ، فسمعه بعض الأسرى ينشد الناقة . فقال: هي بموضع كذا وكذا، وجدناها أمس ، فشربنا لبنها، وتركناها لنعود فنأخذها ، فنادى مخلب: على شهادتكم يا معشر العرب . ثم عاد فلبس سلاحه وركب فرسه فقال :

الغزيّ ضيوفي . فخلّصهم من القِدّ بعد اختلاف الناس وخوف الشر . فردّ عليهم كل شيء أخذ لهم ، وقراهم وسيرهم وقال :

إن تك ناقتي منعت غريًّا
تجر صرارها ترعى الرحابا
فأي فتى أحق بذاك مني
وأجدر في العشيرة أن يهابا

وكان بينه وبين أمير بني فزارة حسان بن حكمة مودة وصداقة ، فنزل بجار للقوم ليوارى عنهم فلا يُعلم بما بينه وبينهم ، واسم الجار وردان بن ربيعة من طيء ، ثم من معن ، ثم من بني شبيب ، فاستغوى عبيده ، وأفسدهم عليه ، وأجلسهم مع امرأته ، فكانوا يسرقون له الشيء بعد الشيء من رحله .

وطابت حِسمى لأبي الطيب ، فأقام بها شهرًا ، وكتب الأسود إلى من حوله من العرب ووعدهم . وظهر لأبي الطيب فساد عبيده ، وكان الطائي يرى عند أبي الطيب سيفًا مستورًا فيسأله أن يريه إياه فلا يفعل ، لأنه كان على قائمه ونعله ذهب من مئة مثقال . وكان السيف لا ثمن له . فجعل الطائي يحتال على العبيد بامرأته طمعًا في السيف ، لأن بعضهم أعطاه خبره .

فلما أنكر أبو الطيب أمر العبيد ، ووقف على مكاتبة الأسود لكل العرب التي حوله في أمره ، أنفذ رسولاً إلى فتى من بني فزارة ثم من بني مازن ، ثم ولد هرم بن قطبة بن سيَّار ، يقال له فليتة ابن محمد . وفيهم يقول بعض البادية :

إذا ما كنت مغتربًا فجاور
بني هرم بن قُطبة أودثارا
إذا جاورت أدني مازنيّ
فقد ألزمت أقصاها الجوارا

وكان قد وافقه قبل ذلك على المراسلة . فسار إليه . وترك أبو الطيب عبيده نيامًا، وتقدم إلى الجمال ، فشد على الإبل وحمل خوفًا أن يحتبس عنه بعض عبيده ، فلم يعلموا حتى أنبههم ، وطرحهم على الإبل ، وجنّب الخيل ، وسار تحت الليل، والقوم لا يعلمون برحيله ، ولا يشكون أنه يريد البياض ، فأخذ طريق البياض ، فلما صار برأس الصوان أنفذ فليتة بن محمد إلى عرب بين يديه ، وتوقف .

وأخذ أحد العبيد في الليل السيف ، فدفعه إلى عبد آخر ، ودفع إليه فرسه ، وجاء ليأخذ فرس مولاه ، وانتبه أبو

الطيب . وقال الغلام : أخذ العبد فرسي. يغالط بهذا الكلام . وعدا نحو الفرس ليقعد في ظهره ، فالتقى هو وأبو الطيب عند الحصان، وسلّ العبد السيف، فضرب رَسنه، فضرب أبو الطيب وجه العبد فقسمه (فخرّ على رِمّة) وأمر الغلمان فقطعوه . وانتظروا الصباح . وكان هذا العبد أشد من معه وأفرسهم (الرتم: شجر له أغصان مُلس دقاق سباط والواحدة رتمة)

فلما أصبح أتبع العبد عليًّا الخفاجي وعلوان المازني ، وأخذا أثره فأدركاه عصرًا ، وقد قصّر الفرس الذي تحته ، فسألهما عن مولاه ، فقالا: جاءك من ثمّ، وأشارا إلى موضع ، فدنا منهما كالعائذ وهو يتبصر . فقالا له : تقدم . فقال : ما أراه ، فإن رأيته جئتكما، وإن لم أره فما لكما عندي إلا السيف . فامتنع منهما. وعادا في غد ، ووافق عودة فليتة، فقال فليتة : لقد كان فيما جرى خيرة ، لأن الوقت الذي اشتغلتم بقتله فيه ، كانت سرب الخيل عابرة مع ذلك العلم، ولو كنتم زلتم عن موضعكم لحدّث بعضكم بعضًا ، فقال أبو الطيب ارتجالاً:

لَئِنْ تَكُ طَيِّئٌ كَانَتْ لِئَامًا
فَأَلأَمُهَا رَبِيعَةُ أَوْ بَنُوهُ
وَإِنْ تَكُ طَيِّئٌ كَانَتْ كِرَامًا
فَوَرْدَانٌ لِغَيْرِهِم أَبُوهُ
مَرَرْنَا مِنْهُ فِي حِسْمَى بِعَبْدٍ
يَمُجُّ اللُّؤْمَ مَنْخِرُهُ وَفُوهُ
أَشَذَّ بِعُرْسِهِ عَنِّي عَبِيدِي
فَأَتْلَفَهُمْ ، وَمَالِي أَتْلَفُوهُ
فَإِنْ شَقِيَتْ بِأَيْدِيهِمْ جِيَادِي
لَقَدْ شَقِيَتْ بِمُنْصُلِيَ الْوُجُوهُ

وقال فيه :

لَحَى اللهُ وَرْدَانًا وَأُمًّا أَتَتْ بِهِ
لَهُ كَسْبُ خِنْزِيرٍ وَخُرْطُومُ ثَعْلَبِ
فَمَا كَانَ مِنْهُ الْغَدْرُ إِلاَّ دَلاَلَةً
عَلَى أَنَّهُ فِيهِ مِنَ الأُمِّ بِالأَبِ
إِذَا كَسَبَ الإِنْسَانُ مِنْ هَنِ عِرْسِهِ
فَيَا لُؤْمَ إِنْسَانٍ وَيَا لُؤْمَ مَكْسَبِ
أَهَذَا اللُّذَيَّا بِنْتُ وَرْدَانَ بِنْتُه
هُمَا الطَّالِبَانِ الرِّزْقَ مِنْ شَرِّ مَطْلَبِ
لَقَدْ كُنْتُ أَنْفِي الْغَدْرَ عَنْ تُوسِ طَيِّئٍ
فَلاَ تَعْذِلاَنِي رُبَّ صِدْقٍ مُكَذَّبِ

وقال أيضًا (في العبد الذي قتله) :

أَعْدَدْتُ لِلْغَادِرِينَ أَسْيَافَا
أَجْدَعُ مِنْهُمْ بِهِنَّ آنَافَا
لا يَرْحَمُ اللهُ أَرْؤُسًا لَهُمْ
أَطَرْنَ عَنْ هَامِهِنَّ أَقْحَافَا

مَا يَنْقِمُ السَّيْفُ غَيْرَ قِلَّتِهِمْ

وَأَنْ تَـكُونَ المِئُـونَ آلاَفَـا

يَا شَرَّ لَحْمٍ فَجَعْتُهُ بِدَمٍ

وَزَارَ لِلْخَـامِعَاتِ أَجْـوَافَا

قَدْ كُنْتَ أُغْنِيتَ عَنْ سُؤَالِكَ بِي

مَنْ زَجَـرَ الطَّيْرَ لِي وَمَنْ عَافَا

وَعِدْتُ ذَا النَّصْلَ مَنْ تَعَرَّضَهُ

وَخِفْتُ لَمَّا اعْتَرَضْتَ إِخْـلاَفَا

لاَ يُذْكَرُ الْخَيْرُ إِنْ ذُكِرْتَ وَلاَ

تُتْبِـعُكَ المقْلَتَـانِ تَوْكَـافَا

إِذَا امْرُؤٌ رَاعَنِي بِغَدْرَتِهِ

أَوْرَدْتُهُ الغَـايَةَ الَّتِي خَـافَا

وسار أبو الطيب حتى نظر إلى آثار الخيل . ولم يجد فليتة خبرًا عن العرب التي طلبها . فقال له: أعرق بنا ، على بركة الله ، إلى دُومة الجندل ، وذلك أنه أشفق أن تكون عليه عيون بحسمى قد علمت أنه يريد البياض ، فسار حتى انحدر إلى الكفاف ، فورد البويرة بعد ثلاث ليال ، وأدركتهم لصوص أخذت آثارهم وهم عليها ، فلم يطعموا فيهم . وسار معهم حمصي بن القلاّب .

فلما توسط بُسيطة (وهي أرض تقرب من الكوفة) رأى بعض عبيده ثورًا يلوح ، فقال : هذه منارة الجامع . ونظر آخر إلى نعامة في جانبها الآخر . فقال: وهذه نخلة . فضحك أبو الطيب، وضحكت البادية فقال :

بُسيطة مهلاً سقيت القطارا

تركت عيون عبيدي حيارا

فظنوا النعام عليك النخيل

وظنوا الصوار عليك المنارا

فأمسك صحبي بأكوارهم

وقد قصد الضحك فيهم وجارا

وورد العقدة بعد ليال ، وسقى بالجراوي، واجتاز ببني جعفر بن كلاب. وهم بالبريت والأضارع ، فبات فيهم ، وسار إلى أعكش حتى ورد الرُهيمة . ودخل الكوفة في شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة " فقال قصيدته التي مطلعها :

ألا كل ماشية الخيزلى

فدى كل ماشية الهيذبى

وذكر فيها المواضع التي مر بها

قلت : وجبل أرم المذكور هو جبل رم الواقع إلى الشمال الشرقي من العقبة ، وجنوب القويرة وإلى الشمال من جبلي أم طلحة وجبل القطر .

ولنا على هذه القصة مأخذ نجمله في:

أنه ورد فيها أن بُسيطة أرض تقرب من الكوفة،وما هو بصحيح، إنما الصحيح أنها بين حسمي والجوف إلى الجنوب من شبيكة . وهذا الخبر الذي ساقه عن بعض عبيد أبي الطيب وما رأوه من النعام والمها حقه أن يتقدم فيأتي في خبر جسمى ، وقد خرج منها إلى عقدة الجوف ، وهو الكلام الذي جاء عقب ذلك ، ذلك أن بسيطة تناصي حسمى، بينها وبين الجوف ، وورد في القصة أنه "ورد العقدة بعد ليال وسقى بالجراوي " وهذا يوحي بأن الجراوي يلي الجوف علي طريقه قبل المشرق ، ولكن الصحيح أنه يقع غربي الجوف على الطريق إليها .

وأغلب الظن أن المتنبي سلك طريقًا يوازي طريق القاهرة السويس الصحراوي إلى الشمال قليلاً من خط عرض ٣٠ درجة شمالاً ، وهذا الخط الذي يبدو أن جل المواقع التي سلكها تقع عليه أو إزاءه يمنيًا أو يسارًا بمسافات قصيرة إلى أن دخل الجوف (في شمال المملكة العربية السعودية اليوم) . إذ أخذ يتجه منها صوب الكوفة التي تقع على خط العرض ٣٢ درجة شمالاً .

وربما كان الطريق الذي سلكه المتنبي هو ما عرف في تاريخ سيناء باسم درب الشعوى الذي يبدأ قريبا من رأس خليج السويس ؛ ويسير إلى الجنوب أكثر من درب الحج إلى أن ينتهي عند العقبة (عبد الرحمن زكي ٨٠) ونعتقد أنه توجه للكنتيلا بعد نخل مباشرة ، و لم يتجه إلى الثمد والعقبة ، والشعوى هي الشعواء مقصورة أو العشواء مقصورة مقلوبة لوعورتها ومخاطرها .

وهذا الطريق كان مستخدمًا قبل درب الحج - على الأرجح - وقد سلكته جيوش صلاح الدين أثناء الحروب الصليبية ، عندما توجه لضرب حاميتي الكرك والشوبك ، وأبرز منازل هذا الطريق :شط السويس ، ثم ممر متلا ، فوادي الراحة ، إلى أرض التيه شمال عين صدر (حيث تقوم قلعة صلاح الدين) وفي هضبة التيه يسير الدرب شرقًا قاطعًا أعالي فروع البروك أولاً ثم يقطع وادي العريش نفسه شمال بئر أم سعيد بقليل ، ومنه إلى روافد وادي العريش الشرقية ، أي طريفية ووادي الرواق ، فالفيحي فوادي القريص (حيث تقع بئر القريص) حتى يصل إل الثمد(عبد الرحمن زكي٣٢)

ونعتقد أن المتنبي تقدم من وادي النثيلة إلى نخل ، فجبل أم علي ووادي العقبة ، فوادي المهشم . ولاشك في أن رحلة أبي الطيب كانت مقامرة على نحو ما يجسده قوله في إبله (ديوانه ٥٥٢)

ضربت بها التيه ضرب القما

ر إما لهذا وإما لذا

أي لنجاحٍ أو هلاك ، فكأنه امرؤ القيس إذ قال لصاحبه وقد بكى لما رأى الدرب دونه :

فقلت له : لا تبك عينك إنما

نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا

" ومن الصعوبات التي كان يصادفها المسافرون بين السويس وهضبة التيه – منطقة الكثبان التي يصعب فيها سير الناس والجمال ... والصعوبة الثانية نقب العقبة الذي كان على المسافرين أن يعبروه للوصول إلى العقبة . وهذا الجزء هو أشد أجزاء الطريق وعورة ... أما الصعوبة الثالثة : فهي مشكلة الماء في كميته ونوعه ، فالآبار الموجودة في الطريق محدودة جدًا ، ولا نصادف الماء إلاّ حول نخل ، وفي بعض آبار متفرقة حول الثمد وهذا الماء لا يشربه المسافر إلاّ مضطرًا لقلة عذوبته وكثرة أملاحه " (عبد الرحمن زكي ٣٠، ٣١)، ومن ذلك بير المر وبير المبعوق شرق السويس.

وقد صادف خروج المتنبي من مصر شتاء عام ٩٦١م بدليل أنه دخل حسمى شتاء كما سيأتي ، و"أن أفضل شهور السنة لزيارة سيناء ، بل أجمل فصولها للسفر فيها والنزهة والسياحة هي الفترة التي بين آخر فبراير (شباط) والنصف الأول من شهر مايو (أيار) والتي بين أوائل شهر أكتوبر (تشرين أول) ومنتصف نوفمبر (تشرين ثان) (أبو الحجاج ص ١٢٥) ، ونورد فيما يلي أسماء البلدان والمواقع التي مرّ بها مجتهدين في تحديد مواقعها ، وسنذيل البحث بخريطة نتتبع فيها أعلام الطريق .

نجهُ الطير (نجّة الطير)

جاء في خبر المتنبي أنه خرج من الفسطاط إلى هذا الموضع . قال ياقوت ، وضبطه دون إعجام الهاء : موقع بين مصر وأرض التيه . قلت : وما بين مصر (القاهرة) وأرض التيه (سيناء) هو صحراء قاحلة ، يخترقها الطريق المؤدي إلى السويس . ونعتقد أن الموضع المذكور يقع بين جبلي عتاقة جنوبًا وعويبد شمالاً.

ونعتقد أن الطريق الذي سلكه المتنبي يوازي درب الحاج المصري ، إلى الجنوب منه . وقد سلكه خوف العيون التي بثّها كافور ، ولأن المنطقة التي تقع إلى جنوب درب الحاج أوفر ماءً ، لاسيما ما كان منه في سيناء.(عبد الرحمن زكي ص ٣٢)

ولم نقف في مصادرنا على ذكر لهذا الموضع ، ووقفنا على موضع باسم "النواطير" الثلاثة ، وهو من منزل درب الحاج بين عجرود والعلوة إلى الشمال الشرقي من السويس ، ولا نستبعد أن يكون طريقه قد تقاطع مع درب الحاج في ذلك الموضع ، وأن تحريفًا قد اعترى اللفظ فإذا هو نجه الطير .

وثمة احتمال آخر يتسع له المقام ، هو أن جيم " نجة " قاف في الأصل نقة، وهي في الدارجة بمعنى النقرة ، وكأن الموضع رأس جبل أو شمراخ فيه ، يتكور في أعلاه ما يشبه أثر المنقار في مادة رطبة.

وجاء في وصف جبل حيطان (٨٠٦م) الذي يحدد خانق الممر (ممر متلا) مع جبل الجدي الذي يقع إلى الشمال منه أنه " ينتصب كالحائط " (جمال حمدان ١٩٢) وأن جبلاً بهذا الوصف يستهوي الطير ، وجدير بالذكر أن هذين الجبلين هما أعلى جبال تلك المنطقة (جمال حمدان ١٥٨) . كما يحتمل أن يكون الموقع ماء يجتمع في نقرة صخرية على الطريق ، كأنهم شبهوه بنقرة الطير لأنها تردها . والمعروف أن المتنبي سار على المجاهيل والمناهل والأواجن .

وهنا نشير إلى أمرين :

١- أن الطيور غالبًا ما توطن في شماريخ الجبال ، لاسيما الجواح من الطيور البرية.

٢- أن القاف تقلب جيما في بعض لهجات مصر الشرقية وسيناء ، ومن ذلك في الأعلام الجغرافية في سيناء (جبل يلق، إذ يلفظ ويدون في بعض الكتب يلج، والقديرات، إذ تلفظ الجديرات، وعلى هذا لهجة نجد المعاصرة . وقد سألني أحدهم يوما : ما حال رفيجك يعقوب ؟ يريد رفيقك) .

الدّثنة (الرّثنة) (الدّثينة)

وهي المنزل التالي الذي نزل فيه المتنبي بمو لم يذكره ياقوت ، وإنما ذكر

الدثينة ، وقال : ماء لبعض بني فـزارة . قلت : كانت فزارة أيام المتنبي تنـزل حسمى ، وله معهم صحبة ، ولعل بعضهم كانوا قد توغلوا في سيناء . وهي دون شك إلى الغرب من نخل ، ووردت في مصادر عبد الوهاب عزام (١٣٨) باسم الرثنة ، ولا نراه ، والأرجح عندنا أنها بالدال ، وهي التي ذكرها المقريزي (١/١٣٨) في خبر شداد بن هداد بن عاد ورمل الغرابي (رمل الهبير) إذ قال إنهم :"خرجوا من مصر إلى جهة وادي القرى فيما بين المدينة النبوية وأرض الشام ، وعمروا الملاعب والمصانع لحبس المياه ... وزرعوا أصناف الزراعات فيما بين راية وأيلة إلى البحر الغربي ، وامتدت منازلهم من الدثنة إلى العريش والجفار في أرض سهلة " . (والجفار رمل شمال سيناء) . ويطلق اسم الهبير أو الغرابي على الرمل الممتد في الأرض من وراء جبل طيئ إلى أرض مصر . . (المقريزي ١/١٨٢) أما ياقوت فجعله ما بين قطية والصالحية ، وقال : صعب المسالك ، وهذا يحصره في شمال غرب سيناء . وهو المقصود بقول الشاعر :

هي الديار فقد تقادم عهدها
بين الهبير وأبرق النعار

(ياقوت : أبرق النعار) ..

وأخيرا هل نذهب بعيدًا فنقول : لعل الرثنة هي عين الرويث الواقعة إلى الجنوب قليلا من عين سدر ، إلى الجنوب الشرقي من جبل الراحة ؟

التِّيه

والدثنة (أو الرثنة) في صحراء التيه التي احتاز مغاربها إلى نخل التي تتوسطها . ونورد فيما يلي ما ورد في بعض المصادر عن هذه الصحراء :

قال الزبيدي في حد جند فلسطين : وفي جنوبه عدم البلاد وفحص التيه . والأصل فيه المفازة ، ومفازة تيهاء : يضل سالكها (تاج العروس) .

وقال ياقوت : هو الموضع الذي ضل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه ، (هي أرض بين أيلة (العقبة) ومصر وبحر القلزم (الأحمر) وجبال السراة من أرض الشام (الشراة) ويقال إنها أربعون فرسخًا في مثلها ، وقيل اثنا عشر في ثمانية ... والغالب على أرض التيه الرمال، وفيها مواضع صلبة ، وبها نخيل ، وعيون مفترشة يتصل حد من حدودها (الشمالي) بالجفار ، وحد بجبل سيناء ،

وحد بأرض بيت المقدس وما اتصل بـه من فلسطين ، وحد ينتهي إلى مفـازة في ظهر ريـف مصـر إلى حـد القلـزم (السويس) (وانظر المسعودي - مـروج الذهب ٦٢/١ ، ١٢٠ ، ٢١٢ ، ٢٦٠).
قلت : إنما سميت قبيلة التياها نسبة إليـه ، وتنتشر هذه القبيلـة اليـوم في النقـب جنوب فلسطين وسيناء وجنوب الأردن.

نخل

يتوسط هذا المنـزل صحراء التيـه ، وقد كانت لنخل مركز سيناء في الأزمنـة القديمة ، لموقعة ،ولماء فيه ، ويبـدو أن المتنبي مر بنخل دون أن ينـزل فيه ولـو لتحليل راحلة وعير ، ولذلك قال في إبله وخيله (ديوانه ص ٥٥٢) .

فمرت بنخل وفي ركبها
عـن العـالمين وعـنه غـنى

إذ يبدو أن ماءها لا يشرب إلا مـن ضرورة ، ولذلك كان في ركبها عنـه غني، فمر به مسرعا ، ولعله لم يكن قـد اطمأن بعد إلى أنه أفلت مـن حـوزة كافور ، وأن عيره قد فصلت ، والمسافة بين القاهرة ولنخل عـن طريـق صـدر الحيطان ١٦٠ ميلا ، وهي مسيرة لحـو من خمسة أيام ، ونعتقد أن المتنبي وصـل إليها ومعه بقية من ماء النيل ، إذ تـزود منه لعشر ليال ، وهذا ما جعله يمر بهـا مسرعا، ودون أن ينـزل ، لاسيما أنـه وجد عندها ركبا وخيلا صادرة عنـها فقاتلوه ، وكان قد أخذهم ، فأسرع إلى النقاب .

وقد اختلف في ضبطه ، فهو " بحر" استناداً إلى ما ذكره عبد الوهاب عـزام (١٣٨) ، وهذا محتمل ، لاستبحار موقعه واتساعه قريبًا من وادي العريش ، كما أن ثمة احتمالا آخر يتمثل في أن بعـض المصادر ذكرت أن اسمها قديما كان نخر ، وكذلك سماها البكري حيـث قـال : وبطن نخر منهل من مناهل الحج ، وهـي قرية ليس بها نخيل ولا شجر ، يسـكنها نفر من الناس " (أبو الحجاج ص١٢١).
قلت : لاشك أن عبارة البكري محرفـة ، فقوله (ليس بها نخيل) يؤكد أن الكلمـة هي " نخل " ، فكأنه يريـد أن يبـدي استغرابه لهذه التسمية مع أنها لا نخيـل فيها. وربما نقل عنه صاحب الـدرر . وهذا يجعلنا نميل إلى أن الصيغة الأخـرى "بحر " هي أيضا تصحيف نخر، التي هـي تحريف نخل. وقال أبو الحجاج (١٢١) :

وقيل أيضا: إنها سميت بذلك (نخل) لأن تراها ناعم كأنما نخل بمنخل .

أما عبد الرحمن زكي فذكر أن بعض الباحثين يعيدون اسمها إلى أصل عبراني هو " نخل مصرايم " أي وادي مصر الذي أطلقه العبرانيون على وادي العريش (الذي يمر إزاءها) عبد الرحمن زكي ص٩٧) قلت : الوادي بالعبرية ناحل ، بالحاء ، أما الذين يلفظون الحاء خاء فإنهم اليهود الإشكنازيم ، وهذا التعليل ، بذلك مستبعد ، وإنما أسمى العبرانيون وادي العريش بذلك الاسم في شمالي سيناء (قرب مدينة العريش التي هي حد مصر شرقًا) وليس في وسط سيناء حيث بلدة نخل . ثم إنها كانت قديمًا تزرع بالنخيل وغيره ، وعدم وجوده فيها بكثرة لا يعني أنه لم يكن ، فكم من حائط كان وأصبح موقعه اليوم خاويا لا أثر فيه لشجر .

وقد أتيح لي أن أمر بنخل ثلاث مرات ، إذ زرت مصر عبر سيناء عامي ١٩٨٦،١٩٨٧م واجتزتها بسيارتي من نويبع إلى القاهرة مرورا بنخل . وقد تجددت زراعة النخيل فيها عندما أنشئت حديقتها سنة ١٩٠٦م . وما نراها إلا سميت بما كان فيها قديمًا من النخيل خلافا لأبي الحجاج حافظ (ص١٢١) .

النّقاب

النقب هو الطريق إلى الجبل، قال الشاعر:

يناقلن بالشمط الكرام أولى النهى
نقاب الحجاز ....

وتمتد في شرق سيناء سلسلة جبلية تنحدر غربا إلى التيه،وشرقا إلى وادي عربة الذي يمتد من البحر الميت إلى خليج العقبة في الجنوب الفلسطيني ، ومن جبال هذه المنطقة جبل أبو رضا قرب طابا ، وجبل الحمرا وجبل الصفرا وجبل سويقة وجبل أبو طوبار ، وتخترق هذه الجبال طرق (نقاب) تصل ما بين سيناء وجنوب فلسطين والأردن وشمالي السعودية ، ومن تلك النقاب نقب شتار جنوب البلقاء ، ونقب عازب جنوب فلسطين ، والنقيب بين تبوك ومعان (ياقوت) ونقب تربان الآتي ذكره ورأس النقب إلى الغرب من العقبة شمال طابا ، وآخر شمال شرق القويرة على الطريق من معان للعقبة .

و لم يمر المتنبي برأس النقب المفضي إلى ميناء العقبة ، لأنه قصد " تربان " الواقع إلى الجنوب الغربي من معان

الأردنية ، حيث عين غرنـدل . وهـذا يؤكد أنه توجه من نخل إلى تربان عـبر نقاب الكونتيلا ، مجتازا جنوب جبـل أم علي ووادي العقبة (وهي غير العقبـة المدينـة المعروفـة) ووادي المهشـم ثم الكونتيلا التي تقع قريبا من ملتقـى وادي البيضا مع وادي الجرافي الـذي يتجـه جنوب "النقب" في جنوب فلسطين .

ونعتقد أن جبال شرق سيناء تمثـل امتداداً لجبال حسمى الواقعة إلى الشـرق من خليج العقبة ، وقد أتيح لنا أن نـزور السلسلتين ، ورأينا فيهما من التشابه مـا يجزم بما قدمنا ، لاسيما أننا نعرف مـن خبر الخسف وتكـون البحـر الأحمـر وخليجيه ما يؤكد أن المنطقتين كانتـا رتقا من قبل . ويبدو أن الماء قد غمرهمـا ردحا من الزمن ، فأنت تـرى الجبـال مستوية أعاليها شديدة الانحدار أسنادها . وتصدق هذه المواصفات ما ورد في بعض كتب البلدان عن حسمى من أنها آخـر مكان جلا عنه الطوفان (ياقوت) .

ومن وصل إلى النقاب فعليه أن يحدد وجهته أين يريد ، فإن كان يريد الجزيرة فعليه أن يتجه جنوبا صوب العقبة علـى طريق الحاج إلى وادي القرى الواقـع إلى الشمال من المدينة المنورة ، ومـن أراد الشام والعراق فعليه أن يتوجه شمـالا إلى تربان فمعان فوادي المياه من ديار كلـب ببادية الشام ، فالسماوة إلى العـراق ، أو يتجه من معان شمالا على درب الحـج الشامي . وهذا ما ألمح إليه المتنبي بقوله : ديوانه (٥٥٢) :

وأمسـت تخيرنا بالنقا

ب وادي الميـاه ووادي القرى

وكان عليه أن يقول " أو" وادي القرى، لمقتضى النحو . وقد أخطأ من قـال إن "النقاب" في هذا البيت موضـع قـرب المدينة، متوهما ذلك في ذكر وادي القرى (ياقوت واليازجي) ، لأن أبا الطيـب لم يتجه جنوبًا لأبعد من حواشي حسـمى الشمالية .

ويؤكد قول المتنبي " وأمسـت " أن عيره مرت بنخل آخر الليل ، فلم يـأت المساء من اليوم التالي حتى وصلـت إلى النقاب ، وهذا يؤكد أنه لم يمر بـالثمد لأن ذلك يعني أنه قطع في ذلك النـهار مسافة ٧٣ ميلا ، أي ما يعـادل ١٢٠ كيلو مترا تقريبا،إذ المسافة من نخل للثمد ٣٩ ميلا ، ومنه إلى الكونتيلا ٣٤ميـلا. والأقرب منه أن يكون قد اجتـاز وتـر

المثلث من نخل إلى الكونتيلا ، أي ما يقدر بتسعين كيلو مترا ، وهذه المسافة أيضا تعتبر أطول من مسيرة الراكب اثنتي عشرة ساعة ، لأنه لا يمكن أن يقطعها شَدّة واحدة ، مما يجعلنا نميل إلى أنه كان مساء ذلك اليوم قد أخذ في أول النقاب وأنه احتاز السلسلة الجبلية مع الليل ، ما لم يكن عرس في وادي الجرافي وأصبح مصوبا نحو وادي عربة إلى تربان على نحو ما نجده في الخبر التالي .

وذكر ياقوت موضعا باسم النقار ، وجاء في تعريفه أنه موضع في البادية بين التيه وحسمى ، له ذكر في خبر المتنبي لما هرب من مصر . قلت : بل هو النقاب محرفا . وكان دخوله النقاب آخر النهار إذ رأى رائدين لبني سليم على قلوصين ، فركب وطردهما حتى أخذهما ، فذكرا له أن أهلهما أرسلوهما رائدين ووعداه النزول ذلك اليوم بين يديه ، فاستبقاهما ورد عليهما القلوصين وسلاحهما ، وسارا معه حتى توسط بيوت بني سليم آخر الليل ، فضرب له ملاعب ابن أبي النجم خيمة بيضاء وذبح له وغدا فسار إلى النقيع .

النَّقيع

جاء في خبر المتنبي أنه اجتاز النقب إلى موضع يعرف باسم النقع (عزام ص ١٣٨) وذكره ياقوت باسم "البقع" وقال هو من ديار أبي بكر ، وأن المتنبي صدر عن ذلك الماء وصعد في النقب المعروف بتربان ... ، كما ذكر " البقع " وهو موضع بالشام من ديار كلب بن وبرة . أما البديعي (ص١٢٦) فذكر الموقع باسم النقيع ، وقد اعتمدناه لعلاقته بالماء ، وهو أصلا الماء ينقع أو يستنقع في موضعه ، وهناك أكثر من " نقيع " في جنوب فلسطين والأردن ، ومن ذلك نقيع غور الصافي في جنوب البحر الميت. ولا شك أن هذا الموضع يتوسط المسافة بين نقاب الكونتيلا في شرق سيناء وجبل تربان جنوب الأردن ، وفي وادي عربة .

ونزل المتنبي في هذا الموقع (النقيع) ببادية من معن وسنبس ، فذبح له عفيف المعنيّ غنما وأكرمه، وغدا من عنده وبين يديه لصان من جذام يدلانه في الطريق،فصعد في النقب المعروف بتِربان.

تِربان

وفيه قال المتنبي يخاطب ناقته :

وقلنا لها : أين أرض العراق

فقالت ، ونحن بتربانها

وقد أخطأ من ذهب إلى أن تربان هـذا يقع قريبا من المدينة ، وإن كان هناك موضع يعرف بهذا الاسم ، وهو بعيد من العراق أيضًا ، أما قوله على لسان ناقته : ها ، فالإشارة إلى نجابتها وجَلَدها وسرعتها.

ونعتقد أنه المقصود بقول حسان بن ثابت (ديوانه ص ٣٦٨) .

فلما علا تربان والهل ودقه

تداعى وألقى بركه وتهزما

وهو في مطر غزير ، والمعروف أن مطر تلك المنطقة من جنوب الأردن يكون غزيرا . ونعتقد أن عرب الترابيين من بادية سيناء والنقب وبادية الشام إنما سموا لعلاقة بهذا الجبل ونسبة إليه،وفيه غرندل المشهورة بعينها وقد فتحت أيام عمر بن الخطاب بعد اليرموك،وذكر القلقشندي أنها كانت عاصمة لمقاطعة الكرك وأطرافها ذات يوم(عن بلدانية فلسطين ص ١٩٥) .

وسار المتنبي بقية يومه وبعض ليلته ، ونزل ، فأصبح فدخل حسمى .

حِسْمَى

قال المتنبي في عيره (ديوانه ص ٥٥٢)

وهبت بحسمى هبوب الدبو

ر مستقبلات مهب الصبا

يريد أن ركبه استشعر هنا مزيدا من النشاط ، فانطلقوا في حسمى كريح الدبور الغربية مولين قبل المشرق من حيث تهب ريح الصبا . وقد دخلوا حسمى أواخر الشتاء إذ طابت له فأقام بها شهرا (عزام ١٣٩) ولا يكون ذلك إلا في أعقاب الشتاء حين تزدهي البادية بالأب ويطيب الهواء .

جاء في خبرها : أنها تقع في الطرف الشمالي من حرة هـل (الهجري ص ٢٣١) .

وقال البكري (٤٤٦/٢) موضع من أرض جذام ، ويقال : إن الماء بقي بحسمى بعد نضوب الماء في الطوفان ثمانين سنة ، ومنه بقية إلى اليوم ، فهو ماء حسمى ، ذكره ابن دريد وغيره .

وقال عنترة : (شرح ديوانه ٣٧،٣٨)

سيأتيكم عني – وإن كنت غائبا

دخان العلندى دون بيتي مذود

قصائد من قيل امرئ يحتديكم

وأنتم بحسمى فارتدوا وتقلدوا

يخاطب بني فزارة ، وقال ياقوت : هو أرض ببادية الشام بينها وبين وادي القرى ليلتان ، وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم ، وفي شرقيهم

شروری ، وبين وادي القرى والمدينة ست ليال . قال الراجز :

جاوزن رمل أيلة الدهاسا

وبطن حسمى بلدا هرماسا

(في الجمهرة ٣٨٦/٣ هرماسا) ، أي واسعا ، وأيلة قريبة من وادي القرى ، وحسمى أرض غليظة ، وماؤها كذلك لا خير فيه ، تنزلها جذام .

وقال ابن السكيت : حسمى لجذام ، جبال وأرض بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة ، وبين أرض بني عذرة من ظهر حرة نهيا - بهل - فذلك كله حسمى . قال كثير :

سيأتي أمير المؤمنين ودونه

جماهير حسمى قورها وحزونها

وفي أخبار المتنبي وحكاية مسيره من مصر إلى العراق ، قال : حسمى أرض طيبة ... كما تقدم .

ومن جبال حسمى جبل يعرف بأرم ، عظيم العلو ، وعن البكري (٤٤٨/٢) أن أسامة بن زيد سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : بشر ركيب السعادة بقطع من جهنم مثل قور حسمى . وقال ابن دريد (الجمهرة ٣٨٦/٣ ، ٤٠٩/٣) : حسمى تقدير فعلى ، وهو ماء معروف لكلب .

وقال الهمداني (ص ٢٧٢) : وأما حسمى فبين فزارة ، وجذام ، وهي من حدود جذام ، وبحسمى بئر أرم من مناهل العرب المعروفة . وقال الهجري (٢٣٥/١ ، ٢٣٦) غضيان والعربة ولعلع من مدافع حسمى جذام . ويصف فلبي حسمى (أرض الأنبياء ص ٢٢٥ وحمد الجاسر ٤٣٣/١-٤٣٧ وشمال الحجاز لموزل ص ١٣٣ - ١٣٩) بأنها عبارة عن مكتبة ومتحف للصور ، يعرض فيها أدب العرب الأقدمين وفنهم، وهي غنية بالآثار إذا ما قورنت بتيماء وما جاورها .

ونعتقد أن اشتقاق الكلمة إنما كان نحتا من المركب الإضافي حسي ماء ، ثم اعتراه حذف بعض الأحرف .

وقال المسعودي في خبر أرم (١٥/٢) إنه مسمى بإرم بن ثمود بن عامر بن سام بن نوح ، وجاء في المعجم الجغرافي للبلاد السعودية قول حمد الجاسر (٧٦/١) : ويعلق الأستاذ موزل على قول يلقوت : فوق جبل أرم . - أورم حاليا - يمكن أن تنبت الكروم وأشجار الصنوبر قائلاً :

ولكني لم أر شجرة واحدة من الصنوبر إلى الجنوب من عمان .

وتحصر بعض الأطالس موقع حسمى بشمال المملكة العربية السعودية ، ولكن الصحيح هو أن حسمى تمتد شمالا إلى بطن الغول ومعان ، وحسمى هي التي أرادها ابن بطوطة (١٢٩/١) بقوله : ثم ارتحلنا إلى معان .. ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال إن داخلها مفقود وخارجها مولود " . وتمتد غربا إلى سلسلة الجبال الواقعة شرقي سيناء إلى حدود صحراء التيه ، وتمتد شرقا إلى بُسَيطة والشُّبَيْكَة وأرض الصوان إلى الجنوب الغربي من وادي السرحان . وإلى الجوش والعلم اللذين مر بهما المتنبي بين بسيطة والجوف . أما جنوبًا فإلى تبوك متصلة بجبال الشفا وجبال الحجاز ، وهذا التحديد يوافق مذهب ابن السكيت السابق ذكره .

وقول الراجز: رمل أيلة الدهاسا ، يريد الناعم ، وهو جزء من حسمى ، وذلك ما جعلهم يقولون في خبرها " إنما تؤدي أثر النحلة " أي لنعومة رملها فإن أثر النحلة يظهر فيه ، وهذا ينطبق أيضا على رمل "نخل" في وسط هضبة التيه .

وقول الراجز : بلدا هرماسا ، أي واسعًا، وما ندري إن كان لقوله " هرماسا " علاقة ببئر ابن هرماس الواقع فيها على طريق الحاج الذي يصل السعودية بالأردن مارا بالحزم فبئر ابن هرماس فذات الحج فحالة عمار فالمدورة داخل الحدود الأردنية .

وقد أتيح لنا أن نجتاز هذه المواقع وأن ننزل فيها إذ كثيرًا ما كنا نتوجه بين السعودية والأردن برًّا ما بين عامي ١٩٦٢ و ١٩٧١م وبعد ذلك عام ١٩٨٤م . ويلاحظ المسافر فيها ، أنها كما ورد في وصفها ، أرض غليظة وملء قليل ، وفلوات خاوية لا يشذ فيها سوى جبل يرتفع هنا وقارة تنبو هناك ، أو كثيب منهال ، قال النابغة الذبياني (ياقوت):

فأصبح عاقلاً بجبال حسمى
دقاقُ التربِ محتزم القتام

وجاء به ياقوت شاهدًا على جبال حسمى وأن القتام لا يكاد يفارقها .قال: وقد اختلف الناس في تفسير هذا البيت ولم يعلموا ما أراد . وبكون مسيرة ثلاثة أيام في يومين يعرفها من رآها من حيث رآها لأنها لا مثيل لها في الدنيا .

قلت : نظـــرًا لنعومـــة رملـــها ، وجفافها وحرارتها فإن الغبار يخف فيـــها لأدنى ريح ، ولا يكاد القتـــام والهبـــاء يفارقها ، ومن أشرف عليها رأى القتـــام يخيم عليها لاتساعها وانبساطها نســبيًّا ، وقول الذبياني قريبٌ من قول الشاعر :

إذا غوزن هاجرة بفيفٍ

كأن ســراها قطــع الدخـــان

والسراب لا يكون كالدخان ، وإنما أراد ما خف من الهبـــاء ولعـــاب الشـــمس والأبخرة التي تنتشر في الأفق ، ونعتقد أن النابغة نزل حسمى أيام لجوئه للغساسـنة عقب وعيد المنذر .

أما قوله : لم يعلموا ما أراد ، فلعلـه راجعٌ إلى ضبط البيـــت ، ونعتقـد أن الصواب في ضبطه ضم الدقاق على أنـه اسم أصبح وصاحب الحـــال المقدمـة (عاقلاً) ومحتزم القتام حال أخرى ، أمّـــا خبرها فهو شبه الجملة (بجبال حســمى) ويكون المعنى : فأصبح دقاق الترب عاقلاً أي معقولاً لا يتحول من موضعه (اســم فاعل بمعنى المفعول) .

أما حرة نهيا ، بهل ، وهي مما ورد ذكــره في شعر المتنبي ، لكن في غير رحلته مــن مصر إلى الكوفة ، فهي تقع إلى الشـــمال من حسمى ، وكان بينه وبين أمير بـــني فزارة (حسان بن حكمة) مودة وصداقة، وكان هذا بحسمى ، ولا شك أن تلـــك الصداقة تعود إلى وقت سابق ، أو ربمـــا زار المتنبي تلك المنطقة من قبل حاجًا مـع سيف الدولة أو بدر بـــن عمّـــار ، أو صيادًا، فنشأت بينهما هـــذه العلاقـــة ، وظلت من بعيد حتى قصده في طريقه من مصر إلى الكوفة ، فتجدد بذلك العـــهد لولا بوقة عبيده .

ولكن أبا الطيب لم ينـــزل عنـــد صديقه هذا ، وإنما أراد أن يوهم القـوم ، فنـــزل عند جار لهم هو وردان بن ربيعة من طيـــئ ، ثم من معن ثم مـــن بـــني شبيب، فاستغوى عبيد المتنـــبي بامرأتـــه طمعًا في سيف مذهب كان معـــه ، وفي غيره من متاع المتنبي ، ويبـــدو أن وردان كان قد اطلع على سر المتنبي وأن كافورًا كان يطلبه ، ولذلك طمع في متاعـــه ، وهو الذي قال فيه يذمه (ديوانـــه ص ٥٥٧)

إن تك طيـــئ كانت لئاما

فألأمـــها ربيـــعة أو بنـــوه

وإن تك طيـــئ كانت كرامًا

فـــوردان لغـــيرهم أبـــوه

مررنا منه في حسمى بعبد

يمج اللؤم منخره وفوه

أشذ بعرسه عني عبيدي

فأتلفهم ومالي أتلفوه

وكانت حسمى آنذاك قد طابت مع ابتداء الربيع ، وأقام بها المتنبي شهرًا، غير أنه بدأ يتوجس من ملاحقة كافور ، ووجد من سوء معاملة القوم وانقلاب بعض عبيده عليه ما جعله ينفذ رسولاً إلى فليتة بن محمد من بني فزارة ثم من بني مازن ثم من ولد هرم بن قطبة بن سيّار ليدله على الطريق ، ويبدو أنه استجار بهم ليحموه مما بات يحيق به ، ويتضح ذلك من الأبيات التي وردت في رحلته على لسان أحد الأعراب : (عزام ١٣٩)

إذا ما كنت مغتربًا فجاور

بني هرم بن قطبة أو دثارًا

إذا جاورت أدني مازني

فقد ألزمت أقصاها الجوارا

وفاجأ المتنبي عبيده بالرحلة ، لأنه لم يعد يثق في كثير منهم ، ويبدو أنه علم أن خيل كافور تلاحقه ، وكان يوهمهم أنه سيعبر طريق البياض ، وبالفعل فقد سار فيها مسافة ثم عدل .

البَياض

جاء في خبر أبي الطيب " فأخذ طريق البياض ، فلما صار برأس الصوان أنفذ فليتة بن محمد إلى عرب بين يديه وتوقف " .

قلت : هناك في الجنوب الشرقي من الأردن منطقة تعرف بأرض الصوان ، وتمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ما بين باير وجبل الأثريات والحدود السعودية الممتدة بمحاذاة وادي السرحان من الشمال إلى الجنوب .

وهناك عقبة الصوان إلى الجنوب الغربي من معان ، ولعل المقصود بها النقب ، نقب أشتار حيث الموقع المعروف برأس النقب ، وهي تفضي إلى درب الحج الشامي ، وتليها جنوبًا حسمى ، وبسيطة إلى الجنوب الشرقي ، وكذلك الشبيكة إلى الجنوب من أرض الصوان ، وهي التي قال فيها ابن بطوطة (١٢٩/١):" ثم ارتحلنا إلى معان ، وهو آخر بلاد الشام ، ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال : داخلها مفقود وخارجها مولود " . وقد سلكها المتنبي من الجنوب إلى الشمال .

وجاء في بلدان ياقوت : أودات كلب : هي أودية تنسل من الملحاء ،

وهي رابية مستطيلة ما شرَّق منها الأودات، وما غرَّب فهو البياض ". قال الشيخ حمد الجاسر (شمال المملكة ٢٣٦/١): وهذا البياض الذي يقع غرب الملحاء صحراء واسعة تنعدم فيها الجبال، ولكنها تحاط بالآكام من كل جهاتها ، وتمتد من الجنوب من المرتفعات الواقعة شمال واحة الجوف حتى ملتقى الحدود الشمالية (السعودية) بحدود الأردن، ويحف بها من الشرق الأرض المرتفعة التي كانت قديمًا تعرف بالملحاء، ومن الغرب حرة الرحا التي تمتد منها آكام ومرتفعات حتى واحة الجوف . ويحتمل أن تكون هذه المنطقة هي ما يعرف ببياض قرقرة الذي حدد الهمداني (ص٢٧٢) موقعه بأنه يقع بين تيماء وحوران.

وقال الشيخ حمد الجاسر (٢٣٧/١): وأرى هذا الموضع جزءا من البياض الواقع غرب الملحاء (السابق ذكرها) . وهناك وادٍ في حسمى ذكره الشيخ حمد (٣٧/١) باسم الأبيض ، وقال إنه يقع في أعلى وادي عفال .

قلت : هناك منطقة إلى الشمال الشرقي من غرندل (تربان) قبل معان تعرف برأس مقطع الرحايا ، فهل يقع على طرف حرة الرحا الغربي ؟ وهل سميت به لأنها تقطع منها الأرحاء ؟ أو لأنها تشبه في استدارتها الرحا؟

ولم يمعن المتنبي قدمًا في طريق البياض التي يبدو أنها تقود إلى شمال وادي السرحان والأزرق ، لأنه خشي أن تكون عيون كافور قد رصدت عليه الطريق ، فقد جاء في خبره وقد صار برأس الصوان (عزام ١٤٠): أن بعض عبيده قد انقلبوا عليه ، وأمر بضرب أحدهم ، فأدماه ، وكان أشد من معه وأفرسهم ، فولى متمردًا ، ولما أصبح أتبعه المتنبي عليا الخفاجي وعلوان المازني، ووافق ذلك اليوم عودة فليته ، وأخبرهم أنه رأى سرب الخيل عابرة من علم قريب منهم (خيل رجال كافور) وأشار إليه، ولذلك فقد عقد العزم على تغيير وجهته ، وقرر التوجه شرقًا على خط عرض ٣٠° شمالاً تقريبًا ، ومال يمينًا طالبًا من فليتة بن محمد أن يخرق بهم إلى دومة الجندل (الجوف) ، وأسرع إلى الكِفاف.

الكِفاف وكَبْد الوهاد

قال ياقوت: موضع قرب وادي القرى، وذكر قول المتنبي (ديوانه ٥٥٣) :

روامي الكفاف وكبد الوهاد

وجار البويرة وادي الغضا

قلت: يريد أن إبله وخيله عبرت تلك الأماكن في طريقها إلى الجوف ، ولكن قول ياقوت إن الكفاف قرب وادي القرى مستبعد ، والذي نراه أنه على مقربة من "كبد" الذي يقع إلى الجنوب الشرقي من الشبيكة قريبا من بسيطة التي تمتد عبر الحدود السعودية الأردنية . وما يزال هذا الموقع يعرف باسمه (الكبد) ولعله هو المقصود بكبد الوهاد ، سقط المضاف إليه وأقيم المضاف مقام المركب، وهذا باب تتسع له العربية ، والوهاد جمع وهدة، وهي الغائط الغائر قليلا من الأرض ، والطبيعة الجغرافية لتلك المنطقة تؤيد ذلك .

وقد ذكر ياقوت كبد الوهاد وقال : موضع في سماوة كلب . ولا نراه ، لبعد ما بين السماوة وهذه المرحلة من مراحل طريق المتنبي . ونعتقد أن أبا الطيب تابع مسيره شرقًا في بسيطة ، إلى البُوَيْرَة .

البُوَيْرَة

وهي تصغير البئر ، ولعل طريقه كان في شمال بسيطة ، قريبًا من أرض الصوان ومنطقة وادي العناب على الحدود السعودية الأردنية، وجدير بالذكر أن آبارًا كثيرة تنتشر في المنطقة وإلى الشمال منها . قال ياقوت : والبويرة موقع قرب وادي القرى ، بينه وبين البسيطة. وذكر بيت المتنبي السابق .

قلت:بل هو في بسيطة نفسها،بل في شمالها وفي واد منها يعرف باسم وادي الغضا .

وادي الغضا

وهو جار البويرة في قول المتنبي، ولم يذكره ياقوت ، والغضا شجر الرمل كالأراك ، وقد أضيف الوادي إلى ما ينبت فيه من الشجر ، وهو كثير في تلك المنطقة وإلى الشمال والشرق منها ، جاء في الرحلة التنوخية (ص٤٦)، " ويطبخ الأمير قهوته على نار الغضا التي تضارع بحرارتها ومدة دوامها فحم السنديان في ديارنا وتفوقه بعدم دخانها ورائحتها " يريد أمير دومة الجندل (الجوف) .

الجَوش والعَلَم

وهما جبلان في بسيطة مرّ بهما المتنبي، ولم يذكرهما في قصيدته المقصورة التي نظمها بعد وصوله إلى الكوفة ، والتي بسط فيها خبر رحلته من مصر ، والمواضع التي مر بها ، ولكنه ذكرهما في

ميميته التي قالها بالكوفة يرثي أبا شجاع فاتكًا : (ديوانه ص ٥٣٧)

طردت من مصر أيديها بأرجلها

حتى مرقن بنا من جوش والعلم

تبري لهن نعام الدو مسرجة

تعارض الجدل المرخاة باللجم

قال ياقوت في الجوش : جبل في بلاد بلقين بن جسر بين أذرعات (درعة) والبادية ، وقال : هما من حسمى على أربع ، أي أربع ليال . وعن السكري أن جوشًا شمال الجناب .

قلت : تحديد ياقوت للموقع غير دقيق، أما موقعهما من حسمى فصحيح ، وهما في اتجاه الشرق منها . واجتهد الشيخ حمد الجاسر في تحديد موقعهما مرجحًا أن الجوش هو ما يعرف اليوم باسم الطبيق قرب الحدود الأردنية ، ولا نراه ، لبعدها عن سمته إلى الجوف . أما قول السكري فيحتمل أن يكون ، إذ أن ثمة موضعًا إلى الغرب من الجوف على مسيرة يوم يعرف بوادي الجناب إلى الغرب من الجراوي الذي مرَّ به المتنبي .

وجاء في ياقوت أيضًا (العلم): علم السعد ودجوج جبلان من دومة على يوم، وهما جبلان منيفان ، كل واحد منهما يتصل بالآخر ودجوج : رمل مسيرة يومين يتصل إلى دون تيماء بيوم يخرج منه إلى الصحراء وهو الذي عناه المتنبي بقوله (السابق) وهما جبلان بينهما وبين حسمى أربع ليال .

قلت : وفي بسيطة موضع يعرف بقبعة العلم ، ولعله العلم المذكور ، وسيأتي ذكره فيما يلي ، وذكر المتنبي النعام في البيت الثاني يؤكد أن الجبلين في بسيطة لأنه ذكرها موطنا للنعام والمها على نحو ما سيأتي .

بُسَيْطَة

قال البديعي: إنها قرب الكوفة ، قلت : لا وجه لذلك ، ونراه التبس عليه الأمر ، فخلط بينها وبين البسيطة التي تقع بين مكة المكرمة والكوفة . وقال ابن بري (اللسان : بسط) : بسيطة مصغرًا اسم موضع ربما سلكه الحجاج إلى بيت الله الحرام ، ولا يدخله الألف واللام .

وفي التاج (بسط): بسيطة ، بالضم ، فلاة بين أرض لكلب وبلقين ، وهي بقفا عفراء وأعفر . وقال ياقوت : هو بقفا عفر أو أعفر. وقيل : بسيطة على طريق طيئ إلى الشام. وقال : أرض في البادية بين الشام والعراق ، حدها من

جهة الشام ماء يقال له "أمرّ"، ومن جهة القبلة موضع يقال له قبعة العلم ، وهي أرض مستوية فيها حصى منقوش أحسن ما يكون ، وليس بها ماء ولا مرعى ، أبعد أرض الله من السكان ، سلكها أبو الطيب المتنبي لمّا هرب من مصر إلى العراق ، فلمّا توسطها قال بعض عبيده، وقد رأى ثوراً وحشيًّا :هذه منارة الجامع، وقال آخر منهم وقد رأى نعامة: وهذه نخلة ، فضحكوا، فقال المتنبي : (ديوانه ٥٥٨ ، ٥٥٩)

بسيطة مهلاً سقيت القطارا
تركت عيون عبيدي حيارا
فظنوا النعام عليك النخيل
وظنوا الصوار عليك المنارا
فأمسك صحبي بأكوارهم
وقد قصد الضحك فيهم وجارا

وقوله : أبعد أرض الله من السكان يجعلها موطنًا للنعام والبقر الوحشي ، وقوله : ليس بها ماء ولا مرعى يدعم كون البويرة السابق ذكرها فيها ، للتصغير ، وإنما صغرت بسيطة للتعظيم والتهويل كالخويخية والدويهية ، لانبساطها وهو حقيقة ، ونرى أنها المقصودة بقول الراجز (اللسان بسط) :

إنك يا بسيطة التي التي
أنذرنيك في الطريق إخوتي

وقد رواه ابن سيده (المحكم ، بسط) :

ما أنت يا بسيط التي
أنذرنيك في المقيل صحبتي

لاقترانها في الروايتين بالإنذار ، لأنها مفازة تيهاء بجهل . وهي لاستوائها تشبه الرداء على نحو ما قال المتنبي في إبله وخيله (ديوانه ٥٥٣) :

وجابت بسيطة جوب الردا
ء بين النعام وبين المها

وجاء في خبر أمرّ (ياقوت - أمر) ، هو أفعل من المرارة ، موضع في برية الشام من جهة الحجاز على طرف بسيطة من جهة الشمال ، وعنده قبر الأمير أبي البقر الطائي . وأنشد ابن الأعرابي :

يقول : أرى أهل المدينة أتهموا
بها ، ثم أكروها الرجال فأشأموا
فصبحن من أعلى أمرَّ ركية
جلينا ، وصلع القوم لم يتعمموا

قلت: وأمرّ في روضة الشبيكة ، شمال بسيطة ، قال ياقوت في حدها : من نواحي الجوف ، بين قراقر وأمرّ .

ماء الجُرَاويّ

وخرج المتنبي من بسيطة وتوجه شرقا إلى ماء الجراوي الواقع إلى الغرب

من الجوف (دومة الجندل) ، وقد ذكره ياقوت باسم الجروي ، بيما جاء شاهده بلفظ الجراوي ، وهو قول أبي الطيب (ديوانه ٥٥٣) :

إلى عقدة الجوف حتى شفت

بماء الجراوي بعض الصدى

وقال : هي مياه في بلاد بلقين بن جسر، وهي قلب على طريق طيىء إلى الشام (حمد الجاسر ٣١٥/١) .

وهو قبل عقدة الجوف (دومة) ، ولكنه قدمها في الذكر وحسب ، وقد ورد ماء الجراوي وتزود منه . قال التنوفي فيه ص (٣٣): " وما زلنا نضرب في البيد غورًا ونجدا ، حتى جزنا بموضع يقال له النبك ... وفي ثاني يوم أوردنا رواحلنا قليب الجراوي بعد أن لقينا من لفحات السموم في الفلاة ما هو لعمري أحرّ من دمع المقل ، فأنخنا لنروى ، فوجدنا الماء لقلة المتح ، كما يعلله البدو ، متغير اللون والطعم والرائحة ، وفيه مع ذلك خلق من الدود كثير ، فهرول صاحبي لينقع غلته من علبة الماء ، فصار يتجرعه ولا يكاد يسيغه ... والجراوي (ص٣٤) هذا على بعد نحو مئة كيلو متر من دومة الجندل ... ومن الغريب أن ماء هذا القليب الآسن الوخيم كان مهجيًّا مقليًّا من القديم ، وذكر قول ياقوت وقول بعض الأعراب :

ألا لا أرى ماء الجراويّ شافيا

صداي ولو روّى غليل الركائب

فيا لهف نفسي كلما التحت لوحة

على شربة من ماء أحوض ناضب

قلت : عجيب أن التنوخي لم يذكر خبر أبي الطيب في هذا الموضع ، لاسيما أن بينهما من التشابه ما بينهما ، فكلاهما اتخذ من هذه البادية ملاذا من خصمه .

عُقْدَةُ الجَوْف

أي قصبة الجوف ، والجوف نفسه ، وهي دومة الجندل ، وقد ذكرها ياقوت مع مواقع أخرى تحمل اسم الجوف، وحدها بأنها موضع في سماوة كلب بين الشام والعراق . وذكر قول أبي الطيب السابق . ويذكر اسم الجوف على المنطقة التي تتبعها وهي جملة القريات : دُومة وسكاكة والقارة وطبرجل . وقد أخطأ محرر دائرة المعارف البستانية في عده الجوف مختلفا عن دومة الجندل . جاء في مراصد الاطلاع (دومة) :

دومة الجندل بالضم ، ويفتح ، وأنكر ابن دريد (جمهرة اللغة ٣٠١/٢ وتابعه

صاحب الروض المعطار ص ٣٩٠) الفتح ، وعده من أغلاط المحدثين . وجاء في حديث الواقدي دوماء الجندل ، قيل : هي من أعمال المدينة حصن على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة . قيل: هي في غائط من الأرض خمسة فراسخ ، ومن قبل مغربه عين تثج ، فتسقي ما به من النخل والزروع ، وحصنها مارد ، وسميت دومة الجندل لأنها مبنية به (بالجندل : الحجر) وهي قرب جبلي طيئ ، ودومة من القريات من وادي القرى ، والقريات دومة وسكاكة وذو القارة ، وعلى دومة سور يتحصن به ، وفي داخل السور حصن منيع يقال له مارد ، وهو حصن أكيدر ابن عبد الملك ، صالحه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمّنه ، وكان نصرانيا (انظر ياقوت دومة ، وحمد الجاسر ٥٣٧/٢ - ٥٣٩) ، وذكر التنوخي (ص ٤١) أنها كانت من مغارس الزيتون قديمًا ، وهذا يؤيد ما سبق أن ذكرناه في " نخل " مركز تيه سيناء ، من أنها سميت به لعلاقة بالنخيل وإن لم تعرف به في الآونة المتأخرة ، وقد أورد التنوخي وصفا مفصلا لهذه البلدة وناحيتها وذلك في رحلته التي جمعناها ونشرناها مع شيء من الحواشي والتحقيقات .

صُوَر

صور موضع خرج إليه المتنبي من الجوف، وهو استنادا لمقتضى الموقع من الجوف والكوفة ، يقع إلى الشمال الشرقي من الجوف ، بعد سكاكة ؛ وهنا نذكّر بأن الكوفة تقع على خط عرض ٣٢ درجة شمالا في حين أن الجوف تقع على خط عرض ٣٠ درجة شمالا تقريبا . وهذا يعني أن ركبه سار في الاتجاه الشمالي الشرقي بزاوية مقدارها ٤٥ درجة تقريبا .

ونعتقد أن صور جبل ، بدليل قول المتنبي (ديوانه ص ٥٥٣) :

ولاح لها صُوَرٌ والصباح
ولاح الشَّغور لها والضحى

لأن قوله "لاح" يعني "بدا" وهذان الفعلان أكثر ما يستخدمان مع المرتفعات. وقوله " والصباح " يعني مع الصباح ، أي آخر الليل ، وأول النهار. ونعتقد أنه خرج من الجوف مساء وأصبح في ذلك المكان . وجدير بالذكر أن المصورات الجغرافية تشير إلى موقع في

ذلك المكان باسم " صوير " ولعله هو المقصود ، إذ أن البدو كثيرا ما يُصَغِّرون الأسماء المتداولة بكثرة .

وذكر ياقوت "صَوَرَى" وقال عن الواحدي ، عن الجرمي : هو ماء قرب المدينة ، وذكر بيت المتنبي السابق بصورى ، ولا نراه ، وأورد في (صُوَر) قول الأخطل يذكر عمير بن الجناب:

أمست إلى جانب الحشاك جيفته
ورأسه دونه اليحموم والصُّوَر

بضم الصاد . قلت لعله الموضع المقصود في بيت المتنبي .

الشُّغُور

وظاهر قول المتنبي أنه جبل يقع إلى الشمال الشرقي من صور ، على مسافة عشرين كيلو مترا تقريبا ، بدليل قوله في البيت السابق :

ولاح الشغور لها والضحى

أي بدا جبل الشغور مع الضحى قال ياقوت : هو موضع في بادية كلب ، معروف، بالسماوة ، قرب العراق . تقول العرب : إذا وردت شغورا فقد أعرقت .

وهذا الوصف ينطبق على ذلك المنزل من المنازل التي ذكرها المتنبي في قصيدته التي ترجم بها رحلته من مصر للكوفة ، نظرًا لقربه من الحدود العراقية السعودية .

الجُمَيْعِيّ

قال المتنبي (٥٥٣) :

ومسّى الجميعيّ دئِداؤها
وغادى الأضارع ثم الدنا

وهذا يعني أن الجميعي إلى الشمال الشرقي من الشغور ، على مسافة تقارب أربعين كيلو مترا ، ويبدو أن المتنبي نزل فيه ، ثم سرى من آخر الليل . وتقديرنا للمسافة استنادا إلى قوله : ولاح الشغور لها والضحى ، وقوله : ومسّى الجميعي ... أن بينهما مسيرة نحو من ثماني ساعات.

وذكر ياقوت هذا الموضع ، وضبطه بضم أوله ، وبألف في آخره " الجُميعَى " والصواب ما أثبتنا ، واكتفى بقوله : موضع . وفي البيت السابق ذكر لموقع آخر هو :

الأضارع

وظاهر قول المتنبي يشير إلى أنه نزل بعض ليلته على الجميعي ، وسرى من آخر الليل فأتى الأضارع غدوة .

وجدير بالذكر أن ياقوت الحموي خص الأضرع بالذكر ، ولكنه ذكر الأضارع

عرضا في حديثه عن الدنا التالي ، إذ قال: من منازل الحاج . قلت: يريد حاج العراق .

الدَّنا

وهو ماء يقع إلى الشمال الشرقي من الأضارع السابق ، غير بعيد منه ، قال ياقوت:موضع بالبادية،وقيل: في ديار بني تميم بين البصرة واليمامة. قال النابغة:

أمن ظلامة الدمن الخوالي
بمرفض الحبيّ إلى وعال
فأمواه الدنا فعويرضات
دوارس بعد إحياء جلال

وقال : وذكر المتنبي بما يدل على أنه قرب الكوفة .

البرِّيت

جاء في خبر رحلته أنه " اجتاز ببني جعفر ابن كلاب وهم بالبريت والأضارع، فبات فيهم " (عزام ١٤٢).

قلت : لعل الأماكن السابقة : الجميعي ، والأضارع ، والبريت والدنا ، متقاربة ، وكانت من مازل بني جعفر . وقد سبق أن ذكرنا أنه بات في الجميعي . ويقع البريت إلى الشمال الشرقي من خط الحدود السعودية العراقية، داخل العراق، ويرتفع نحوا من ٣٤٩ مترا عن سطح البحر، لدى صدر وادي عرعر الذي يتجه إلى الجنوب الغربي .

قال ياقوت : البريت مكان بالبادية كثير الرمل . وقال شمر : يقال الخريت والبريت أرضان بناحية البصرة . وقال نصر : البريت من مياه كلب بالشام .

قلت : هذه الأوصاف توافق موقع البريت على المصورات الجغرافية ... ويبدو أنه انتقل بعدها فمر باللصاف ثم سلك شعيب أبو خمسات المفضي إلى الكوفة .

أعْكُش

قال ياقوت: أعكش موضع قرب الكوفة. وذكر بيت المتنبي (٥٥٣) :

فيا لك ليلا على أعكش
أحم البلاد خفي الصوى

قلت : لاشك أن موقعه بين البريت والكوفة ، وأن اللصاف وشعيب أبو خمسات تقع فيه ، وكذلك الرهيمة التي سيأتي ذكرها .

الرُّهَيمَة

قال ياقوت : ضيعة قرب الكوفة، وقال السكوني : هي عين بعد خفية إذا أردت الشام من الكوفة ، بينها وبين خفية ثلاثة أميال ، وبعدها القُطيّفة

وذكرها المتنبي ، وأورد البيت السابق والذي يليه :

وردنا الرهيمة في جوزه
وباقيه أكثر مما مضى

فزعم قوم أن المتنبي أخطأ في قوله : جوزه ، ثم قوله " وباقيه أكثر مما مضى " لأن الجوز وسط الشيء ، ولتصحيحه تأويل،وهو أن يكون أعكش اسم صحراء والرهيمة عين في وسطه،فتكون الهاء في جوزه راجعه إلى أعكش ، فيصح المعنى .

قلت : وهذا أعلى ، ونعتقد أن أعكش هو شعيب أبو خمسات الواقع إلى الجنوب الغربي من الكوفة ، وما نرى عكشته إلا لتشعبه وتعرجه ، فكأنه يرسم بذلك خمسة وراء خمسة 555 . ولذلك استوجب من المتنبي التعجب بقوله : يا لك ليلا على أعكش .

ولكن أبا الطيب ظفر آخر الأمر بما أراد، نجا من الهلكة في البيد المتناصية ، وتحرر من قيد كافور ، وبلغ الكوفة ، حيث بدأ رحلة جديدة .. ولكنها لم تطل .

ملحق

بما لم يرد من الأشعار التي ذكر فيها المواقع التي اجتازها في رحلته

قال وهو بالكوفة يرثي فاتكا ، أبا شجاع ، وكان قد توفي بمصر سنة ٣٥٠ وذكر في بعض الأبيات مسيره من مصر: (ديوانه ٥٣٦٠) .

حتام نسارى النجم في الظلم
وما سراه على خف ولاقدم

يريد خروجه من مصر،إذ كان يسري ليلا،كالنجم، لكنه تعب،والنجم لا يتعب.

ولا يحس بأجفان يحس بها
فقد الرقاد غريب بات لم ينم

تسوّد الشمس منا بيض أوجهنا
ولا تسوّد بيض العذر واللمم

....
....

ونترك الماء لا ينفك من سفر
ما سار في الغيم منه سار في الأدم

وفي هذا البيت إشارة واضحة إلى أنه خروج من مصر شتاء .

لا أبغض العيس لكني وقيت بها
قلبي من الحزن أو جسمي من السقم

طردت من مصر أيديها بأرجلها
حتى مرقن بنا من جوش والعلم

تبري لهن نعام الدو مسرجة
تعارض الجُدلَ المُرخاة باللُّجم

في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا
بما لقين رضى الأيسار بالزُّلَم

....
....

تخدي الركاب بنا بيضا مشافرها
خُضرا فراسنُها في الرُّغل واليَنَم

معكومة بسياط القوم نضربها

عن منبت العشب نبغي منبت الكرم

وفي هذين البيتين ما يؤكد سرعته في السير، والشد على الإبل، وأن الوقت كان شتاء، والأرض قد أعشبت، والإبل تطأ العشب، ولا تناهله أفواهها لشدة العدو، وقال يوما وكان خرج من مجلس كافور: (٥٤٦)

ما من يرى أنك في وعده

كمن يرى أنك في حبسه

لا ينجز الميعاد في يومه

ولا يعي ما قال في أمسه

يريد أنه مرهون بمواعيد كافور، ولكن كافورا يعامله معاملة المحبوس عنده، لأنه لا يفيه ما وعده، ولا يطلق سبيله فيرتحل، وقال ليلة خروجه من مصر، ليلة عيد الأضحى ١٠/٩ ذي الحجة سنة ٣٥٠هـ:

عيد بأية حال عدت يا عيد

بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم

فليت دونك بيدا دونها بيد

....

....

إني نزلت بكذابين ضيفهم

عن القرى وعن الترحال محدود

.. . .

....

ويلمها حطة ويلمّ قابلها

لمثلها خُلق المهْرية القُود

يريد أنه عقد العزم على الفرار تلك الليلة. وقال عند وروده إلى الكوفة يصف منازل طريقه ويهجو كافورا. في شهر ربيع الأول سنة ٣٥١هـ. (ديوانه ص ٥٥١ – ٥٥٥)

ألا كل ماشية الخيزلى

فدى كل ماشية الهيذبي

وكل نجاة بجاوية

خنوف وما بي حسن المشي

ولكنهن حبال الحياة

وكيد العداة وميط الأذى

ضربت بها التيه ضربَ القما

ر إما لهذا وإما لذا

فمرت بنخل وفي ....

....

إلى آخر الأبيات التي سبق ذكرها في المواقع.

يحيى جبر

عضو المجمع الفلسطيني

المصادر والمراجع

١- البديعي ، يوسف .
الصبح المنبي عن حيثية المتنبي . تحقيق مصطفى السقا وزميليه .
طبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣م .

٢- البغدادي ، عبد القادر
خزانة الأدب .

٣- البكري ، أبو عبيد
معجم ما استعجم.مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة سنة ١٩٤٧م.

٤- ابن بطوطة ، رحلته ، تحقيق علي المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة . بيروت ١٩٨٥م (جزآن) .

٥- الجاسر ، حمد ، معجم البلاد السعودية . منشورات دار اليمامة بالرياض ، مطبعة نهضة مصر . القاهرة .

٦- جبر ، يحيى عبد الرؤوف :
- الرحلة التنوخية ، رحلة عز الدين التنوخي من الزرقاء إلى القريات . ط دار الشعب عمان ١٩٨٥م .
- معجم البلدان الأردنية والفلسطينية ، منشورات دائرة التربية والتعليم العالي بمنظمة التحرير الفلسطينية ، عمان ١٩٩١م .

٧- حافظ، أبو الحجاج. سيناء ،نشرة الإنجلو المصرية.منشورات وزارة الثقافة د.ت.

٨- حسان بن ثابت ، ديوانه ، طبعة القاهرة . د.ت.

٩- حمدان ، جمال . سيناء . سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ١٩٩٣م .

١٠- الحموي، ياقوت . معجم البلدان .. طبعات مختلفة (الأوربية ودار صادر).

١١- زكي،عبد الرحمن. سيناء أرض المعارك . دار النيل للطباعة . القاهرة ١٩٥٧م.

١٢- عزام ، عبد الوهاب : ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام . نشرة دار المعارف. الطبعة الثالثة . القاهرة ١٩٦٨م .

١٣- مباشر ، عبده وزميله ، سيناء الموقع والتاريخ. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م.

١٤- المسعودي ، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهـر.ط.دار الأندلس. بيروت ١٩٦٥م .

١٥- المقريزي ، تقي الدين أبو العباس : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية . منشورات مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة .د.ت.

١٦- الهروي ، علي ، الإشارات على معرفة الزيارات . دمشق ١٩٥٣م.

١٧- اليازجي ، الشيخ ناصيف . العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب . بيروت ١٨٨٧م.

في " الرحيل "

قصيدة للأستاذ الدكتور إبراهيم العامرائي

أأنا "الأجـيرُ" وكيـفَ أدفَـعُ ما يُقَـالُ؟ أنا الأجـيرُا
أفَأنـتَ لا تُعـطي كمـا تُعْـطَى ؟ لقد سَـاءَ المصِـيرُ
أتقولُها : " لابدَّ من صَنْعا "،وَكَيْفَ ؟ فَقَدْ تَفَاقَمَتِ الشُّرُور
أم تَنـثَني " لابدَّ عن صَنْعا " وأين؟ وقد يَطُولُ بكَ المسِـيرُ
دَعْـها ، فلَسْـتَ بما يَكُونُ ، وما يَجِـيءُ ، وما يَصِـيرُ
دَعْـها لمُحتَـرِفِـينَ خَـفَّ بسَـعْيـهِم نَفَـسٌ بَهِـيرُ
دَعْـها لآخَـرَ بَـاتَ يُصْبِـيه الخَيـالُ بما يُشِـيرُ
وتَـوَخَّ أُخْـرَى رَاحَ يَهْـوَاهـا أخُـو جِـدٍّ جَـديرُ
وتَـوَخَّ " غـانيـةً " بأمجـادٍ تُـعاني مـا يَـدُورُ
فيما سَبَـاها " عصـرنا الخاوي " وقد باهَـتْ عُصُـورُ
أفَتِـلكَ صنـعاءُ التي لا " هـذه " عنـها تُنـيرُ
هي أرض تـلك " الجَنَّـتَـيْنِ " ذَوَتْ بها ليـلاً زهـورُ
فمَشَـتْ بها نُـوَبٌ فلا " اليَمَن السعيد " ولا " النَّضيرُ "
وَبَـدَا ، كَمَـا تَبْـدُو الطُّـغاةُ ، بِليً وخَـفَّ به نَفِـيرُ
فَدَجَـتْ بها هُـوجٌ كما التَـهَـمَ الوَرِيـفَ بها سَـعيرُ
أمضي فَتِـلْكَ شَـوَاهِـدُ الدُّنْـيا بما ضَـاعَتْ قُصُـورُ
أيْنَ الحَضَارَةُ والأَصَالةُ قَـدْ أشَـادَ بِـها بَشِـيرُ
ما أمْسِ من " بِلْقِيـسَ " يَدْفَعُـنا مِـنَ الماضِـي نُشُـورُ
" أبَمَـأْرِبٍ " كُنَّـا وكَـانَ ، وصـاحَ من شَـرٍّ نَـذِيرُ
ما أنتَ " ذو كَـرِبٍ " ولا " ذو أصْـبَحٍ " فمتى تمُـورُ؟
ومَـتَى سـتَـأْثَرُ، بل سـيأتيك الـذي فيـه تـثورُ ؟
لِلِقَـاءِ أيَّـامٍ طُوِيـنَ ، وهـل تَهَـضَّـمَكَ الشُّـعُورُ ؟

* * *

دَعْـــها ، فأنْــتَ وإن سَــعَيتَ " غريبُ أوطــان "أحيرُ"
أفَـــأنْتَ تَمـــواها ؟ وتُـــدرِكُ دونَ ما تَهْـــوَى جُسُـــورُ ؟
لا أنْـــتَ تَـــقدِرُ أن تَجــوزَ صعـــابَها، فـــمَتى العُبـــورُ؟
دَعْـــها وخـــلِّ الأكـــرَمـــينَ ينـــالُهـــم منـــك العَبـــيرُ
أنا إنْ تَحَـــمَّـــلْتُ الســـنينَ وعِبْـــئَها ، فأنـــا الشـــكورُ
تِسْـعًا سُـقيتُ بها العَــذابَ ، كــأنّه العَــذْبُ النَّــميرُ
وحَمَـــلْـــتُها حَمْـــلَ الكُـــفَاةِ بمـــا يُطيـــقُ به الجَســـورُ
أبْشِـــرْ ، فقـــد يَـــلِدُ الصبـــاحَ سَـــنًا يُشِـــعُّ به سُـــفورُ
ويكـــونُ من شَـــمْسٍ تَشُـــقُّ الليـــلَ في غَبَـــشٍ بُـــكورُ
لا أجْـــحَدُ النُّـــعْمَى ، وهل يَسْـــعَى لِـــذا إلاّ الكَـــفورُ؟
إنّي لَيُـــولِمني " أخٌ" صـــافَـــيْـــتُه ، وأنا السَّـــحـــيرُ (١)
أمحَـــضْـــتُـــهُ ، وأنـــا الغَـــنيُّ بمـــا أتَـــاني لا الفـــقيرُ
ما كان حـــقًّا أن يُرَى مِـــنْ بَعْـــضِ مَنْ هُرِعُـــوا ضَريرُ
أيَكـــونُ لي ممّا كَـــرُمتُ به الضَـــراوةُ والسَّـــجورُ ؟ (٢)

* * *

دَعْـــها ، وعَـــدٌّ إلى العـــراق فمـــا أراكَ بـــه تَـــبُـــورُ
إنْ باتَ منـــكَ هَـــوَى العراق يصـــونُه قَفَصٌ كَســـيرُ
ناجَـــيْـــتَه أنـــتَ البعـــيدُ وفي البعـــادِ هـــوى عَـــذيرُ
ورَعَـــيْـــتَه أنتَ الأخـــيذ، وكَمْ يَـــعِي الضَّـــيمَ الأســـيرُ
أسْـــمَعْتَ من آلامِـــهِ مَا لَيْـــسَ يُـــدْرِكُـــهُ " سَـــفيرُ "
وبَسَـــــطْتَ من أشْـــجَانـــهِ مَـــا يَسْـــتَجِرُّ وما يَضـــيرُ
ضَـــاقَتْ بِـــنا أرضٌ وما ضـــاقت بَهَيْـــبَـــتِـــنا أمـــورُ
فمَن الوفيُّ ، من الصديقُ ، من السَّـــخيُّ ، من السَّـــميرُ ؟

* * *

إنّـــــي لأذكر أمـــسِ في الأردنِّ لي ذِكـــــرٌ منـــــيرُ
جـــاوَرْتُ في عمّـــان صَفـــوةَ أكـــرمـــين بهم حُبـــورُ

---

(١) السَّحير : الصديق الصفيّ
(٢) السَّجُور : الحطب ونحوه مما يوقد به .

ومَنَحْتُهم عِلْمًا فكانَ بهِ المُوَشّي والحَبيرُ
إنْ رُحْتُ أذكُرُ صَفْوَ أيّامٍ تَطَيَّفَني سُرورُ
ذهَبَتْ وأعقَبَها الزمانُ بما يسوءُ وما يجورُ

* * *

دَعْها ، وطِبْ نَفْسًا بمُدَّخَرٍ ، لكَ الغيثُ الغزيرُ
دَعْها وعُدْ لِلآخَرينَ شَذًا بهِمْ نَفَسٌ يَسيرُ
بَلْ لَيْتَهُم عَلِموا بأنّ سَبيلَهُمْ دَرْبٌ عَسيرُ
يا بُؤسَ جَمْهَرةٍ تُقادُ لكي يُسامَ لَهُم "أُجُورُ"
لا عِشْتَ في " أخْرٍ " تَخَبَّطُني دَرْبُه نَكِدٌ حَسيرُ
ولكَ الذي هو أخسرُ أصحابِ القُسلا : كَرَمٌ وخيرُ
أنا للحِسانِ الخالداتِ هي " العَواصِمُ والثغورُ "
وليَ المآثرُ في كتاب " الخالدين " أنا الفخورُ
قد جُلْتُ في الرَّحْبِ البديعِ صَفَتْ لمنطِقِه عُصُورُ
هو ذا " كتابُ اللهِ " أحْمِلُه هو الذِّكْرُ المنيرُ
ووَقَفْتُ في الأثَرِ النفيسِ بحَسْرةٍ وأنا الصَبورُ
فسَعِدتُ فيما كان لي مما حَوَتْ منه سُطورُ
أوعَبْتُها " الأسفارَ " مِنّي يرتَضي فيها القديرُ
إرْثٌ سُرِرْتُ بأنْ يُفيدَ كما أفادَتْنا الدُّهورُ
فإذا هَفَوتُ ومَا عَلِمْتُ بِهِ ، فلي رَبٌّ غَفورُ

* * *

دَعْها وعُدْ لِبَعْضِ أيّامٍ هي العُمرُ الغضيرُ
ولنُخبَةٍ صَعِدَتْ بما وُهِبَت فَمَا الشِّعْرَى العَبُورُ(١)
وأتيتَ تَقبِسُ من فَرائِدِها هُوَ الدُّرُّ النَّثيرُ
في " مَجْمَعِ اللُّغةِ " العتيدِ ، بِكمْ هُوَ الإرْثُ الأثيرُ
لَوْلا الذي قَدْ عَمَّ مِنْ حزن هو النبأُ الخطيرُ
لم أستَطِعْ حَمْلَ الَّذي قَدْ هَدّني وأنَا الخَبيرُ

(١) الشِّعْرَى العَبُور : إحدى نجمين بجوار الجوزاء ، والأخرى الشِّعْرى الغُميصاء .

بالعَاصِفَاتِ مِنَ الفَوَاجِعِ هُنّ من وجدٍ يثورْ
بمُصَابِنا بالندبِ بالفِكْرِ العَلِيِّ وَمَا يُثِيرْ
فأسيتُ أيَّ أسىً يُحاصِرُني هُوَ الخَطْبُ المثِيرُ

* * *

دَعْها عِجَافًا من سِنينَ فكلُّها طَوتِ العُصُورُ
وَلَقَدْ فَقَدْتَ مِنَ الأطَايِبِ بَعْضَها الصَّبرُ الحَرِيرُ
وتَكَبلْتَ عَنْ طَبْعٍ فَرُحْتَ لِضِدِّهِ غَيْظًا تَفورُ
دُنيا تَهاوَنَ أهْلُها في كلِّ ما يَقْضِي ضَميرُ
وأعانَ " حَمْع الوافِدِينَ " بما يَسوءُ وما يَضيرُ
أفَهذِه اليَمَنُ التي سَعِدَتْ وطافَ بها حُبُورُ ؟
أم بَعْضُ دُنْيا العربِ مما رابنا منها نَذِيرًا
أيَجُوعُ جيشُ العُرْبِ لو جَدّوا، وَخَيرُهُم وفيرُ؟
لا أمْسِ قدْ أبقَى المآثِرَ ، لا قليلٌ ولا كثِيرُ
إنّا ليُشْقِينا زَمَانٌ ، سَادَنا فِيهِ ، خَطِيرُ
كُنّا أضَعْنَا الرَّأيَ ، بل قَدْ نَابَنا منه الفطيرُ(١)
عَفوًا فقد جَنَحَ اللّسَانُ ولي بما فِيكُم عذيرُ
إنْ سَاءني أنّ الذي نَغْشَى بهِ كَذِبٌ وزُورُ
فَمَتَى يُرَى للصِّدقِ في أخْلاقِنا صَوْتٌ جَهِيرُ؟

* * *

وَيْحَ الحِسَانِ من القَوافِي كَمْ تُحَصِّنها خُدورُ
ناجَيْتُ عاصِيَها فَمَا استَعْصَى ،وَقَدْ تَعْنُو صُقُورُ
إنّا نَسِينَا ما اللّحونُ ، وما الرَّوِيُّ وما يُجِيرُ
بالمُحْدَثاتِ ، وهُنَّ بَعْضُ ضَلالةٍ فيها نَدُورُ
حِيزَتْ عَنِ الفنِّ الأصِيلِ رُؤىً تَهَضَّمَها شُعُورُ*

إبراهيم السامرائي

عضو المجمع من العراق

(١) الفطير : رأيٌ فطير · خَطَر بالبالِ وأُبدِيَ بلا تثبّت .

* كتبت هذه القصيدة في صنعاء في ١٠ من شوال ١٤١٦هـ الموافق ٢٩ من أبريل ١٩٩٦م .

الدعوة الإسلامية ومثلها
في رسائل النبي الكريم وكتبه وعهوده

للأستاذ الدكتور يوسف عز الدين

معنى الدعوة

جاء في المعجم الوسيط " دعاه إلى الشيء: حثه على قصده، ودعاه إلى الدين وإلى المذهب: حثه على اعتقاده، والداعية الذي يدعو إلى دين أو فكرة " ومن معانيها الدعوة إلى الطعام والشراب ولعلها أصل الكلمة.

ولازمت كلمة (الدعوة) نشر الدين الإسلامي وإيصاله إلى البشر وتوضيح أسسه وتعاليمه وما فيه من فضائل عالية وأخلاق سامية، للإيمان به وليكون عقيدة الإنسان على أن تكون بالحسنى والكلمة الطيبة فقال تعالى: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " (سورة النحل، الآية ١٢٥) وفي التوجيه الإلهي دقة القصد ورقة الحوار حتى يقرب النفوس ولا يستفزها، ليقتنع العقل وترسخ العقيدة في اللاشعور وتصبح جزءا من الإنسان.

العرب قبل الإسلام

كان كيان العرب قائمًا على العادات القبلية الموروثة وما فيها من محاسن ومساوئ، وكان العربي شديد الترحال وراء الكلأ، وكان في خيمته ينتقل من مكان إلى آخر، لم يكن مستقرًا كاستقرار مكة والمدينة (١) أمة بدوية، الخيمة بيتها، والإبل ثروتها ومعاشها .. اعتمد العربي على ذاكرته في تسجيل أمجاده وحفظ غزواته، وحكايات الكرم والنخوة والإباء يرددها متى استقر في خيمته، وكان الشعر مهوى الأفئدة، لذلك بقى حيًا ونسي النثر في الخطب التي كانت منتشرة، وبرز من العرب خطباء لسن إلا أن الذوق الموسيقي المرهف غلب على الرواة فحفظ أكثر الشعر وضاع جل النثر. كان شديد الحفظ قوي الذاكرة فبرزت الرواية وارتفعت مكانة الرواة في حياته لحفظ الأنساب والمفاخر .. وكانت الأمية هي الغالبة لأنه لا يحتاج إلى الكتابة أو التدوين بعد الاعتماد على الذاكرة.

الرسائل قبل الإسلام

إن انقطاع العربي في الصحراء وكثرة الترحال وتبديل الأماكن التي

(١) كانت في الطائف بعض الصناعات، والزراعة بأنواعها.

ينتجع فيها الكلأ أبعدته عن الاتصال بالحضارات المجاورة إلا من سكن العراق والشام . لذلك كانت الصلات مع الملوك والحكام المجاورين قليلة . وتتمثل هذه الصلات في الرسائل المحدودة التي أرسلها العرب إلى الحكام المجاورين وقد جمع أحمد صفوت " جمهرة رسائل العرب " بعد أن بذل جهدًا واستقراء لجمعها من مظان الكتب، لكنه لم يتوصل إلا إلى عدد قليل من تلك الرسائل التي أرسلت إلى الملوك من الولاة العرب الذين استقروا في السواد ، منها : رسالة المنذر الأكبر إلى أنوشروان وهي رسالة ليست ذات أهمية كبيرة ، فيها وصف لجارية .. ويظهر على الرسالة طابع الافتعال والمبالغة اللفظية والحسية .. فالفتاة " وطفاء كحلاء دعجاء حوراء .. أسيلة الخد شهية المقبل جثلة الشعر .. كاعب الثدي حسنة المعصم لطيفة الكف .. لفاء الفخذين رياء الروادف مكسال الضحى بضة المتجرد .."(١)ولعلها من افتعال الرواة .. ولم يذكر لنا أية رسالة عن القضايا السياسية والعلاقات التي تربط العرب بكسرى .. وعندما يذكر الرسالة نجد الطابع الشعرى يغلب عليها .. فالمرسل ينظم المضمون شعرًا ومن تلك الرسائل رسالة عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين وقد ذكرها تاريخ الأدب العربي لعلاقتها بالشاعر طرفة بن العبد وخاله المتلمس، وفيها النهاية المؤلمة لشاعر من شعراء العصر الجاهلي فقد قتل شابًا نضر العود . (٢)

ومن الرسائل القليلة التي وردت في العصر الجاهلي رسالة النعمان بن المنذر إلى كسرى .. ورسالة عبد المطلب بن هاشم إلى أخواله بيثرب والتحالف بين عبد المطلب وخزاعة . ورسالة عدي ابن زيد العبادي إلى أخيه الجارود . (٣)

وهي رسائل غلب عليها طابع الضعف أو الصنعة ولا يمكن أن توضع في مصاف النثر الفني .. ولم يبق من النثر الفني غير العظات والوصايا ، مثل وصايا أكثم بن صيفي إلى طيئ ، وكتابه إلى حميصة البارقي .. (٤) وبذلك لن نجد أثرًا كبيرًا للرسائل في حياة العرب .. ولعلها ضاعت عبر السنين وعوامل

---

(١)جمهرة رسائل العرب ص ٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢،١٣،١٤،١٦

(٤) المصدر السابق ص ١٩ - ٢١ .

الطبيعة. وكان عند عمر بن الخطاب منها ملء صندوق ضاعت يوم الجماجم(١)

قريش والدعوة

جاء الرسول صلى الله عليه وسلم فدعا إلى التوحيد وإلى المساواة بين البشر ورفض عبادة الأوثان ، وكانت قريش مركز الثقل التجاري في الجزيرة ، وكانت الكعبة في مكة المكرمة المكان الذي تتمتع فيه قريش بالمكانة العالية .. لذلك حاربت الرسول خوفًا على سيطرتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وخوفًا على مالها ومكانتها ودينها .

ثلاثة عوامل دعت قريشًا للخوف من الدعوة الإسلامية فحاربت الرسول بعنف ، لأنه هدم قواعد المجتمع الجاهلي التي تسند مكانة قريش .

بدأت الدعوة بالرسول وحده ثم التف حوله السابقون من المسلمين في مكة المكرمة، وبقيت الدعوة تنتشر سرًّا ، كان الرسول شديد الصبر قوى الحجة مؤثر الشخصية وكان يعرض نفسه على القبائل ويحاول إقناعها ويتلو عليها القرآن الكريم . ففي بيعة العقبة الأولى أسلم ستة نفر من الخزرج وذهبوا إلى المدينة وبدأ نشر الدين الإسلامي (٢) وفي السنة الثانية وافى من الأنصار اثنا عشر رجلا وبايعوا الرسول على عدم الشرك والسرقة والزنا وقتل الأولاد .. (٣) وفي بيعة العقبة الثانية وكان عدد الأنصار ثلاثة وسبعين رجلا ومعهم من نسائهم امرأتان (٤) بايعه الأنصار على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم وأن يحاربوا معه الأسود والأحمر وأن ينصروه على القريب والبعيد. (٥) ولم يدون الرسول في ذلك شيئا وامتازت هذه البيعة بالتنظيم والتنسيق، ولما كان عدد الأنصار ثلاثة وسبعين رتب لهم نقباء وجعل أبا أمامة رئيسًا لهم فظهر التنظيم الأول في الدين الإسلامي، وتجلى فيه دقة العمل وسهولة الضبط وإيصال الدعوة بيسر وسهولة إلى أبناء المدينة، واتفق الرسول مع الأنصار اتفاقًا واضحًا في الدفاع عنه ونصرته وعدم تركه لهم بعد الانتصار على الكفار، وشرط لهم عند الوفاء الجنة . (٦)

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٢٤ لمحمد حميد الله .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ٢٤ وقد ذكر ابن حزم أسماء المسلمين الأوائل ص ٤٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٦ (٤) المصدر السابق ص ٤٧ .

(٥) المصدر نفسه ص ٤٩ ويراجع جوامع السيرة لابن حزم ص ٦٩ - وما بعدها ذكر أسماء الأنصار والسيرة لابن هشام تحقيق السقا وجماعته ص ٤٢٠ القسم الأول .

(٦) محمد حميد الله ص ٤٩ عن اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٨ و ٣٩ .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير إلى المدينة فأخذ يفقه المسلمين ويعلمهم القرآن الكريم، فبعدما كان يدعو إلى التوحيد ورفض عبادة الأوثان بدأ في وضع أسس الدين الإسلامي، ولما أمن المسلمون بدأت في المدينة المنورة صلاة الجمعة بالتقرب إلى الله تعالى بركعتين . (١)

ولبعد المسافات وضرورة إيصال الدعوة للبعيد من الناس بدأت كتابة العهود والرسائل . ويمكن أن نضع كتب البيعة والعقود والعهود الأولى ضمن الرسائل النبوية ، إذ بدأ بها الدعوة الأولى ووضع الأسس المتينة والقواعد الجديدة والمصطلحات الإسلامية لإرساء العقيدة الجديدة . وهي بداية النثر الفني في الأدب العربي وكانت هذه الرسائل مختلفة عن الخطابة والأمثال والحكم؛لسلاسة عبارتها وجزالة أسلوبها وتركيز معانيها ووضوح أهدافها الإسلامية وبعدها عن الصناعة اللفظية .

وضع أسس البناء للمجتمع الجديد

ولما استقر الرسول الكريم في المدينة المنورة بعد الهجرة بدأ في تنظيم الحياة الاجتماعية، فقد جاء المهاجرون وكان فيها الأوس والخزرج واليهود .. وظهرت الاختلافات الفكرية وبرزت الجذور النفسية المتطاحنة، لكن الإسلام وطد الأمور وقضى على الحقد والكراهية والكبرياء القبلي فشمل المسلمين الحب والألفة والتضحية والمساواة وكرامة الإنسان وحريته .

إن تعاليم الدين الإسلامي كانت صريحة في رفع الظلم ونشر المساواة ورفع الجور عن المسلم ورفع مكانته (لا يُقْتل مؤمن بكافر)، ولا ينصر كافر على مؤمن وإن ذمة المسلمين واحدة يجير عليهم أدناهم). (٢) وحددت الصلات باليهود والمشركين وعرفت حقوقهم ومنع نصرة الجاني (صفوت ٣) وحرم جوف المدينة المنورة(صفوت ٤) وأوصى الرسول بالجار وبالفضائل العالية.

الرسول والدعوة

امتاز الرسول الكريم بفكر واسع وتنظيم عقلي كبير وتخطيط ذهني متكامل ، ظهر في رسائله وكتبه وعهوده. كان يحسب لكل كلمة حسابها ولكل لفظ من ألفاظه موقعه وأثره في النفوس ، إن قوة شخصيته هي التي أخافت قريشًا ، وعذوبة حواره وسهولة

(١) حميد الله، الرسالة المرسلة إلى مصعب ص ٥٣ .

(٢) ٢ و ٣ و ٤ صفوت ص ٢٧ - ٢٩ .

إقناعه للناس ، دعت قريش إلى إبعاد الناس عنه وصم الآذان عن كلامه ولهم الحق، فإن الطفيل بن عمرو الدوسي (١) الذي ملأ أذنه بالقطن آمن به بعد أن سمع كلامه فقد قال : "ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمرًا أعدل منه". وأسلم هو وقومه بعد أن قابل الرسول (٢) وكان يرهبهم بالنار ويرغبهم في الجنة .

قامت الدعوة في مكة على الخير والسماحة والمساواة والتوحيد، وهي أمور أخافت قريشًا وبخاصة دعوته للمساواة ورفع مكانة البشر عن الوثنية، لأنه أعاد للإنسان كرامته ورفع مكانته الاجتماعية بالمساواة وبالتوحيد والقضاء على الظلم والطبقية والامتيازات التي تتمتع بها قريش. وفي المدينة المنورة بدأ بوضع التشريع وأسس الدعوة وقواعدها العامة .

رسالله داخل الجزيرة :

بعد أن وطد الرسول الكريم دعائم الدين الإسلامي وبدأ الإسلام ينتشر في المدينة المنورة ، خطا الخطوة الأولى في تعليم الأنصار فقه الدين.واحتاج الأنصار إلى أسس محددة لفهم قواعد النظام الأساسي الجديد،ومن مكة المكرمة أرسل الرسول الكريم عدة أنظمة منها أنه حدد الفداء وضرورة مساعدة المحتاج من المسلمين وافتداء أسراهم، وألا تكون منزلة المسلم مساوية لمنزلة الكافر(٣)

كان الرسول الكريم يواجه الشرك في مكة ويدعو إلى التوحيد وينظم المسلمين في المدينة، وأول مادة وضعها للمؤمنين من قريش وأهل يثرب ومن لحق بهم وتبعهم وجاهد معهم (أنهم أمة واحدة من دون الناس) (٤) ثم جاءت مواد الدستور الأخرى تنص على أن يتكافلوا فيما بينهم ويتعاقلوا فيما بينهم ويفدوا عانيهم، وأن يكونوا كتلة واحدة ضد من تسول له نفسه إلحاق الأذى بأي مسلم منهم لأن المسلمين يوالي بعضهم بعضًا، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم وهم أمة واحدة كالجسم الواحد فلا يجوز مصادقة الكافر.وحدد للمسلمين صلاتهم باليهود بوضوح وصراحة . كما حدد هذه الصلات بقريش ومواليها، وأكد على نصرة المظلوم ومصالحة المسلمين ، وإبداء النصح لمن خالف المسلمين، وحرم جوف المدينة المنورة. وكانت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأنصار نقلة من الدعوة الشفوية إلى الكتابة لبعد المسافة. وبقي في مكة

---

(١) ابن حزم ص ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق

(٤،٣) جمهرة رسائل العرب ص ٢٥-٢٧

يعتمد على الإقناع المباشر الذي كان يخاف منه الكفار لمعرفتهم بقابلية الرسول الفذة في الإقناع وقرع الحجة بالحجة، حتى كانوا يسدون آذانهم خوفًا من سماعه حتى لا يتأثروا بحديثه، وكانوا يحذرون الناس من الاقتراب منه أو الحديث معه .

صلح الحديبية :

كان هذا الصلح نقطة تحول كبيرة في تاريخ الدعوة الإسلامية فهي حملة قوة أراد بها الرسول دخول مكة المكرمة معتمرًا، فاضطربت قريش وخرجت إليه لأنه شن فيها حربًا نفسية عميقة الأثر ولأنها جاءت بعد المواقع الحربية الكبيرة؛ بدر الكبرى وأحد والخندق وغزواته لليهود . ودخل إلى عقر الديار في الحديبية وأذاع قوله: " لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها" (١). واتفق مع قريش على أن ينصرف وأن تكون هدنة مدتها عشر سنين، وقد تألم المسلمون من هذا الاتفاق لأن فيه أن من جاء من قريش إلى المسلمين دون إذن وليه رد إلى قريش ، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه (٢) حتى أن الرسول رد أبا جندل وهو يرسف في قيوده .

وعاد الرسول إلى المدينة بعد أن عرفت العرب مقدار قوة المسلمين،وكان الرسول رفيقًا بقريش وأعطى حرية كاملة للناس للدخول معه أو مع قريش .

وبعد أن صد الرسول عن عمرته يوم الحديبية قال : " أيها الناس إن الله بعثني رحمة للناس كافة .. فأدوا عني يرحمكم الله ولا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم". (٣) وقد كثرت بعوث الرسول وغزواته ووصلت سبعًا وعشرين غزوة أما بعوثه فكانت ثمانيًا وثلاثين . (٤)

ونقضت القبائل الهدنة فكان ما أراده الله من نصر المسلمين، وتم الفتح المبين الذي أكد صدق الدين ونصر المسلمين .

نشر الدعوة في خارج الجزيرة :

وبعد هدنة الحديبية وقبل الفتح قال الرسول (إن الله بعثني رحمة للناس كافة) ومعناه أن تنشر الدعوة إلى العالم كله

(١) ابن حزم ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٢) ابن حزم ص ٢٠٨ ، ٢١٠ بصدد تسليم عتبة بن أسيد بن جارية لقريش . ومحمد الله ص ٧٧ .

(٣) السيرة ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ القسم الثاني تحقيق مصطفى السقا ترجمة ١٩٥٥م.

(٤) المصدر السابق ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

وبالفعل أرسل رسالتين إلى سادة العرب وقادتهم داخل الجزيرة وخارجها .

كانت فكرة رائعة أسمع فيها صوت الدعوة في أرجاء الجزيرة العربيــة وردد صداها العالم . وقد دلت الرسائل علــى سعة فكر الرسول ونظرته السليمة في بث الدعوة .

وأخذت بعض القبائل تؤمــن بمــا تناقلته قريش عن ظهور النبي وهي بعيــدة عنه، بعد أن آثرت التريث، لأن قريشًا في سفراتها أخذت تشكك في نبوته صلى الله عليه وسلم .

كانت رسائله مركزة عميقة الأثر في النفوس ومن نصوص هـــذه الرســائل "أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تســلم يؤتك الله أجرك مرتين " (١) و(أدعــو الله عز وجل) (٢) وهي الدعوة النفسية عندما يلقي تبعة الرعية على مســؤولية الملك (٣) ويتخذ من القــرآن الكــريم سبيلا لتوضيح فكره وجلــب القلــوب باللين والموعظة الحسنة مثل " قل يا أهــل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربــابًا مــن دون الله، فإن تولوا فقولــوا اشــهدوا بأنــا مسلمون".(٤) كان رسول الله يدعو إلى الإسلام وينتظر رد الفعل عنــد هــؤلاء الملوك، ويعرف أثر الدعوة النفسيّ عنــد الشعوب، ولم يدخــل في رســائله إلى تفاصيل تعاليم الدين، وكــان أملــه في إسلام أهل الكتاب أكثر من أمله بإسـلام كسرى والمجوس واكتفى بــــالدعوة إلى الإسلام " أدعوك بدعاية الإســلام " لأن أهل الكتاب لهم قاعدة فكرية في الكتــب المقدسة والأنبياء مما لا يملكــه المجــوس والفرس الذين يرون أنهم أعلى طبقة مــن العرب، لذلك شرح في رسالته قصــده وطالب كسرى بالإيمان بالله ورســوله وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك لــه وأنه رسول الله الذي أرسله إلى النــاس كافة لينذر من كان حــيًّا .

ولصلات النجاشي بالعرب ومعرفته بهم وببعض تعاليم الدين من هجرة الصحابة أكد في رسالته له على التوحيد ، وتأكيده على

(١) جمهرة رسائل العرب رسالة النبي إلى هرقل ص ٣٢ وإلى المقوقس ص ٣٨ وحميد الله ص ١٠٧ وص ١٣٥ وصحيــح البخــاري ٧٨/٦ وصحيح مسلم ص / ٣٩٣ كما يراجع ابن سيد الناس في عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل السير ص ٢٦٥ جـ٤

(٢) صفوت : رسالة كسرى ص ٣٥ وحميد الله ص ١٣٩ .

(٣) في رسالة هرقل (فإذا توليت فعليك إثم الاريسيين " وهم الفلاحون ") وفي رسالة كسرى (فإن أبيت فعليك إثم المجــوس) وفي رسالة المقوقس (فإن توليت فعليك إثم القبط) .

(٤) لاحظ رسالة هرقل والمقوقس ص ١١٠ و ١٣٥ ، ومحمد حميد الله وسورة آل عمران " يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله .. " الآية ٦٤ .

التوحيد لانتشار الوثنية بين البشر على أشكال مختلفة وأساليب متباينة، فمنهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الملوك والرؤساء (١) .

رسائله إلى العرب :

كتب الرسول إلى الحارث صاحب دمشق والمنذر بن ساوى ملك البحرين وهودة صاحب اليمامة وإلى ملكي عُمان وإلى الأكيدر الكندى ملك دومة الجندل ووائل بن حجر وأهل حضرموت وغيرهم(٢)

وقد اختلفت هذه الرسائل باختلاف المرسل إليه، فقد دعا الحارث بن أبى شمر الغساني إلي الإيمان " بالله وحده لا شريك له ". وكان أكثر صراحة وحرية من ملك البحرين فقد قال:

" فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة رسوله ". وأعطى للمجوس خيارًا بدفع الجزية لمن لم يؤمن وكان من جراء ذلك أن أسلم جماعة من أهل البحرين ، ودفع الجزية المجوس واليهود .. إذ فرضت الشروط المالية على العرب (٣)

وفود القبائل العربية :

ولما انتشرت الدعوة بدأت وفود العرب تصل إلى المدينة، وكان الرسول يشرح لهم تعاليم الدين الإسلامي بنفسه، ويرسل مع الوفود رسائل مكتوبة تثبت هذه التعاليم .

فقد جاءه في تبوك صاحب أيلة وأهل جرباء وأهل أذرح وأهل ميناء .. فأمنهم الرسول على أموالهم ومن كان معهم من أهل الشام واليمن والبحرين على أن يدفعوا الجزية وفرض على أهل أذرح وحرباء مئة دينار تدفع كل رجب .. وفصل لهم القضايا المالية . (٤)

وعندما جاءه وفد بني كلب أكد في مقابلته لهم على "إقامة الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة بحقها" (٥) وعلمهم أصول إخراج الزكاة في الشياه والنخل والزرع. كما فرض عقوبة الجلد على المخالفين من أهل ثقيف بعد عودته من تبوك لمن يصيد الصيد ويعضد الشجر، ورأى ضرورة إخباره عن الذين يكررون

(١) جوامع السيرة لابن حزم تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد ص ٢٩ وذكر الكتاب عددًا من المصادر في الحاشية ومحمد حميد الله ص ١٤٠ و ١٠٦ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ص ٤٠ و ٤١ ، ٤٦ و ٤٩ .

(٣) جرت رسائل متعددة مع الرسول موجودة في كتب التاريخ والسيرة الحلبية والخراج لأبي يوسف وأسد الغابة والإصابة وقد جمعها الباحثان صفوت ومحمد حميد الله بعناية وتحقيق علمي .

(٤) رسالة الأكيدر في جمهرة أنساب العرب ص ٤٨ و ٤٩ ومجموعة الوثائق السياسية ص ٢٩٣ .

(٥) رسالة بني كلب جمهرة رسائل العرب ص ٥١ .

مخالفتهم لأوامره . (١)

وكان يشهد على كتابة الكتب الصحابة الذين يحضرون الكتابة . (٢)

ملوك حمير :

ولما عاد الرسول من تبوك إلى المدينة أرسل ملوك حمير رسلهم معلنين الإسلام ومحاربة المشركين .. فكان وصول وفد اليمن حدثًا كبيرًا من الأحداث الإسلامية فقد كان (ص) يتمنى من الله أن يهدي أهل اليمن وهو يحفر الخندق، وأسعده إسلام هذا القطر العربي الكبير للصلات الوثقى بين أهل الحجاز وأهل اليمن والرحم والقربى مع هذه القبائل العربية.

لذلك أفاض الرسول الكريم في شرح تعاليم الإسلام لأهل اليمن وأكد على الناحية المالية وشرحها لهم . وقد عزز بخمسة من الصحابة الذين تفقهوا في الدين الإسلامي ومن"صالحي أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم" كما قال: وهم معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك ابن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة ، لنشر تعاليم الدين وتعليمهم فرائض الإسلام، مع أنه أفاض في رسالته .

وقد شرح لهم كيف يدفع المسلم الزكاة، وكيف يدفع أهل الكتاب الجزية وتكون لهم ذمة الله ورسوله، وقال بعبارة صريحة بضرورة جمع الصدقة التي " لا تحل لمحمد ولا لأهله ، وإنما زكاة يتزكى بها على الفقراء " . (٣)

إن فرض الزكاة كان ضرورة لرفع مستوى الفقراء من المسلمين والضمان الاجتماعي والمالي الذي أكده على كل وفود العرب، فقد كتب إلى بني نهد: "لكم يا بني نهد من الوظيفة الفريضة"(٤) وحدد قواعد الزكاة بدقة فقال: " لكم العارض ، والفريش ، وذو العنان الركوب والفلو الضبيس (٥) لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم ولا يؤكل أكلكم ما لم تضمروا الإماق وتأكلوا الرباق" (٦)

وفي رسالة أخرى أرسلها الرسول نجد أن اهتمامه الكبير بإسلامهم دعاه إلى

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٥١ و ٥٢ وكتاب ثقيف ص ٥٢ و ٥٣ .

(٢) شهد على كتاب بني كلب جماعة من الصحابة منهم سعد بن عبادة ص ٥١ ويلاحظ ص ٧٣ من المصدر السابق فقد شهد على كتاب الداريين أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان .

(٣) رسالة النبي إلى ملوك حمير ، صفوت ص ٥٣ .

(٤) رسالته إلى بني نهد ص ٥٧ المصدر السابق . الوظيفة : النصاب من الزكاة الفريضة المسنة لا تؤخذ في الزكاة .

(٥) الضبيس : الصعب الذي لم يركب والفريش التي وضعت حديثًا كالنفساء من النساء أى لا تؤخذ إلا الجيدة من الحيوانات وتبعد ذات العيوب .

(٦) الإماق : نكث العهد من الأنفة . الرباق : الحبل أى نقض رباق العهد الذي في أعناقكم .

التقيد بقواعد الدين الإسلامي فعلمهم الوضوء وضرورة إتمامه وأمرهم بالصلاة وضرورة الخشوع وإتمام الركوع، وحدد لهم أوقاتها، وحث على حضور صلاة الجمعة، والغسل عند الذهاب إليها، وأكد على التوحيد ونشره بين القبائل وإلا كان جزاؤهم القطع بالسيف .. وأكد على أن التوحيد من أهم صفات المسلم .. كما علمهم فرائض الحج والعمرة وضرورة دراسة القرآن الكريم ومعرفة الشريعة وجزاء المسلم الجنة، والكافر النار.

وعاد إلى شرح القواعد التي تفرض الزكاة على المسلم . (١)

كانت تعاليم الدين الإسلامي لأهل اليمن صريحة وواضحة .

وفي رسالة أرسلها إلى شرحبيل بن عبد كلال وأخويه نعيم والحارث .. مع عامله في اليمن عمرو بن حزم الأنصاري، وقد تليت الرسالة على أهل اليمن فقد ذكر السنن والفرائض والديات والعقول ، فجعل دية المؤمن مئة من الإبل إذا قتل عمدًا، وعن قطع الأنف كله واللسان والشفتين وفي البيضتين والذكر وفي العينين الدية ، وجعل في الرجل الواحدة نصف الدية وفي المأمومة ثلث الدية وفي الجائفة ثلث الدية وفي المنقلة خمس عشرة من الإبل، وفي كل أصبع اليد والرجل عشرًا من الإبل، وفي السن خمسًا من الإبل وفي الموضحة خمسًا من الإبل، وإن الرجل يقتل بالمرأة وعلى أهل الذهب ألف دينار(١)

خاتمة :

كانت رسائل النبي (ص) اللبنة القوية التي قام عليها الصرح الإسلامي الشامخ فقد بدأت بمعاهدة المشركين ثم قبول دعوته .. وفي رسائله كان يأخذ الأمور بالتدريج فالدين يسر وسهولة ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والرقة واللين .

بدأ بالتوحيد والدعوة إلى الواحد القهار ومحاربة الأوثان لأن الوثنية أسوأ أنواع الذل والطغيان .. وأراد أن يرفع من فكر البشر ويسمو بهم عن عبادة الشرك المادية سواء كانت وثنًا أو أميرًا أو ملكًا إلى عبادة الديان . ثم أتبعها بالصلاة ثم الزكاة وبعدها الحج . ومن الملاحظ أن هذه الرسائل تمتاز بأمور منها:

(١) صفوت ص ٦٣ و ٦٤ وكتابه إلى معاذ بن جبل ص ٦٥ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ص ٩٠ محمد حميد الله ص ٢٠٦ - ٢١١ .

المأمومة : التي فيها شج واضح ، الجائفة : طعنة خالطت الجوف .

المنقلة : الشجة التي تكسر العظم . الموضحة الشجة التي بلغت العظم فاوضحت عنه، أى أن الزكاة يجب أن تأتي من خيرة الإنعام .

١- لطف العبارة ورقتها وسهولة ألفاظها وسلاسة عبارتها .

٢- البعد عن التصنع اللفظي لتكون مفهومة لكل طبقات المجتمع الإسلامي .

٣- دخول المصطلحات الإسلامية الجديدة، كالصلاة والزكاة والحج والجهاد والصدقة، والمشرك والكافر والفريضة والسنة والنافلة والحسنة والسيئة والنفاق .. وغيرها من الألفاظ الإسلامية والمصطلحات التي لا يعرفها العرب بمثل ما اصطلح عليه الإسلام وإن كانت عربية .

وقد اتخذ الخلفاء من بعدُ هذه الرسائل، وبخاصة تلك التي فرض فيها التعاليم الإسلامية، نموذجًا يسيرون في هديه .. ويقتبسون من فكره الواسع وعقليته الكبيرة صلى الله عليه وسلم .

يوسف عز الدين

عضو المجمع المراسل من العراق

بعض الإشكاليات المتعلقة بلغتنا العربية

للأستاذ الشاذلي القليبي

١- ثنائية الفصحى والدارجة:

في كل الأقطار العربية نجد لسان التخاطب يُخالف عن قواعد الفصحى. وهذا التباين يعود إلى القرن الأول للهجرة ، لّما اختلط العرب بغيرهم من الشعوب التي اعتنقت الإسلام ، أو دخلت في حظيرته .

إلى جانب هذا الفرق بين الفصحى وما هو دارج بين الناس ، نلاحظ - ومنذ عهد بعيد أيضًا - اختلافات بين الألسنة العربية المتداولة ، فكل قطر يتميّز بلسان خاص به ، من حيث اللهجة - وهي نغمة النطق وموسيقا الجُملة - ومن حيث ما لبعض الألفاظ من معان تختلف من قطر إلى آخر . وقد يبلغ هذا الاختلاف حدًّا يجعل التفاهم غير يسير لأول وهلة بين أبناء الأقطار المتباعدة جغرافيًّا .

ولّما كانت الفصحى هي أداة الثقافة والعلم منذ البدء ، وأن سواد الشعب ، ممن لا يحسنون الفصحى ، يبقون خارج عملية التثقيف ، فإن ذلك كان عاملا من عوامل التمييز بين طبقة " خاصة " وما يُسمّى بـ " العامة " . لكن النهضة الحديثة التي شهدتها مجتمعاتنا العربية - بنسب مختلفة - بدأت تغيّر من هذا التقسيم المتحجّر بين عامة وخاصّة ، وذلك بفضل انتشار التعليم والثقافة ، ودخول الإذاعة والتلفزة كل البيوت . ولئن أخذت الشُقة تتراجع بين الفصحى والدارجة ، فإن عوامل ظهرت منذ نحو عقدين ، جعلت لسان التخاطب يضعُف ويتدهور ، معنًى وشكلاً . ويمكن أن نربط هذه الظاهرة الجديدة بالسّباق المحموم الذي دخلت فيه أغلب أقطارنا للخروج من التخلّف ودرء مظاهره ، واقتباس ما يبدو لها من وسائل - أو من مظاهر - التقدّم .

نعم ، إن فهم الفئات الشعبية للفصحى في تحسّن مستمرّ . والعامية اغتنت بالعديد من الألفاظ والصيغ الآتية من الفصحى . لكن الحياة الحضرية والجهود المبذولة - بصورة فوضويّة أحيانا - من أجل تطوير الأوضاع ، والحرص على اللحاق بما يسمّى "ركب الحضارة " ، كل ذلك أفرز ، في كبريات

المدن ، عوامل سلبية غيّرت من السلوك ومن لسان التخاطب - خاصة في صفوف الأجيال الصاعدة - فأدخلت عليها ضروبا من " التلوّث " .

ولئن ألححتُ في التنبيه إلى مخاطر هذه الظاهرة الجديدة ، فإنما ذلك لما تنطوي عليه من آثارٍ على نفسية الشباب وسلوكهم ، وفي آخر الأمر على انتمائهم الحضارى . فلغتنا - الفصحى كالدارجة - تقوم ، كسائر اللغات ، على هيكليات ، إذا ما اختلّت فقدت اللغة مرتكزاتها النفسية والاجتماعية . فاللغة من أهمّ وسائل ارتباط الفرد بالأسرة وبالمجموعة الوطنية : بواسطتها يلتقى الموروث الحضاري التليد.، ومن خلالها يعبّر ، بدوره ، عن مشاعر وأحاسيس ومعان تكيّف سلوكه ، وتنحت مواقفه من قضايا هامة ، وتثري اللسان الوطني بإضافات وتزيد من حيويته .

وخطورة هذه الظاهرة تتمثل خاصة في الانفصام الذي يحصل بين اللسان الدارج ومجموع التراث الحضاري الذي تتناقله الأجيال . فيقع للنابتة - وهي تسمية الشباب عند الجاحظ - انبتات يعطّل عملية النموّ والتطوّر التي لا تستقيم إلا متى كانت وترًا مشدودًا بين تراث الماضي وثراء الحاضر وإبداع المستقبل .

* * *

وختاما لهذه الملاحظات الخاصة بعلاقة اللسان بالعملية الحضارية - التي هي تراث دون انفصام ، وإبداع دون انقطاع - نقول :

أ- إن الثنائية بين الفصحى والألسن الدارجة ظاهرة قائمة في كلّ أقطارنا العربية ، ولو بنسب متفاوتة .

ب- والعناية برفع مستوى الدارجة ليست مناهضة للفصحى ، بل هى سعي للتقريب بينهما، وهي أيضا غيرة على الأصالة الحضارية لمجتمعاتنا . فاللسان الدارج ، متى تدعمت أصالته وزادت نقاوته ، كان خير تمهيد لامتلاك الفصحى وأقوى سند لها . أما إذا أصابه التفسّخ ، فإنه يزيد من أسباب الإغراء باللغات الأجنبية، ويكون عاملا من عوامل الهجرة الحضارية .

ولما كان من عير الواقعي إلزام شعوبنا العربية التكلّم بالفصحى ، في كل مستوياتها الاجتماعية ، فلابدّ من وقاية اللسان الدارج ، في كل قطر من أقطارنا، من الفساد الذي يُدخل الضَّيم على ذهنية المجتمع وعلى موروثه الحضاري .

وخلاصة القول فإن الدارجة الشائعة بين الناس لها وظيفة اجتماعية تشدّ المجتمع أن يتفكّك ، وأن يُجتثّ من أصوله العريقة . ذلك أن شخصية كل شعب تبرز من خلال لغته التي يتحدّث بها الناس يوميًّا في كل شؤون حياتهم ومعاشهم، ولو تكلّمت شعوبنا كلّها بالفصحى لظهرت فروق بينها من خلال ما تتوخّاه من تعابير وما تبتكره من صيغ وألفاظ أكثر لصوقا بمشاعرها ورؤاها ، وما تنحو إليه من سلوك .

أما الفصحى فلها رسالة ثقافية وحضارية – وأذن قومية – بفضلها تتمكّن شعوبنا من وعي انتمائها ومسؤوليتها في النهوض بهذه الرابطة التي هي من أهمّ ما يجمع بين العرب .

٢ – رسالة الفصحى :

تضطلع الفصحى برسالة مزدوجة : فهي الأداة الجامعة بين الشعوب العربية قاطبة . وبهذا الاعتبار فرسالتها قومية . وللفصحى أيضا – باعتبارها أداة ثقافة وعلم – رسالة حضارية تعزّز الرسالة القومية .

أما الرسالة القومية التي تختصّ بها الفصحى فتتمثّل في أن الانتماء إليها –وإلى ثقافتها وحضارتها – إنما هو قوام عروبة شعوبنا . فالذي يجمع بين سائر الشعوب الملقّبة بالعربية ليس الانتماء العرقي ، بل الانتماء اللغوي والثقافي والحضاري .

ونظرًا إلى اختلاف اللهجات المحلية ، فإن الوسيلة المثلى للتخاطب والاتصال بين العرب إنما هي اللغة الفصحى : بها يخطب الخطباء ، وبها تُكتب الوثائق التي هي المرجع في كل اتفاق بين أطراف عربية . غير أن اللغة التي يتمّ بها فعلا التخاطب في المحافل الرسمية لا تلتزم ضوابط اللغة الصحيحة . بل كثيرًا ما تحل محل الفصحى لغة ثالثة نسيجها الفصحى مطعّمة بألفاظ وصيغ من دارجة الشعب الذي إليه ينتمي الخطيب،

وأحيانًا من اللسان المصري ، للاعتقاد السائد أنه مفهوم لدى الجميع .

* * *

والحق يقال ، إن المصريين صنعوا لغة لهم ، خاصة بهم ، تمتاز بموسيقا خلابة ، وبتقاطيع بديعة ، فيها من تراكيب الفصحى ، وفيها أيضًا ما يجانب الفصحى في التركيب ، وفي النحو والصرف ، وحتى في بعض النطق . والمتأمّل في هذا اللسان ، يلاحظ أنه تغلب عليه جملة من القوالب ، مستعملةً في كل مستويات المجتمع المصري ، وترد على لسان " الباشا " ونسمعها من "الشغّال " والمصرية بليغة الأداء ، جميلة الأعطاف إذا ما اتُّخذت للغناء . وقد يتظرّف البعض بتقليدها - من باب المداعبة أو التهكُّم - ولكن أغلب العرب يركنون إليها عند الحاجة - حتى أولئك الذين علّم أجدادهم الفصحى لمن لم يكن يتكلّمها . والجميع يكنّون لها ، ولو في خفايا النفوس ، إعجابًا كبيرا . وكون هذا اللسان مفهوما في سائر الأقطار العربية راجع أيضا إلى ذيوع الأغاني والأفلام المصرية ، منذ عهد بعيد ، وإلى تأثير إذاعة القاهرة أيام عبد الناصر ، ثم اليوم إلى انتشار المسلسلات التلفازية التي يتمّ إنتاجها في مصر أو خارجها ، لكن بكُتاب وممثلين مصريين .

* * *

السؤال الذي يخامر أغلب المفكّرين ، ولكن لم تقع معالجته هو : ما الذي يحول دون بلوغ الفصحى ، في اجتماعاتنا الرسمية ، المرتبة التي لسائر اللغات الكبرى في مثل هذه المحافل ؟

في كل أقطار أوربا ، تلتزم الشخصيات الرسمية لغة " فصيحة " عالية المستوى . بل إن ذلك من شروط الارتقاء إلى مراتب المسؤولية في سائر المجالات . لكن الأمر عندنا يبدو مختلفًا . فكأن إتقان اللغة الفصحى " أمر ثانوي"، والمدار كلّه على "المعاني" . لكن "المعاني" تفقد كثيرا من نصاعتها وإشعاعها إن لم يكن التعبير عنها بلغة فصيحة بليغة ، خالصة من اللحن . أما موقفنا من اللغات الأجنبية فعلى عكس ذلك ، إذ نعتبر أن اجتناب أدنى لحن عند التحدث بالإنجليزية ، أو الفرنسية ، أمر ضروري لمن بلغ مراتب عليا ، ودليل على المستوى الثقافي بالنسبة إلى النخبة عامة . فهل يجب أن نستنتج من ذلك أن

الفصحى ليست جديرة بهذه العناية نفسها؟ أم هي من العسر والتعقيد بحيث دخلت ضمنيًا في عداد اللغات الميتة ، فيُسمح بالمراطنة فيها _ كما كان الرومان ، في أزمنة انحطاطهم ، يتكلّمون ما أطلق عليه "لاتينية المطبخ" ؟ لابدّ من وضع مثل هذه الأسئلة ، ليتّضح للجميع خطورة موقفنا من الفصحى التي نربأ بها عن أن تنحط إلى عربية المطابخ . الفصحى هي ، قبل كل اعتبار آخر ، لغة القرآن والحديث ، ولغة ثقافتنا طوال العصور ، أثرت التراث الإنساني ، وأشعت على بلاد أوربا قرونا - بعد تفريط الأوربيين في التراث اليوناني . ومن إعجاز لغتنا الفصحى أنها ، على مدى أكثر من أربعة عشر قرنا متتالية ، لم تشهد اندثارًا ، ولم يطوها التاريخ . حافظت على قوة نسيجها وروحية قواعدها ، رغم أنها تطورت تطوّرا كبيرا صيّرها لغة علم وفلسفة واقتصاد . وبفضل قابليتها للاشتقاق ، وقدرتها على استيعاب الدخيل من الألفاظ والتعابير ، استطاعت أن تؤدي ألطف المعاني وأدقّها. والأمر - من بين سائر اللغات الإنسانية - جدير بالملاحظة والاعتبار : إذ الفصحى تطوّرت - بحسب حاجيات المجتمعات المتتالية - دون تبديل ، وطوّعها أهلها لكل مأرب دون مسخ . وإن هي تلوّنت وتكيّفت وتنوّعت في كل الوجوه ، فهي باقية على أنماطها وهياكلها الأساسية . وفي ذلك عنوان حيويتها الدائمة التي تحدت التاريخ . وما طرأ عليها من ركود وجمود ، أثناء قرون التخلّف ، فإنما هو راجع إلى انهيار القوى الإبداعية في مجتمعاتنا ، وما أصاب الفكر فيها من وهن وخمول . أما اللغة الفصحى فهي دوما عتيدة ، قادرة على أداء الرسالات المتجدّدة .

* * *

وللوقوف على مدى التنوّع الذي عليه لغتنا الفصحى ، يكفي أن نتذكّر أنها تتلوّن بحسب الأقطار ، وداخل كل قطر ، بحسب الفئات الثقافية ، والشرائح الاجتماعية .

داخل كل قطر من أقطارنا ، تختلف الفصحى ، بحسب الخلفيات الثقافية ، والأوساط الاجتماعية . وأبرز الفروق بين لغة الجيل المتعلم في المعاهد التقليدية ولغة خريجي الجامعات الغربية - أو التي على شاكلتها من جامعاتنا العربية .

فواضح أن لغة الشيخ الفاضل بن عاشور مثلا – وقد كان من أبرز أعضاء مجمعنا- تختلف عن اللغة التي كتب بها الأستاذ عبد الوهاب بكير في مجلة المباحث التونسية – وكان في مقدمة أساتذة العربية بالمدرسة الصادقية .

ولا أعلم مَن رمى الجسور بين الثقافتين التقليدية والعصرية مثل رجلين هما من أفذاذ كُتاب العربية : أحدهما من لا يزال يُجمع الناس على تلقيبه بعميد الأدب العربي ، أعني طه حسين الذي جمع بين أصالة اللغة التي تعلّمها من القرآن وكتب الحديث والفقه والأدب .. وبين ذهنية اللغة والثقافة الفرنسية التي اكتسبها في باريس .

فنثر طه حسين تحكمه ، في جزالته ، لغة القرآن ، وفي نصاعته ، دقة العقل الغربي ، وفي موسيقا جمله ، كونُه لا يكتب بيده ، بل يُملي فيستمع إلى إيقاعات كلماته قبل أن يرسمها على الورق " صاحبه " فيحرص على جعلها مسايرة لأوصال الفكرة التي تنشأ في خاطره ، ويُعنى بتوضيحها ، فيحلّل ويفصّل – حيث يُجمل غيره، ويكتفي بالإشارة والتلميح .

فإشراق الجملة عند طه حسين آت من نصاعة الفكر وجزالة اللفظ ، ولكن أيضًا سعة النَّفَس – إذ العمى وضرورة الإملاء رسخا عنده نزعة إلى التريّث في النطق ، وإعطاء كل الحروف حق مخارجها وكل مداها . فأثّر ذلك في سبك الجملة فجعلها تتفرع أوصالها في سعة وطمأنينة ، عند الإملاء ، وفي سائر أحاديثه المرتجلة .

أما الرجل الثاني ، فكاتب من بلاد المغرب الكبير – من تونس التي كانت منذ الفتح من أهمّ مراكز العربية والإسلام – كاتب انصرف ، منذ نعومة أظفاره ، إلى حفظ القرآن وسائر ما يُحفظ في بداية القرن ، استعدادًا لدخول جامع الزيتونة . ولكن الأقدار شاءت أن يتوجه محمود المسعدي إلى التعليم العمومي غير الزيتوني في تونس ، ثم إلى جامعة السوربون بباريس . فحذق الفرنسية وآدابها ، وبلغ من ذلك شأوا بعيدا كان يمكن أن يؤهله ، لو أراد ذلك، للكتابة بالفرنسية – مثل العديد من بني جيله في شمال إفريقيا . غير أنه اختار أن يكتب بالعربية منذ أول شبابه،

"تأصيلا لكيان" ، كما يقول – لكيانه التونسي : بعروبته وإسلامه وأمجاد قومه.

ولم يكن من باب الصدفة أن ظهر في تونس ـ بلد الحفاظ والاجتهاد معًا – كاتب فذّ مثل محمود المسعدي ، استطاع أن يؤلف بين متباينات : فقد كتب بلغة مُبدعة في أصالتها ، فأضفى عليها من روحه ومزاجه وثقافته . فإذا هذا المزيج بين لغة صمّاء كالحجر الصلد ، وما نفخ فيها من توهّجات وجدانه ، يتمخّض عن أدب نافذ إلى مغلقات الكيان ، ويختزل أوصال الزمان .

ولقد تعمّد المسعدي أن يكتب بلغة ضاربة في القدم . ولم يكن ذلك فقط لتشبّعه بالنصوص القديمة المؤسّسة لكيانه الروحي . كان ذلك منه أيضًا – في عهد كانت فيه تونس تحت الاحتلال – نضالا من أجل هويّة مجتمعه ، وأصالة ثقافته ، وكرامة أمته – بقدر ما كان بوازع جمالي ، وصبابة إلى أمجاد خلت .

-- كتَب المسعدي بلغة رائعة الجمل ، هي إلى لغة القرون الأولى أقرب منها إلى لغة عصره ، آخذًا فيها بإيجاز صاحب "الأغاني" ، مع صرامة في الإيقاع ، واكتناز في العبارة ، وفُتوة في النفَس .

ومن كل مؤلفاته تتضوّع حيرة في شأن الإنسان ومصيره ، وتساؤل – هو إلى الإيمان أقرب منه إلى الشك – عن غيب الوجود . ويكتنف كلّ كتاباته – ابتداء من قصة "المسافر" التي أعتبِرُها ومضة من ومضات الأدب الحديث – مناخ من الإبهام والتلويح ، مع الاقتصاد في إظهار العواطف ، يُدخل أدب المسعدي في سياق الأدباء الفرنسيين المحدثين – من أمثال Paul Valery – أكثر مما يُدرجه في أدب المهجر الميّال إلى التبرّجات الوجدانية .

ولعل من الأسباب التي جعلت المسعدي غير ذائع الصيت في بلاد المشرق خلو كتاباته مما يمكن تسميته بعنصر "الطرب" الذي يُحبّه القارئ العربي في أشعارالمتنبّي ، مثلا ، بالأمس ، ونزار قبّاني اليوم ، ولا يجده فيما يكتبه التونسي أحمد اللغماني والفلسطيني محمود درويش : طرب الإيقاعات المتواترة ، والمحسّنات البديعية المتقابلة ، والتشابيه البعيدة المجاز – حتّى أن من علامات "الطرب" استعادة البيت المعجب ، فأصبحت سُنة عند تلاوة القصائد .

ولاشكّ أن كلاً من محمود المسعدي وطه حسين يقوم أبلغ مثال على ما نريد تأكيده ، وهو أن لغتنا الفصحى هي ، في نفس الوقت ، مرآة لشخصية الفرد الذي يكتب بها ، وانعكاس لذهنية المجتمع -أو العصر- في سماته الفكرية والخلقية .

وبسبب هذه العلاقة الحميمة بين اللغة ومحيطها الاجتماعي ، نجد الفصحى تتلوّن أيضًا بحسب ذهنية كل شعب من شعوبنا . فلغة المغرب مغايرة للغة المشرق. ذلك أن المشرق ، بحكم تركيبته الثقافية والدينية – وربّما لشعوره ، واعيا أو غير واع ، أنه صاحب هذه اللغة الأول – فهو أميل إلي التصرف ، وأسرع إلى التطوير . أما المغرب ، فبحكم تلقّيه الفصحى مقترنة بالقرآن ، فهو شديد الحفاظ على نقاوتها وأصالتها.

ويمكن إرجاع جملة الفروق بين لغة المشرق ولغة المغرب إلى ثلاثة أصناف: فروق لغوية ، ومميزات أسلوبية ، واعتبارات ثقافية .

فالقاموس يختلف من قطر إلى آخر ، إما بسبب استعمال كلمات قديمة بقيت في بلد واندثرت فيما سواه ، أو لاستعمال مفردات محليّة غير معروفة خارج القطر ، أو لاشتقاق ألفاظ لم يكتب لها أن تنتشر ، أو لتحميل مفردات أو اشتقاقات دلالات اجتماعية أو سياسية خاصة ببلد ، غير معروفة ، أو غير مقبولة ، في سائر البلاد العربية .

ثم إن المفاهيم العلمية الجديدة لم يكن لها عندنا اصطلاحات موحدة . فكثيرًا ما نجد اجتهادات مختلفة ، و لم تُعن الجهاتِ المختصة بمعالجة الموضوع . لا سيما أن بعضنا لا يرى ضَيْرًا في إدماج كلمات حضارية بصيغتها الأجنبية ، والبعض الآخر يتحرّج من ذلك ، ويجتهد في البحث عن اشتقاقات ليست دوما موفقة.

ثم إن القطر الذي يملك وسائل إعلام واتصال أقوى هو الذي يتوصل إلى نشر قاموسه . ولعل أبلغ مثال على ذلك ترجمة " International " . ففي مصر يقال " دَوْلي " . والحال أن ما يرجع أمره إلى الدولة من مؤسسات يسمّى أيضًا دَوْليّا . ولما كانت العربية سمحة وتجيز ، عند الضرورة ، النسبة إلى الجمع ، اجتنابا للبس ، فينبغي أن نقول إذن "دُوَلي" للدلالة على ما يرجع بالنظر إلى عدد من الدول .

وترجمة كلمة " Privatisation "هي أيضا محل ارتباك بين أقطارنا . ففي المشرق تستعمل كلمة " خصخصة " التي جانبت الذوق . وفي بلاد المغرب يقال "خوصصة " وليست بأفضل من الخصخصة . والخلط في هذا المجال آت من أن ذوي الاختصاص في الاقتصاد لا يرون ، عند البحث عن مصطلحات جديدة ، فائدة في الاستنارة برأي أصحاب الاختصاص في اللغة ، فيقعون في مثل هذه الألفاظ الهجينة .

أما المميزات الأسلوبية ، فالملاحظ في شأنها أنها من تأثير لغة أجنبية يغلب استعمالها في قطر أو إقليم . فالفرنسية أكثر تداولا في المغرب العربي ، ولذلك نجد أحيانًا سبك الجمل متأثرا ، عند الفئة المتعلمة في المعاهد الغربية ، بخصائص التركيب الفرنسي . أما في المشرق فالأغلب تأثير التراكيب الإنجليزية.

وأقرب مثال على دخول تراكيب أجنبية في الفصحى شيوع استعمال "هناك" لترجمة "There is" وهو تركيب غير عربي وغير ضروري . لكن عمّت به البلوى في المشرق والمغرب على السواء، ولم أره ألبتة فيما قرأت من كتب طه حسين .

* * *

واعتبارا لخصائص كل من الثقافتين الفرنسية والإنجليزية ، فإن تأثير كل منهما يولّد لونا ذهنيًا متميّزا عند الكُتاب المتأثرين بالأنموذج الفكري الأجنبي . بل إن الأمر يؤول أحيانا إلى الكتابة بألفاظ عربية ، مجموعها يؤلف شيئا غريبا عن ذهنية أبناء العربية . وليس ذلك راجعا بالضرورة إلى عسر بعض الدراسات المعمقة . فقد يكون الانغلاق أيضا نتيجة تفكير سابق بمفاهيم أجنبية ، دون تكلّف مشقة التحويلات اللازمة إلى الذهنية العربية .

ويتصل بهذا النوع اعتقاد بعضهم أن اللغة العربية تعوزها الدقة التي عليها اللغات الأجنبية . ولهذا السبب يركن بعضهم إلى التفكير بلغة أجنبية في مرحلة أولى ، تحاميا للاندفاعات الخطابية التي تقترن بالعربية ، حسب تقديرهم . وهل من حاجة بنا إلى الردّ على هذا الرأي ؟ فالنص الأول المؤسس للفكر العربي -وهو القرآن- يبرهن على أن كل لفظ من ألفاظه له مدلول دقيق ، وأنه لا مجال في المفردات القرآنية للترادف المكرّر للمعنى . ثم إن كل آية من آياته تبلغ من

البيان ، والدقة والإيجاز ، بحيث تصبح آية إعجاز في التعبير .

* * *

من جملة الملاحظات السابقة يتّضح مدى تأثير اللغة ، باعتبارها أداة "تعبير" حضاري - أعني أداة لـ"عبور" مؤثرات حضارية من أمة إلى أخرى . وهي ظاهرة عامة وقديمة قدم الإنسانية . لكن لا ينبغي لها أن تنقلب إلى غزو حضاري أو إلى ما يورث التشويه والمسخ .

وبقدر ما نعتبر ضروريًّا مُواصلة تطوير لغتنا الفصحى - هذه الأداة الرائعة البيان - فإنّا نرى لزاما مراقبة هذا التطوير ، حتى لا يتجاوز الحد الذي يقتضيه نموّ مجتمعاتنا وتوسع الفكر والعلوم عندنا .

وفي هذا الصدد ، لابد من متابعة محورين : قاموس اللغة، وتراكيبها. أما التراكيب ، فهي هيكل اللغة ، وانعكاس الفكر الذي تترجم عنه اللغة . ولكل لغة مناحيها ومميزاتها الذهنية المرتبطة بما لأهلها من خصائص عقلية وخُلقية . ومن لوازم التوسّع الفكري أن يتبعه تطور في مستوى هيكل اللغة .

أما قاموس الفصحى ، فتنميته متواصلة منذ أقدم عصورها ، بواسطة الإدماج والاشتقاق . ولكل منهما ضوابط . فالاشتقاق تحكمه سلامة الذوق. والإدماج لا ضرر منه ، إن لم يصحبه غلو ، بغير ضرورة .

ثم إنه لا مناص ، في التعبير عن المعاني الجديدة ، من اعتبار سنة هي عامة في سائر اللغات : وهي أن الألفاظ كائنات حية ، تنمو وتذبل ، وتغتني بدلالات جديدة قد تضاف إلى ما قبلها، وقد تغلب عليه فتجعله في طي النسيان ، وهو ما حصل لعدد من المفردات نجدها فيما كتب في القرن الأول ، ولكنها غابت عن الاستعمال في القرون التالية .

وإن كان من ضوابط عامة لقضية التطوير ، فالاستعمال هو الذي يجدر اعتباره في أغلب الأحيان . فجريان العادة من الصعب معاكسته . وهو الذي -مثلا - فرض كلمة تليفون، وغلب استعمالها على كلمة "هاتف" وهو الذي رسّخ كلمة "الإذاعة" عوضا عن "الراديو" التي شاعت في أول الأمر واختصت اليوم بجهاز التقاط البث الإذاعي.

ولكن من الواجب مقاومة الاستعمالات العقيمة ، مهما جرت العادة بالتلفّظ بها (مثل دَوْلي بدلا من دُوَلي ، و"مرطّبات" لتسمية أنواع الحلوى في تونس ، واستعمال " ينبغي عليه " خلافا للاستعمال الصحيح وهو "ينبغي له " (ثم هو لا يستعمل في معنى الوجوب ولكن في معنى الجواز والاستحسان). وكذلك من الضروري حماية الفصحى من الاشتقاقات الثقيلة المتكلّفة، والألفاظ الأعجمية التي لا ضرورة تدعو إلى إدماجها ، لوجود ما يقابلها في لساننا.

* * *

وخلاصة القول في هذا الصدد أن ما نريده للغتنا الفصحى إنما هو التطوير الحقيقي ، لا التغريب الذي هو نتيجة تغريب في الفكر . فأدباؤنا ومفكّرونا وعلماؤنا كثيرا ما ينطلقون في دراساتهم وتأملاتهم وتحليلاتهم من "مراجع" فكرية أو أدبية أو علمية – تابعة للثقافة الغربية، تأثرًا بما تلقوه في عهد دراساتهم الجامعية. وهو أمر لم يكن لهم منه بد. ولكن أليس الوقت قد حان لمراجعة مسيرتنا الفكرية على أسس مستوفاة الأصالة ؟ وفي ذلك عمل جبار ، على جامعاتنا ، في كل أقطارنا العربية ، أن تقوم به – بتنسيق حثيث من المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة – وبهدف ربط الفكر الحديث بمنطلقات عربية سقطت من ذاكرتنا في عهد التخلف . وبذلك يتمّ التسلسل الذي يجعل الفكر عندنا ينغرس في جذور عريقة . ولئن بدأت بوادر هذه المراجعة عند بعض مفكرينا ، فإنه لابد أن يصبح ذلك مشروعا قوميًا تضطلع به معاهد الدرس والبحث في الوطن العربي .

وتمهيدًا لذلك ، يجدر أن نعمد إلى أمهات المراجع العربية والإسلامية ، فنتناولها بالتمحيص ، ليتسنّى لنا الربط بينها ثم الربط بينها وبين الفكر المعاصر ، وإقامة السلسلة التي تجعل مسيرة الفكر عندنا واضحة المعالم . وإنّي على يقين أننا ، بفضل هذه المراجعة سوف نتمكن من استخراج "أدوات عمل" نعتمدها في مختلف اجتهاداتنا ، حتى لا نبقى أيتام تراثنا ، غرباء عن مائدة الفكر الإنساني.

٣– الفصحى في مقدمة مقوّمات الأمة

في حديثنا عن الفصحى ، وكذلك عن الدارجة ، حرصنا على بيان الصلة المكينة بين أداة التعبير وبين الذهنية

الجماعية . ولئن كان من واجبنا أن نغار على أصالة لغتنا - دونما تشنّج ولا تزمّت - فإنما ذلك من باب الحرص على أهم مقومات مجتمعاتنا : وهي اللغة التي تمثل ، في مستوى الدارجة ، خـزّان التراث الحضاري لكل شعب من شعوبنا ، وفي مستوى الفصحى، خزّان التراث القومي لجموع شعوبنا التي منها تتألف الأمة . ومن وسائل الحفاظ على تراثنا القومي صيانة الفصحى ودرء المفاسد عنها .

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد . فإذا نحن تأملنا في كل ما تضطلع به اللغة من مهام، فإنا نجد في مقدمتها تصوير "الفعل" المعتزم القيام به ويعتبر ذلك مرحلة أولى من تنفيذه . وبحسب نوعية التعبير - قوّته وضعفه - يتكيّف الفعل . وقد يتغلب التعبير ويطغى إلى حد أنه يُلغي الفعل ويحتل مكانة لدى الفرد أو الجماعة . فالفعل ينحت اللغة ، واللغة تنحت الفعل - أو تعطّله - والفعل بدوره له انعكاس رجعي على اللغة ، بحسب ما يصاحبه من ظروف ، أو ما ينتج عنه من ظواهر يُحتاج إلى التعبير عنها.

ومنذ بدء الحضارات الإنسانية ، والكلمة تتحكم في شؤون الإنسان ، أفرادًا ومجتمعات ، بما تحمله من حركة الفكر وانفعالات النفس ، وطموحات وقيم . فلذلك كان للكلمة دوما دور قائد في حياة الإنسان وتكييف مصيره - سواء بواسطة الدعوة الدينية أو التغنّيات الشعرية أو الخطب السياسية . فالكلام مكيّف لعقل الإنسان ووجدانه وسلوكه، بدونه لا تكتمل إنسانية الفرد ، ولا الحلم القوم، ولا حضارة الأمة .

بهذا الاعتبار ، فإن العناية بلغتنا الفصحى واجب ثقافي وحضاري ، إذ هي ضرورية لنموّ المجتمعات العربية ، وواجب قومي في نفس الوقت ، لأن التحام سائر مجتمعاتنا العربية في أمة واحدة يتوقف على الاشتراك في اللغة الفصحى ، في استعمالها وتنميتها .

ثم إنه لما كانت لغة العلم والثقافة والفكر عندنا ، هي الفصحى ، فأهمية هذه الأداة حيوية . ولا نعتقد أن الطاقات الفكرية لمجتمع ما يمكن تطويرها بلغة أجنبية ، من دون أن ينجر عن ذلك انسلاخ تدريجي عن الحضارة الأصلية الخاصة بذلك المجتمع ، وبالتالي مخاطر

جسيمة على كيان المجتمع باعتباره وحدة حضارية قبل أن يكون وحدة اقتصادية .

فإن عمد شعب من شعوبنا العربية ، في مسيرته الإنمائية ، إلى اقتباس العلوم والتقنيات اللازمة ، دون هضمها وتحويلها إلى لغته ، ليتمّ له بذلك تملّكها و"الاستيلاء" عليها - حسب عبارة ابن خلدون - فمن الواضح أن عملية التنمية ستبقى عرجاء ، إذ هي لم تشمل اللغة الوطنية - أو القومية - وما إليها من طاقات المجتمع الحضارية . وبالتالي سيتولّد عن ذلك جملة من العلل الاجتماعية ، منها الهجرة الذهنية .

وبذلك ندرك مدى أهمية الفصحى في سياق تنمية مجتمعاتنا ، إذ التنمية ليست ممّا يُمكن استيراده من الخارج ، وإنما هي عملية يقوم بها المجتمع بنفسه ، من خلال الهضم والاستيعاب ، فكرا وتعبيرا ، بفضل أداة التملّك الأساسية لدى الإنسان وهي اللغة . وبدون ذلك تبقى التنمية سطحية ، غير منغرسة في تربة ثرية تفتّق الطاقات الذاتية التي هي مرتكز التنمية .

* * *

فإذا كان الأمر كذلك ، فواضح أن تنمية الفصحى من شروط تنمية مجتمعاتنا، لأنها هي لغة العلوم والثقافة والتقنيات ، بالنسبة إلينا جميعًا . لكن ، لمّا كانت الفصحى ملكا مشتركا بين كل شعوبنا ، فذلك يُخرجها عن أن تكون لغة معزولة ، إذ يشترك في الانتساب إليها شعوب عشرين دولة ، تحتل منطقة من أهمّ مناطق العالم ، من الناحية الاستراتيجية . وهو ما يزيد في أهميتها ، وفي الوقت نفسه يمثّل عامل تسريع لنموّها بفضل تضافر جهود كل الشعوب المنتمية إليها . ومن ذلك نستنتج ضرورة تعاون شعوبنا في النهوض الثقافي والحضاري . ويتضامن هذا مع أسباب اقتصادية تفرض على دولنا إقامة مشروع إنمائي عربي ، إذ التنمية الشاملة الحقيقية لم تعد في متناول الشعوب المعزولة ، في عصر تسيطر فيه الكتل العظمى على الاقتصاد الدولي . وقد بيّنّا ذلك بيانا ضافيا في فصول أخرى غير هذا الحديث .

ولاقتناع دولنا ، أثناء السبعينيات ومطلع الثمانينيات ، بضرورة إقامة مشروع إنمائي مشترك ، شرعت في

إعداد العدة له ، في قمة عمّان سنة ١٩٨٠م لكن هذا العزم خارَ ، بسبب الحرب الإيرانية العراقية ، ثم انتكس إثر نكبة الكويت وما تبعها من مصائب زرعت اليأس من جدوى عمل عربي مشترك يتّصف بالإيجابية التي تحقق طموحات شعوبنا ومنعة دولنا .

واليوم بعد مرور خمس سنوات على زلزال الخليج فهل من أمل في إحياء العزيمة على بعث المشروع الإنمائي العربي؟ الحقيقة أن هذا المشروع ولد ميّتا، لأنه كان يعاني ما كان يشكو منه العمل العربي المشترك في كل مراحله ، أعني أزمة الثقة بين دولنا ، لاختلافها في شؤون كثيرة وهامة ، منها تصوّر مصالحها الخارجية ، والاختيارات الداخلية في مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة . ومما لاشك فيه ، أيضا ، أن العلاقات بين دولنا كثيرا ما اصطدمت بتصرفات البعض منها ، وبتجاوزات لفروض الاحترام المتبادل لسيادة كلّ منها. ولاشكّ أيضا أن فكرة "الأمن القومي" – في سياق هذه العلاقات المتوتّرة في أغلب الأحيان – لم تكن محل اقتناع ، بالنسبة إلى الجميع .

تلك تجارب مؤلمة ومأساوية أحيانا .

لكن ، مهما بلغت هذه التجارب من الخطورة ، ومهما بقيت الجراح نازفة ، أليس من واجب رجال الدولة الذين يقودون سفينة أمّتنا أن يفكروا في الطرق الكفيلة بتجاوز هذه الأحقاد وهذه الرواسب؟ أليس لنا أسوة مقنعة فيما انتهجته أوربا الغربية ، بعد حروب دامية وأحيانا وحشية ؟ وقد وفقت هذه الدول إلى تنظيم مسيرة إنمائية جنّبتها الحروب البينية ، وضمنت لها مركزا دوليا مرموقا.

أنكون نحن العرب وحدنا ضحية اليأس والاستسلام للتشاؤم بالمستقبل . فننفض أيدينا من كل عمل مشترك ، ونكفر حتى بمعنى "الأمة العربية "؟ إن هذا الموقف اليائس مخالف – أولا وبالذات – للمصلحة الوطنية لكل دولة من دولنا ، إذ كل واحدة منها ، إذا بقيت منفردة معزولة في تعاملها مع الخارج ، ستكون عرضة للنهب الدولي ، وفريسة للقوى العظمى التي لا ترحم ، ولا تعتبر غير مصلحة شعوبها . أليست المصلحة الحقيقية تدعو كل دولة من دولنا إلى التفكير في طريقة الخروج من

المأزق الذي تردّت فيه العلاقات العربية منذ ١٩٩٠م ؟

* * *

وأودّ أن أختتم هذا الحديث بتأكيد ما توصلنا إليه من استنتاجات :

أولها أن مصير لغتنا الفصحى مرتبط بمدى تطوّر مجتمعاتنا ، واجتهاد رجال الفكر والأدب والعلم عندنا في تطوير الفصحى التي يتخذونها أداة للتعبير عن شواغلهم وآرائهم وحصيلة بحوثهم ، لأن تطور مجتمعاتنا لا يتم إلا إذا كانت التنمية عملية شاملة لسائر القوى المادية والمعنوية . ولنا تجارب في ذلك مقنعة ؛ فكلّما رُكّزت الجهود الإنمائية على العوامل الاقتصادية والتقنية وحدها ، أخطئ الهدف الذي هو النهوض الحضاري بالمجتمع ، لا مجرد التوسع الاقتصادي . وللغة دور محوري في التنمية، باعتبارها جملة من الشرايين الهامة، من خلالها يتدفق التطّور إلى سائر جسم المجتمع .

ثم إننا خلصنا إلى أن عملية التنمية في كل شعب من شعوبنا تصطدم بواقع دولي قاس ، وهو أننا في عصر سِمَتُه الغالبة "عولمة" الاقتصاد وسيطرة كتل عظمى عليه . فلا سبيل لشعب منفرد أن ينهض بشؤونه الإنمائية إلالائذًا بإحدى هذه الكتل ، اقتصاديا وتقنيًا ، ولكن أولا وبالذات ، لغويا وثقافيا . هذه منزلة سويسرا في انتمائها المزدوج إلى ألمانيا وفرنسا لغويا وثقافيا ، وكذلك البلاد الإسكندنافية ، إذ اختارت الإنجليزية وسيلة اتصال بالعالم المتقدم الذي يصنع العلم والتكنولوجيا . هذا مع عدم إغفال أن هذه الشعوب تنتمي جميعا إلى نفس الحضارة الغربية المسيحية ، وتتّخذ من الإنجليزية وسيلة اتصال بينها ، مما يسهل انتماء بعضها إلى بعض .

أما شعوبنا فستكون ، في هذا العالم الذي صورنا ، مضطرة إلى أحد خيارين: إما السعي إلى التنمية ، كل على حدة ، وهذا يُفضي إلى انحسار حضارتنا وتقلص استعمال لغتنا في شؤون الثقافة والفكر والعلم ؛ وإما ، وهو الخيار الثاني ، التكتل فيما بينها لإنشاء قوة جماعية قادرة على النهوض بالمسؤوليات الإنمائية، اقتصادا وثقافة معا . وهذا الخيار لا يعني الانغلاق ، بل إنه لا يستقيم إلا بالتعاون، إلى أبعد الحدود الممكنة ، مع الكتل الكبرى ، لكن بما لا يهدد شخصيتنا

الحضارية ولا ذاتيتنا الثقافية ولا حيوية لغتنا . وهو الخيار الأمثل ولكنه يتطلب مراجعة جذرية للتنظيمات التي عليها العمل المشترك . وفي هذا الصدد ، لدولنا عبرة فيما أقامته أوربا الغربية بين دولها من اتحاد لم يلغ سيادتها ، وحقق لها مكاسب وإنجازات عظيمة ليس أقلها استتباب السلم بينها منذ نصف قرن .

واعتقادي أن لا خيار لدولنا غير تنظيم عمل مشترك على أسس مستوحاة من التجربة الأوربية التي فتحت لأعضائها مجالات للتعاون ضاعفت من قوتها الإنمائية وأكسبتها في العالم وزنا عظيما . وبذلك تكون دولنا، في نفس الوقت ، قد خدمت مصالحها الوطنية الخاصة ، وفتحت لأمتها العربية عهدا جديدا يمكّنها من أن تطمح إلى العز والازدهار ، بإحياء ثقافتها وتنمية لغتها - لغة القرآن التي هي رباطها وعنوان تضامنها وتكافلها في كل الشؤون الأساسية ومنها وقاية أبنائها من مذلة البحث عن الرزق في أقطار يُسامون فيها أنواع الخسف .

* * *

إن العمل العربي المشترك محتاج ، في هذا الظرف إلى نفس جديد . ولن يُكتب له أن يتحرّك من عقاله إلاّ بدفع قوي - من إحدى دولنا أو كوكبة من دولنا - يعيد الإيمان بجدوى التعاون العربي ويمكّن من تجديد آلياته وتصحيح مساره وضبط مقاصده .

وكلّنا يذكر الدور الحاسم الذي قامت به ، منذ تأسيس الجامعة ، الدولة المصرية ، بالتعاون مع عدد من الدول الأعضاء .

والسؤال الذي يخالجنا جميعا اليوم ، أمام هذا الخِضَمِّ من التناقضات والخلافات والتمزقات ، هو : الآن وقد هدأ زلزال كامب ديفيد ، ألم يحن لمصر أن تستأنف رسالتها القومية وسط أسرتها العربية ؟ بل إن الهاجس الذي يساورنا جميعا هو: ألم يحن الوقت لتعود مصر إلى حمل رسالتها العربية؟ مصر النهضة ، مصر الكفاح من أجل العزة والكرامة العربية .

لكن يقيننا أيضا أن مصر قادرة على تحمّل هذه الرسالة بالوئام مع نفسها ، وأن قدرتها على ذلك من قوة تماسك شعبها وسماحة كل أبنائها .

الشاذلي القليبي

عضو المجمع من تونس

البنية النحتية العربية

ودورها في التوليد اللغوي :

مقاربة قديمة حديثة لأصولها النظرية

للأستاذ الدكتور محمد رشاد الحمزاوي

١-١ لم النظر من جديد في النحت وقد قتل بحثًا واتخذ فيه مجمع اللغة العربية بالقاهرة قرارًا يعتبره وسيلة من وسائل الوضع القياسية ؟ (١) لأن النحت قضية قائمة لا تقتصر على اللغة فحسب ، بل لها أبعاد ثقافية وحضارية مطروحة تشغل البال . فهي مازالت تسترعي اهتمام الدارسين الذين ما انفكوا ينظرون إليها من زوايا مختلفة طمعًا في تأسيسها على مزيد من النصوص والمقاييس (٢). وعلى هذا الأساس رأينا من المفيد أن نسهم في إشكالية تعريب العلوم وحلولها الممكنة بالانطلاق من رؤية ابن فارس في النحت لأننا لم نعثر على دراسة تشفي الغليل وتحيط بآرائه كلها دون حكم مسبق ، وتقدر ما خصصه للنحت من نصوص مكتملة لم تنصفها كثير من الدراسات العربية القديمة والحديثة (٣) ، التي وقفت منها مواقف ثلاثة متأثرة برؤية البصرة البنيوية السيبويهية (٤) القائلة بأن الثلاثي متمكن في العربية(٥).

فلقد تجاهلها الموقف الأول وغبنها (٦) ، وأجازها الموقف الثاني وقلل من شأنها واعتبرها شاذة ومتعسفة (٧) . أما الموقف الثالث منها فقد آزر مبادلها دون أن يستند إلى آرائها وحججها التي

(١) محمد رشاد الحمزاوي : أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ص ٣٢٩ - ٣٣٥ ؛ ٤٤ - ٤٠٣ ومصطفى الشهابي : المصطلحات العلمية والفنية ص ٢٠٤ حيث يعرضان للقضية في المجمع .

(٢) شوقي ضيف : مجمع اللغة العربية في عهده الخمسين ص ١٢٨ ؛ وعدنان الخطيب : العهد الذهبي لمجمع اللغة العربية ص ٣٠٧؛ ٣٤٢ - ٣٤٤ حيث تعرضا للقرارين المتعلقين بالنحت (جوازه عند الضرورة وقياسيته) .

(٣) وجيه السمان : النحت - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ٥٧ ص ٩٧ - و ٣٤٣ - ٣٦٤ . وهو بحث أحاط فيه - رحمه الله تعالى رحمة واسعة - بأهم جوانب القضية قديمًا وحديثًا مطبقا لها على العلوم المعاصرة .

(٤) محمد رشاد الحمزاوي : من قضايا المعجم العربي : التراث العربي الإسلامي ... إسهام في تاريخ اللسانيات ص ١٧٩ - ١٩٩ حيث نعرض لرأي المستشرق الأسترالي G. Carter في هذا الشأن .

(٥) سيبويه : الكتاب ج ٢/٦٢ .

(٦) عنه أصحاب المعاجم من أمثال الجوهري وابن منظور ، والزبيدي - الذين لم يهتموا بمفهوم النحت وتعريفه بالرغم أنهم اعتمدوا في مداخل معاجمهم ما أقره ابن فارس من المنحوتات .

(٧) أنزلها ابن جني ، وابن يعيش ، وابن عصفور منزلة الإضافة والنسب . واعتبرت عندهم شاذًا لا يقاس عليه . وحذا حذوهم المحدثون من الدارسين الطزوجيه السمان السابق الذكر .

تستحق أن نعود إليها(١) لتحليلها واستقراء خصائصها بغية توظيفها توظيفًا جديدًا لأن ابن فارس قد وفر لنا من النصوص والمعلومات والمناهج ما يؤهلنا لاعتماد آرائه لمقاربة مشاكلنا الحديثة، ولتأييد ما قرره مجمعنا في شأن قياسية النحت العربي.

١-٢ فلقد تهيأ لنا أن ابن فارس كان ومازال اللغوى العربي الإسلامي الوحيد الذي سعى إلى أن يحيط بقضية النحت إحاطة شاملة وأن يركزها على حجج ثابتة وأن يسن لها قوانين لسانية عامة مبررة ومطردة استخرجناها من نصوصه. ويمكن أن نفيد منها بالقياس والمقارنة ، وذلك بعد أن نكون قد بلغنا مبادئها تبليغًا شافيًا ، وأدركنا كيف جمعها وخرجها وفى أي قالب صاغها وقننها . ويظهر كل ذلك من عنايته المكثفة بالقضية التي لم يساوره في طرقها أحد . فلقد عالجها في كتبه الثلاثة : مقاييس اللغة ، والصاحبي في فقه اللغة ، ومجمل اللغة . وقد أوردناها مرتبة ترتيبا تاريخيا لأنه أشار إلى النحت في الصاحبي قائلا : " وقد أوردناه بوجوهه في كتاب مقاييس اللغة . (٢)

أما المجمل فهو تلخيص للمقاييس . وقد قال في مقدمته : " أنشأت كتابي هذا بمختصر من الكلام قريب يقل لفظه وتكثر فوائده، ويبلغ بك طرفًا أنت ملتمسه، وسميته مجمل اللغة لأني أجملت فيه إجمالا ، ولم أكثره بالشواهد والتصاريف إرادة الإيجاز " (٣)

ويهمنا من هذه الكتب الثلاثة مقاصدها الأساسية التي تفيد أن المقاييس تحتل المكانة الأولى وتكون النص الأساس المعول عليه في الموضوع المطروح وفي كل دراسة تروم النحت العربي وقضاياه، ونظرية الدلالة بأصولها وفروعها التي يمكن ربطها لأكثر من سبب بالنظريات الدلالية الحديثة . ويعتبر النصان الآخران ملازمين له ومؤيدين لغايات نظرية وأدبية وتربوية . والمقصود من هذه الكتب جميعها التعبير عن تعلق ابن فارس بالقضية وعن مكانتها في ذهنه وتفكيره

---

(١) رمسيس جرجس : النحت في العربية ، مجلة مجمع القاهرة ج ٦١/١٣ - ٧٨ . وقد اعتمد في بحثه ١٢ مصدرًا (انظر ص٧٦) ليس فيها لابن فارس ذكر ولا لنصوصه الأساسية التي أحلنا عنه المصادر المعنية .

(٢) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة ص ٢٢٧ .

(٣) ابن فارس : مجمل اللغة ، المقدمة ج ٧٥/١

والملاحظ : أن محقق المقاييس عبد السلام هارون ، وحسين نصار في "المعجم العربي ، نشأته وتطوره " ، يقران أن مجمل اللغة سابق للمقاييس وفي ذلك نظر ، انظر المقاييس - المقدمة ج ٨/١) .

مما جعله يثلث الدعوة إليها ، فضلا عما حشد لها من معلومات وحجج ومنهجيات لدعمها . فلقد خصص للنحت عن قصدٍ أبوابا لاحقة بكل حرف من حروف المعجم المختلفة باستثناء الألف واللام والميم والواو . وعنون لها بعنوان عام موحد " باب ما جاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف أوله . " (١) وأيدها مثلما أيد أبواب الثلاثي بأسانيد لغوية استمدها من خمسة مصادر أمهات هي:معجمان عامان وهما كتاب العين للخليل والجمهرة لابن دريد ، وثلاثة معاجم مختصة وهي إصلاح المنطق لابن السكيت، وغريب الحديث والغريب المصنف لأبي عبيد . ومراده منها دعم حجته في الموضوع وإقرار بنية النحت في العربية أساسا ، واعتبار مقاييس اللغة وثيقة علمية تشمله وتحيط به في نطاق ما وصل إليه من اللغة وما كان مدونا أو مستعملا منها في زمانه . فلقد قال في هذا الشأن " فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطنا من مقاييس اللغة . وما بعد هذه الكتب محمول عليها وراجع إليها " (٢) . وتبدو هذه الجرأة غريبة من رجل قال بالتوقيف باللغة حسبما روي عنه . ولعل ذلك التوقيف كان اتقاء !

ولقد وفر لنا أكبر وأوسع مجموعة عربية من المنحوتات التي روتها عنه المعاجم الكبرى من دون ذكر اسمه في غالب الأحيان وأخذتها عنه مغسولة من الصنعة . إن إحصاءاتنا أفادتنا أنه زودنا بـ ٦٢٠ مدخلا رباعيا وخماسيا (٣) منها ٤٠٢ مدخلٍ منحوتٍ أيدها ما أمكن بشواهد من أشعار الفحول من أمثال امرئ القيس ، والأعشى وذي الرمة والعجاج ، والكميت (٤) ... إلخ والملاحظ في هذا الشأن أن منحوتات ابن فارس قد تجاوزت كمًا وكيفًا وبصفة مطلقة الأمثلة المنحوتة الخليلية التقليدية القليلة مثل " عبشمي ، وعبد ري وحيعل " التي ظلت مسيطرة على جل الدارسين، وبخاصة المحدثون منهم رغم تطور القضية مصطلحا ومفهوما

(١) ابن فارس : مقاييس اللغة . ج ٣٥٧/٣ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) محمد رشاد الحمزاوي : النحت في مقاييس ابن فارس والمعاجم العربية ص ١٣ . انظر الملحق رقم ١ حيث نعرض الكلمات "المنحوتة" و "الموصوعة" التي سيأتي ذكرها .

(٤) نفس المصدر ص ١٧ . ولقد اعتمدهم في مداخل "حرعب" و "حرزق " و"عبهر" و"حضولة" و"حفاريت" و"حلس" ..إلخ

وممارسة. ويبدو لنا أنه استمد أمثلته من دراسة وصفية لنصوصه بمراجعه الخمسة المذكورة سابقًا . فكيف عالج النحت والمنحوتات ؟

وبعبارة أخرى كيف قدم لرؤيته وكيف بنى نظريته التي لم تخلفها إلى اليوم نظرية عربية صريحة مكتملة ومنافسة ؟

١-٣ لا يمكن أن نقطع بتميزه بمقاربة تخضع لأنظمة معينة، بل يكفينا أن نشير إلى أنه طرح القضية انطلاقا من نظرة وصفية متدرجة معتمدة على التجربة والممارسة، لا تخلو من نفحة لسانية حديثة . فلقد عرض لجميع وجوه النحت من وجهة نظره وذلك في تسعة حروف من حروف المعجم وهى الباء والميم والحاء والخاء والدال والزاى والسين والصاد والطاء . فهو أول من تنبه بعد الخليل إلى النحت والمنحوتات باعتماد الوصف والمشاهدة والاطراد . فقال " اعلم أن للرباعي والخماسي مذهبًا في القياس يستنبطه النظر الدقيق وذلك أن أكثر ما تراه منحوت " (١) وتخلص إلى النحت مصطلحًا ومفهومًا وتعريفًا فقال:

"ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعًا بحظ . والأصل فيما ذكره الخليل"(٢)

وعرف النحت ثانية بالمقابلة وذلك بتمييزه عن شبيهه " الموضوع " في الرباعيات والخماسيات فيعلق " فنقول إن ذلك على ضربين أحدهما المنحوت الذي ذكرناه " (٣)

والملاحظ أن الخليل وأغلب الدارسين اللاحقين به من القدامى والمحدثين لم يفرقوا بين " المنحوت " و" الموضوع " ولم يشيروا إلى العملية النحتية باعتبار ما يبقى من المنحوتَيْن وما يسقط منهما من حروف . وبعبارة أخرى لم يوضحوا لنا صورة المنحوت الجديد الكمية والكيفية . وقرروا أنها بنية سماعية اعتباطية لا تخضع لقياس كما عبر عن ذلك ابن يعيش في شرح المفصل نيابة عن الدارسين العرب للنحت باستثناء ابن فارس ، فقال: " وذلك ليس بقياس ، وإنما يسمع ولا يقاس عليه " (٤) ولقد خرج عن هذا الرأي ابن مالك في تسهيل المقاصد

---

(١) ابن فارس ، المقاييس ج ٣٢٨/١ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٢٩ .
(٤) السيوطي : المزهر ج ٤٨٥/١

والسيوطي في المزهر اعتمادًا على ابن مالك .

أما ابن فارس فلقد أشار إلى أن الكلمة المنحوتة " تأخذ بحظ " من الكلمتين المنحوتَ منهما . وأفادنا من خلال المداخل المستعملة المطبقة المأخوذة من كلام العرب أن المنحوت نوعان :

أ- منحوت من كلمتين لم يعين مقولتيهما الغالبتين . وقد تبين لنا من خلال الأمثلة المضروبة أنهما تعتمدان على فعلين أو اسمين أو فعل واسم مثل بحتر من بتروحتر، وبرجد من البجاد والبرد ، وبَحْثَر من بحث والبثر .

ب- منحوت بزيادة حرف في الأول أو الوسط أو الآخر على الثلاثي. والحرف المزيد كثيرًا ما يفيد المبالغة . وأمثلة ذلك : بردس بزيادة الباء في الأول، ومزلع بزيادة اللام في الوسط ، وزرقم بزيادة الميم في الآخر . ويقول في هذا الشأن:" وذلك على أضرب، فمنه ما نحت من كلمتين صحيحتي المعنى مطردتي القياس ، ومنه ما أصله كلمة واحدة . وقد ألحق بالرباعي والخماسي بزيادة تدخله ، ومنه ما يوضع كذا وضعا " (١)

وهو يورد النوعين من النحت متداخلين في نصوصه المعجمية إلا أنه يُرْدِفهما بانتظام بما يسميه " الموضوع " الذي يفسر معناه من دون تبرير بنيته فيقول فيه " يجوز أن يكون له قياس خفي علينا موضوعه ، والله أعلم " (٢) ولقد زاد في التوضيح والتعريف فسمى المنحوت من كلمتين فأكثر بالنحت القياسي ، وسمى المنحوت بزيادة حرف في الأول أو الوسط أو الآخر بالنحت المشتق ، ويتكون الأول من ١٣٧ منحوتا مدخلا من مجموع ٤٠٢ منحوت في المقاييس، ويتكون الثاني من ٢٦٥ منحوتا حسبما جاء ذلك في إحصاءاتنا . فقال: " وسبيل ما مضى ذكره فبعضه مشتق ظاهر الاشتقاق ، وبعضه منحوت بادي النحت وبعضه موضوع وضعا على عادة العرب " (٣) فمن المشتق " الدلمص والدمالص ملمص : البراق. فالميم زائدة . وهو من الشيء الدليص وهو البراق . وقد مضى (٤) .

(١) ابن فارس : المقاييس ج ٥٠٥/١ . (٢) نفس المصدر ج ١٤٦/٢ .

(٣) نفس المصدر ج ٢٣٧/٢ . (٤) نفس المصدر . وتستعمل الكلمة في الجمع " دلامص " في اللهجة التونسية للظلمة الحالكة تفاؤلا كما يقال للصحراء مفازة وللضرير بصير .

ولا شك في أن ابن فارس لم يتحدث عن أنواع النحت الأخرى لأنها أنواع محدودة غير مطردة. وهي تنسب إلى الاختصار (١) ، وفيه نظر . ولقد ربط المعجم الوسيط النحت بهذا النوع الأخير فضرب له أمثلة من مثال بسمل وحوقل (٢) ، ولم يتعرض للمفهومين السابقين الواردين عند ابن فارس. ولنا أن نعتبر التعريفين السابقين قانونين لسانيين عامين لأنهما واردان عموما في أسرتين لغويتين مهمتين : الأسرة السامية والأسرة الهند وأوربية من اللغات القديمة والحديثة مع الفارق .

٨-٤ ولقد اقتصر في الصاحبي في فقه اللغة على تعريف النحت وربطه بالاختصار عموما . وعرف النحت لغويا وأهمله مصطلحا لغويا في مجمل اللغة حيث قال :" نحت : النحت : نحت النجار الخشب ، والنحاتة ما يسقط من المنحوت ..." (٣) . وأعرض عن تحليل المداخل إلى منحوت ومنحوت منه وحذف الشواهد الشعرية والنثرية واقتصر على تفسير المداخل التي ألحقت ، كما هو الشأن في المقاييس ، بأبواب خاصة بعد أبواب الثلاثي . والملاحظ أن هذه المفاهيم والتعريفات النظرية تشير إلى محطات رؤية ابن فارس الأساسية التي تقر بصريح عبارتها ومصطلحها أن النحت :

١- جزء من العربية ، موجود في ألفاظها وفي كلام العرب الفصيح.

٢- ينقسم إلى قسمين رئيسيين غالبين:

أ- النحت المشتق ويولد بزيادة حرف في الأول أو الوسط أو الآخر على الثلاثي.

ب- النحت القياسي ويولد من كلمتين صحيحتي المعنى مطردتي القياس .

٣- نوع من الاختصار .

٤- يختلف عن " الموضوع " الذي يمكن أن يخرج تخريجًا ينتسب إلى النحت، ونحن نعتقد أن ابن فارس لم يوفق إلى التعبير عن كل خصائص رؤيته التي عرضنا لها بالتفصيل في مكان آخر (٤) ،

(١) إن هذه الجمل المختصرة أو " المنحوتة " القليلة العدد تحتاج إلى دراسة وصفية وإحصائية تحليلية للإفادة منها . وهي من نوع الاختصار الإرادي المقصود المعبر عنه بـ Abbreviation ، وواردة كثيرًا في اللغات الأوربية ويمكن أن تعتمد في العربية إن خضعت لنظام مدروس موحد . وهي تختلف عن الإسقاط اللاإرادي المعبر عنه بـ Haplolgie .

(٢) المعجم الوسيط . مدخل نحت . (٣) ابن فارس : مجمل اللغة ج ٨٦٠/٣ .

(٤) محمد بن رشاد الحمزاوي : النحت في مقاييس ابن فارس ص ٣٦ - ٥٠ .

والواردة في طيات النصوص والأمثلة والاستعمالات المعتمدة في مداخل معجم المقاييس وتعريفاها الدلالية بالخصوص. وذلك ما دعانا إلى دعمها بقراءة مساندة للإجابة أولا عن قضايا أهملها ابن فارس وتعتبر من بعض هناته وسلبياته(٢) ، ولاستكمال عناصر تلك الرؤية وبنائها على نظام منتظم ومبرر.اتبعنا الأمور التالية:

٢-١ اعتمدنا تحليل الوحدات الأساسية من مداخل المعجم المتكونة من المنحوتات المشتقة، والمنحوتات القياسية الواردة في المقاييس، وقربناها إحصائيا وبنيويا ورسمناها في لوحات بيانية * زودتنا بمعلومات أثرت أسس رؤية ابن فارس السابقة الذكر ودعمتها بأبعاد جديدة . فلقد لاحظنا أن صاحبنا قد جاهد وثابر للإحاطة بأكبر عدد ممكن من العناصر ليرسم لنا سمات النحت ويقر قواعده وقوانينه . لكنه سكت عن معالجة مسائل أساسية لابد منها . وإلا فقدت رؤيته مصداقيتها ، وأصبحت سماعية لا يقاس عليها . ومن تلك المسائل نذكر :

١- الحرف الزائد على الثلاثي : ما هو نوعه ورتبته وتداخله في المنحوت المدعو بالمشتق ؟ (٣) .

٢- المنحوت من كلمتين فأكثر : ما هي المقولات اللغوية التي يتكون منها؟ وما هي العناصر التي تسقط والتي تبقى في هذا النوع من النحت المدعو بالقياسي ؟

٣- ما هي الصيغة الغالبة في المنحوت الجديد من الصنفين ؟

٤- ما الداعي إلى اعتبار " الموضوع " غير قابل للتحليل ، خاليا من القياس ؟

ولقد اقتصرنا للإجابة عن كل ما سبق على تقديم لمحة موجزة عما توصلنا إليه من نتائج تفاصيلها في دراستنا المطولة للموضوع . ومفاد ذلك أن استقراءاتنا بينت أن النحت المشتق يعتمد على قوانين عامة منها أن :

١- حرف الزيادة - يلحق ٢٤ حرفا من حروف المعجم التي تستثنى منها الألف والذال والظاء ، والميم، والواو (٤) .

---

(١) محمد رشاد الحمزاوي : النحت في مقاييس ابن فارس ص ٣٦ - ٥٠ .

(٢) نفس المصدر

* اطلبها في ملاحق هذا البحث لأنها تساعد على معرفة دقة رؤية ابن فارس وانتظامها لأن صاحبها لم يستعمل تحليلنا البنيوي لإبراز اطراد آرائه وقيامها على قوانين تستحق الإشارة إليها والتأكيد عليها (انظر بالخصوص الملحق رقم ١)

(٣) لم نتعرض هنا إلى حرف الزيادة ومعناه الدلالي . وهو عند ابن فارس يفيد المبالغة مثل الميم في زرقم . انظر شأنه في دراستنا المفصلة ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤) انظر الملحق رقم ٢ للتأكد من ذلك .

٢- الزيادة بحرف واحد على الثلاثي ثابتة وغالبة بنسبة ٩٩ في المئة وذلك ما تدل عليه عينات من مداخل العين (١) .

٣- الزيادة بحرف في الوسط غالبة بمعدل ١٧٤ زيادة شملت ٢٢ حرفا من حروف المعجم وتليها الزيادة في الآخر بمعدل ٦٥ زيادة شملت ١٥ حرفا من حروف المعجم .

٤- الحروف المزيدة الغالبة هي الحروف الشفوية والذولقية (فر من لب) . وهي عند الخليل في كتاب العين حروف تميز في مستوى الألفاظ الرباعية والخماسية في الكلمات العربية الفصيحة من الكلمات الأعجمية، والفصاحة من العجمة(٢) . ومعنى هذا أن منحوتات ابن فارس عربية فصيحة، وأنها منحوتة نحتا عربيا بحتا، وأنها أساس الاشتقاق ومنبعه. فالصيغ الصرفية العربية الفعلية منها والاسمية التي يعتمد عليها الاشتقاق الصغير من قبيل هذا النمط من النحت . فالأفعال المشتقة والمزيدة مثلا تنهل من هذا المعين (أفعل ، فاعل ، افعلّ ... إلخ) . ولقد قال ابن جني في هذا الصدد :" فالصغير في أيدي الناس وكتبهم كأن تأخذ أصلا من الأصول فتتقراه للجمع بين معانيه وإن اختلفت صيغه ومبانيه وذلك كتركيب (س . ل . م) فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه نحو سلم ، ويسلم، وسلمان ، وسلمى والسلامة ، والسليم ... وعلى ذلك بقية الباب" . (٣) والملاحظ أن لا صلة للنحت بالاشتقاق الكبير مثلما أشار إلى ذلك بعضهم .

٥- الصيغة الغالبة التي وردت على وزنها مداخل معجم المقاييس المدروسة هي صيغة فعلل ومزيدها تفعلل، ويمكن أن تلحق بها صيغ أخرى قليلة (٤) .

فهل نحن في حاجة إلى مزيد من المبررات لتأييد عروبة هذا النحت وقياسته؟

(١) انظر الملحق رقم ٣ ولقد استأثر حرف العين النموذج هنا بأكبر من المداخل المنحوتة في المقاييس ، وعددها ٥٨ زيادة . ولابد من ملاحظة الدقة والانتظام اللذين اعتمدهما ابن فارس للإحاطة بموقع كل حرف دون إسقاط ولا إهمال ولا تكرار . وذلك مما بينته ووضحته لوحتنا التحليلية المتعلقة بحرف العين وغيره من الحروف .

(٢) الخليل بن أحمد : كتاب العين ص ٦١ . (٣) ابن جني : الخصائص ج ١٣٤/٢ .

(٤) من ذلك ما جاء على : بلدم ، برقع ، برعم ، بلقع... إلخ .

٢-٢ أما فيما يتعلق بالنحت " القياسي" فهو كذلك متمكن في العربية . وهو عنصر أصيل من عناصرها الكثيرة لأن الاشتقاق الصغير غير مستبد بها . وذلك ما أيده ابن جني حيث قال : واعلم أنا لا ندعي أن هذا مستمر في جميع اللغة كما لا ندعي أن الاشتقاق الأصغر أنيه في جميع اللغة" . (١) . وذلك ما دعا ابن فارس إلى طرح قضية النحت القياسي الذي اعتبره العنصر الثاني من البنية العربية الأساسية . وهو قياسي حقا وفعلا باعتبار ما وفرته لنا مقاربتنا البنيوية الإحصائية التي مكنتنا من استخلاص القوانين التالية :

١- النحت القياسي يولد باطراد من كلمتين ثلاثيتين مجردتين متكونتين من فعلين مثل بحتر من بتر وحتر أو من اسمين مثل البرجد من البجاد والبرد ، أو من اسم وفعل مثل بحثر من بحث والبثر .

٢- المنحوت من هذا الصنف يأتي في الغالب على وزن فعلل وتفعلل وعلى أوزان أخرى مثل افعنلل (ابلندج)، وافعللّ (اصمقرّ)، وعلى أوزان عديدة أخرى مثل محدرج، وهبلّع ، وخيتعور ، إلخ.

٣- التلاحم بين البنيتين المنحوت منهما يخضع لقانون مطرد صلوم مفاده أن الفعلين المنحوتين مثلا يحتفظان بالعنصرين المختلفين منهما ويسقطان عنصرًا من العنصرين المشتركين فيهما . فإذا أخذنا بحتر منحوت "بتر" و"حتر" نلاحظ أنه متكون من /بـ / و / حـ/ المختلفين في الفعلين، ومن / تـر / المكرر منهما. فتكون البنية المنحوتة من مقطع طويل مغلق / بحـ/ ومن مقطعين مفتوحين قصيرين / تر/. وبالتالي نحصل على الوحدة الدلالية الجديدة :

/ بحتر /

وهذا المثال مطرد غالب، كما تدل على ذلك الإحصاءات وأبنى كل الأفعال والأسماء المستقراة من المقاييس لابن فارس(٢) في لوحاتنا التحليلية .

٤- العبرة من هذا النحت لا تكمن في كثرة التوليد، بل في نوعية

(١) ابن جني : الخصائص ج ١٣٨/٢ .

(٢) انظر الملحق رقم ٤ حيث يظهر اطراد هذا القانون الذي يكاد يكون رياضيًا من حيث دقته وانتظامه مما تشهد به حروف السين والشين والصاد والضاد والطاء والعين .

التوليد الدلالي باعتبار أنه توسع ينشئ خارج السياق وحدة دلالية جديدة إرادية من اللغة نفسها من دون اللجوء إلى خلق وحدة خارجية اعتباطية متولدة من صورة ذهنية والواقع المعيش المعبر عنه. ولذلك تبدو لأول وهلة شاذة غير مستساغة لأنها لم تنطلق من شاهد على غائب معروف إشارة أو ثقافة .

٢-٣ والجدير بالذكر أن ابن فارس لم يعرض لأنواع النحت الأخرى المعروفة علما منه أنها لا تعتمد على قوانين مطردة مثل الصنفين من النحتين السابقين . فلم يعالج أمثلة من نوع طلبق (أطال الله بقاءك) ودمعز (أدام الله عزك) وإن كان قد أشار إلى أن النحت يهدف عموما إلى الاختصار في جميع أنواعه .

أما " الموضوع " من الألفاظ الرباعية والخماسية فهو يمثل ٢١٨ مدخلا من مجموع ٦٢٠ مدخلا بالمقاييس . فما الداعي إلى عدم معالجتها وإلحاقها بالنحت ؟ يبدو أن ذلك يعود إلى عنصر رئيسي يتمثل في أن كثيرًا منها معربات دخيلات خشي أن يبت في أمرها . فلقد اعترف بأعجمية البعض منها مثل الخندريس التي قال فيها: " فيقال إنها بالرومية ولذلك لم نعرض لاشتقاقها"(١) وكذلك التبهرج التي عالجها منحوتة ودخيلة في آن واحد . وغاب عنه الآخر مثل هركولة وظرموسة (٢) وغيرها . والطريف في موقفه هذا هو أنه أقر ، عند حديثه عن " الموضوع " ، قانونا لغويا أساسيا ضمنيا مفاده أن التوليد اللغوي لا ينشأ من الثلاثي أو من أنواع النحت السابقة بل من الارتجال الذي غلّقت بابه الدراسات المعيارية العربية واعتبرته مرحلة بدائية من اللغة، مثلما أشار إلى ذلك الشيخ أحمد الإسكندرى وإبراهيم أنيس(٣) . فالأمثلة الحية التي قدمها ابن فارس والتي تولدها يوميا العربية العصرية على صفحات الجرائد وإعلاناتها ، وتنبثها اللهجات العربية الحديثة ، دليل على ذلك ، وتستوجب دراسة تحيط بها، ومعجما مختصا يجمعها ، عسانا نضيف نصيبا متواضعا إلى رؤية ابن فارس التي

---

(١) نفس المصدر ج ٢٥٢/٢ .

(٢) وهي من هركول (Hercules) البطل الأسطوري اليوناني وطرموس thermos الحرارة . ولقد غاب عنه كذلك معربات أخرى مثل الزعرور والدمقس والسفسر والعمروس الواردة في المقاييس . وهي معربات في "المعرب" للجواليقي .

(٣) محمد رشاد الحمزاوي : أعمال مجمع القاهرة ص ١٦٨ - ١٧٦ . وتلك دعوة إلى نوع من التوفيق اللغوي .

يمكن حصرها في مبادئ أساسية محددة وفي مشجر * يوصحها ، ويحيط بأصول النحت العربي عموما . فمن ذلك أن :

١- النحت أصل من أصول اللغة العربية تربطه صلة وثيقة بالاشتقاق الصغير .

٢- النحت صنفان :نحت مشتق بزيادة حرف في الأول أو الوسط أو الآخر ؛ ونحت قياسي من كلمتين ثلاثيتين قياسيتين صحيحتي المعنى.

٣- المنحوت من كلمتين يبنى غالبا من المقطعين المختلفين في الكلمتين الأصليتين ومن أحد الاثنين من المقطعين المتشابهين المكررين من نفس الكلمتين . ولا تخضع الكلمة المنحوتة الجديدة لقاعدة ثابتة عند تلاحم ما تبقى منها من الحروف . وتمثل الكلمتان المنحوت منهما الأصل أو البنية العميقة . أما الكلمة المنحوتة الجديدة فهي تمثل الفرع أو البنية السطحية .

٤- النحت بالزيادة يكون بحرف من حروف المعجم على الثلاثي مع غلبة الحروف الشفوية والذولقية (فر من لب) .

٥- الزيادة تكون غالبا الوسط ، وتدخله كل حروف المعجم مع غلبة الحروف الشفوية والذولقية.

٦- النحت بالزيادة يفيد المبالغة وغيرها وتشمل حقولا دلالية متنوعة (الإنسان ، والحيوان، والطبيعة ، والمصنوعات) .

٧- النحت من الصنفين يولد أفعالا وأسماء غالبا ما تكون رباعية على وزن فعلل، وخماسية على وزن تفعلل، كما يأتي على أوزان اشتقاقية متنوعة .

٨- النحت العربي "الداخلي" (١) مثله مثل النحت الأوربي "الخارجي" (٢) يقوم ، في المشتق منه ، على الصدور والأحشاء واللواحق (الابتداء والحشو والوقف عند الخليل) وعلى تمازج (٣) بنيتيه العميقتين لتوليد

* انظر الملحق رقم ٥ .

(١) سميناه بالداخلي لأنه نابع من نصوص العربية بالمقاييس ولسنا في حاجة إلى الاحتجاج له بمقابلته بالنحت الهند وأوربي .

(٢) سميناه "خارجي" باعتبار سعينا إلى إدراجه في قالب عربي . والغالب على النحت الأوربي الخارجي التركيب الإضافي لاستقلال مكوناته بمعانيها سواء معردة أو ملحقة مثل Para/chute أي المظلة وهي تتركب من Para التي تعني "الحامي من " و chute التي تعني "السقوط " وذلك مالا تعبر عنه " المظلة " العربية ومن هذا القبيل - Philo sophie .

(٣) المراد من النحت التوسع الدلالي في المعنى وتوليد معنى جديد لا الاختصار

بنية سطحية جديدة المراد منها التوسع (١) في الدلالة والسهولة والاقتصاد في النطق والاستعمال.

٩- النحت العربي الداخلي قياسي يمكن الاعتداد به والقياس عليه،بالمؤالفة والتوظيف المرن لوضع المصطلحات العلمية والتقنية المنحوتة في اللغات الرائدة. فكيف السبيل إلى ذلك؟

٢-٤ السبيل تبدو صعبة لأن غايتنا الرئيسية من هذا البحث تهدف إلى تأصيل النحت في العربية ، والتأسيس له نظريا في ألفاظها وتراكيبها من خلال مقاييس ابن فارس ، بقطع النظر عن ملاءمة نحتنا العربي الداخلي للنحت الأوروبي الخارجي،وعن التوافق في نقله إلى العربية باعتبار أن ذلك هو شغلنا الشاغل اليوم . وتزداد الصعوبة عند ما يعترض علينا بأننا قبلنا فرضية ابن فارس بأن الرباعي والخماسي منحوتان بزيادة أو بمزج ثلاثيين افترضهما افتراضا ، ويمكن لغيره أن يفترض غير ذلك من الأفعال ومعانيها . فكيف يحق أن نطبق ذلك على المنحوتات الأوربية الحديثة والقضية ما زالت موضوع أخذ ورد في

إن الإجابة عن هذه القضايا كلها ممكنة لأسباب عدة منها أن :

أ- دراستنا الإحصائية والبنيوية الاشتقاقية ولوحاتنا التحليلية قد أيدت بالمثال والرقم رؤية ابن فارس فيما يتعلق بالنحت المشتق. وهي تؤيد افتراض ابن فارس المتعلق بالنحت القياسي ، في انتظار نظرية أخرى تخالف ذلك، شريطة أن تعتمد على نصوص حجة ، وعلى نظام منتظم دقيق وكلي، مثل نظامه الذي فسر الظاهرة تفسيرا يحيط بالمطرد منها. فلا يكفي استنكار رأى ابن فارس بل يجب اقتراح نظام بديل له يقنع أهل الذكر . وفي انتظار ذلك فإن رؤيته سليمة قائمة .

ب- المقصود من الاعتماد على نظرية ابن فارس ليس التعويل على صحتها المطلقة لأن فيها سلبيات وهنات أشرنا إليها وإنما في نوعية المنهج ، وعلمية المنحى ودقة النصوص ، مما وفر لنا معلومات ونتائج تعتبر دليلا على مصداقيتها

---

١ (١) من مبادئ علم اللسان الحديث أن المتكلم يميل غالبا إلى الجهد الأدنى في الكلام . وهذا هو معنى الاختصار العربي .

التي يمكن الاعتداد بها في العصور الحديثة ، دون الارتباط ضرورة بتفاصيلها .

جـ التوظيف لها بالقياس والمؤالفة باعتماد مبادئها العامة ، ولاشك في أن ذلك صعب لأن الأمر يحتاج إلى دراسة ميدانية ، انطلاقا من أكثر من ٧٥٠ صدرا ولاحقة يونانية لاتينية أوربية(١)، ومما وضع لها الدارسون العرب من أيام النهضة إلى يومنا هذا من مقابلات تستحق التصنيف والتحليل والمقارنة ، مما يستدعي وضع مقاييس لغة عربية حديثة. وفي انتظار ذلك يمكن أن نلمح إلى بعض المقاربات التي تدل على أن توظيف رؤية ابن فارس ممكنة الاستعمال ، مثلما تدل عليه بعض العينات الغالبة في أعمال العلميين والمصطلحيين العرب المحدثين(٢). فلقد لاحظنا أنهم نحتوا نحتا قياسيا من كلمتين بأحد الحرفين الأولين منهما ومثال ذلك:

حراري نووي ـ حر نوي thermonuclear

أو بأخذ الحروف الثلاثة الأولى منهما . ومثال كهربية راكدةً ـ كهراكدة Electrostatic أو بصياغة فعلين ومزجهما. ومثال ذلك صياغة تحليل بالتيار الكهربائي ـ تحليل كهربائي ـ حلكهري electrolyse أما فيما يتعلق بالنحت المشتق فأمثلته كثيرة نقتصر منها على نوع جاء على مثال زرقم وضيفن عند ابن فارس فنقول :

تَخَلْوُن ـــــــ Glycemie

تَصفْرُن ـــــــ cholemie

تَحمْضُن ـــــــ Acidose

إن هذه الأمثلة تدعونا إلى توظيف رؤية ابن فارس ومؤالفتها ، وذلك من عمل المترجم والمصطلحي والاصطلاحي والمقيس (٣) ، مع اعتماد الاختصار لنقل المصطلحات التكنولوجية الطويلة وأسماء المؤسسات والهيئات والمنظمات مثل Issesco و unesco ... إلخ . ولا شك في أن هذه المسائل تمثل موضوعا آخر خارجا عن نطاق بحثنا هذا (٤) . فهل أصبنا في

(١) محمد رشاد الحمزاوي : المنهجية العامة لوضع المصطلحات وتوحيدها حيث يعرض لتلك الصدور ولواحقها وترجمتها الى العربية ، ولقد وضع مجمع القاهرة ما يقرب من ١٧ قرارًا في شأنها .

(٢) وجيه السمان ، السابق الذكر ص ٣٨٥ - ٣٦٤ .

(٣) المصطلحية الحديثة أصبحت من اختصاص من يعرف بـ Terminologue و terminograph و Normalist فضلا عن المترجم واللغوي واللساني .

(٤) وجيه السمان ، السابق الذكر حيث يعرض لأهم وجوهها التي تحتاج إلى دراسة تاريخية وصفية شاملة ، طمعا في وضع قوانين موحدة لها . وذلك ممكن الآن باعتبار ما توفر لنا من نصوص كافية للقيام بدراسة جدية وواعدة .

مغامرتنا هذه ؟ نرجو ذلك ، ولا لــــوم على من اجتهد على كل حال وأخطـأ . فله أجر واحد مضمون . وذلك جـــزاء عادل، آملين أننا بلّغنا رؤية ابن فارس ونزّلناها حق قدرها ولو جزئيا ، لأننا مـا زلنا نطمع في التعمق فيها والاســـتفادة منها في العصور الحديثة بحسب الإمكان.

محمد رشاد الحمزاوي

عضو المجمع المراسل من تونس

-الملحق رقم ١ -

" المنحوتات " و " الموضوعات" (١) حسب حروف المعجم

وفي الأجزاء الستة من المقاييس (٢) وحسب كل حرف .

الحرف المدخل	عدد الألفاظ المداخل	الحرف المدخل	عدد الألفاظ المداخل
الألف	٠	الطاء	٢١
الباء	٤٢	الظاء	٠
التاء	٩	العين	٧٦
الثاء	٤	الغين	١٤
الجيم	٥٠	الفاء	١٩
الحاء	٤٥	القاف	٣١
الخاء	٤٤	الكاف	٢٠
الدال	٤٨	اللام	٢
الذال	١	الميم	٠
الراء	٣	النون	٦
الزاي	٢٨	الهاء	٣٦
السين	٥٥	الواو	٠
الشين	١٦	الياء	٥
الصاد	٢٧	المجموع	٦٢٠
الضاد	١٩		

(١) نعني " بالمنحوتات " والموضوعات ما جاء منها منحوتا من كلمتين أو بزيادة حرف في الأول أو الوسط أو الآخر ، أو موضوعًا وضعًا لا يمكن تبريره وسنفصل فيها جميعها.

(٢) المقاييس حيث المنحوتات تحت كل حرف موزعة على كل أجزاء المقاييس الستة : الباء . ج ١/٣٢٨ - ٣٣٦ ؛ التاء : ج ١/٣٦٤ - ٣٦٥ ؛ الثاء : ج ١/٤٠٣ - ٤٠٤ ؛ الجيم : ج ١/٥٠٥-٥١٣ ؛ الحاء ج ٢ /١٤٣ - ١٤٨ ؛ الخاء : ج ٢ / ٢٤٨ - ٢٥٤ ؛ الدال : ج ٢ /٣٣٧ - ٣٤٢ ؛ الذال : ج٢ / ٣٧١ ؛ الراء : ج ٢ /٥٠٩ - ٥١٠ الزاي . ج ٣ / ٥٢ - ٥٥ ؛ السين : ج٣ / ١٥٧ - ١٦٣ ؛ الشين ج٣/٢٧٢ - ٢٧٤ ؛ الصاد : ج ٣ /٣٤٩ - ٣٥٣ ؛ الضاد . ج ٣/ ٤٠١ - ٤٠٣ ؛ الطاء ج ٣/ ٤٥٧ - ٤٥٩ ؛ الظاء ج ٣/٤٧٦ ؛ العين . ج ٤/٣٥٧ - ٣٧٣ ؛ الغين . ج ٤ / ٤٣٠ - ٤٣٢ ؛ الفاء : ج ٤ / ٥١٣ - ٥١٥ ؛ القاف : ج٥ / ١١٦ - ١١٩ ؛ الكاف ج ٥/ ١٩٣ - ١٩٥ ؛ اللام . ج ٥/ ٢٦٥ ؛ الميم ج ٥/ ٣٥٢ ؛ النون ؛ ج ٥/ ٤٨٣ - ٤٨٤ ؛ الهاء : ج ٦ / ٧١ - ٧٣ ؛ الياء : ج ٦ / ١٦٠

- الملحق رقم ٢ – النحت المشتق

حرف المعجم المدخل	عدد المداخل الثلاثية المزيدة بحرف أو أكثر	حرف المعجم المدخل	عدد المداخل الثلاثية المزيدة بحرف أو أكثر
الألف	٠	الطاء	١٠
الباء	١٥	الظاء	٠
التاء	٣	العين	٥٨
الثاء	١	الغين	٤
الجيم	١٧	الفاء	٥
الحاء	١٢	القاف	١٧
الخاء	١٥	الكاف	٦
الدال	٢٣	اللام	٢
الذال	٠	الميم	٠
الراء	٢	النون	٢
الزاى	١١	الهاء	١٠
السين	١٢	الواو	٠
الشين	١٢	الياء	٥
الصاد	١٦		
الضاد	١٠		

-الملحق رقم ٣ - حرف العين - النحت المشتق

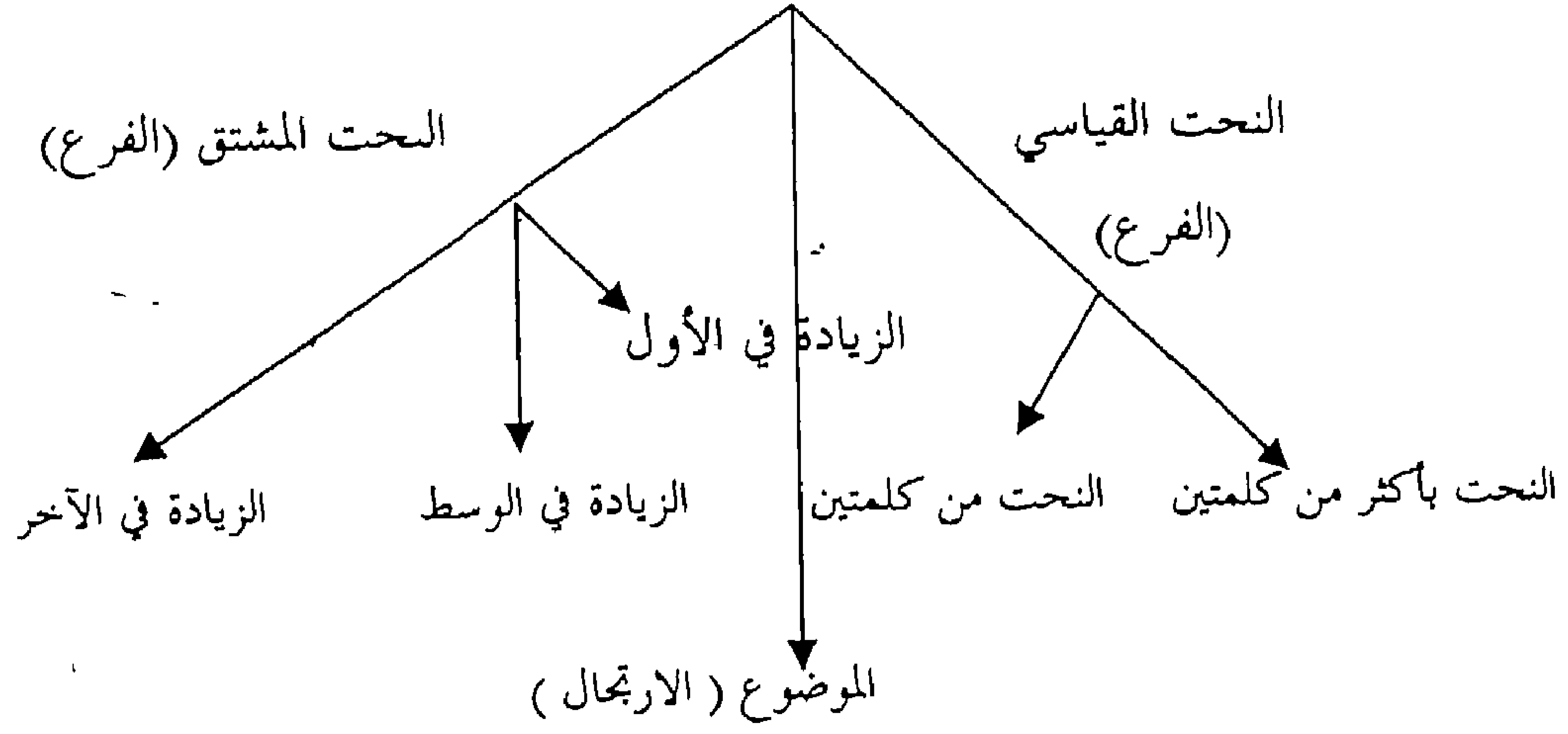
المدخل	حرف الزيادة	في الأول	في الوسط	في الآخر
علْجوم	م			×
عطبول	ط		×	
عمرس	ع	×		
عنتريس	ت		×	
عنترْ	ن		×	
عنبس	ن		×	
عملس	ل		×	
عرمس	م		×	
عربس	ب		×	
عبسورة	س		×	
عمروس	م		×	
عملص	ع	×		
عصفور	ع	×		
عرصاف	ع	×		
عَرصم	م			×
عَنصر	ن		×	
عنفص	ن		×	
عميْثل	م		×	
عرندد	ن		×	
يعفور	ي	× (١٤)		
عمرط	م		×	
عقنباة	ن/أ/ة		×	×
عنقفير	ف/ي/ر		×	×

الملحق رقم ٥

هيكل البنية النحتية العربية في المقاييس

النحت

الثلاثي (الأصل)



المصادر المعتمدة

باعتبار تتباعها في البحث

(١) محمد رشاد الحمزاوي : أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة - مناهج ترقية اللغة تنظيرًا ومصطلحا ومعجما - دار الغرب الإسلامي - بيروت - تونس ١٩٨٨-٦٣٧ صفحة.

(٢) مصطفى الشهابي : المصطلحات العلمية والفنية في اللغة العربية قديمًا وحديثًا -ط ثانية - دمشق ١٩٦٥ .

(٣) شوقي ضيف : مجمع اللغة العربية في عيده الخمسين ١٩٣٤ - ١٩٨٤ ط ١ أولى ١٩٨٤ - القاهرة ٢١١ صفحة .

(٤) عدنان الخطيب : العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية - دار الفكر دمشق ١٩٨٦ ؛ ٣٦٥ صفحة .

(٥) محمد رشاد الحمزاوي : من قضايا المعجم العربي قديمًا وحديثًا - بيروت - تونس - دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦ ؛ ٢٠٧ صفحة .

(٦) سيبويه - الكتاب - ٥ أجزاء تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة .

(٧) رمسيس جرجس : النحت في اللغة العربية ، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة - جزء ١٣ ص ٦١ - ٧٨.

(٨) ابن فارس (أحمد) : الصاحبي في فقه اللغة تحقيق المكتبة السلفية ١٩١٠ .

(٩) ابن فارس (أحمد) مجمل اللغة - تحقيق زهير عبد المحسن سلطان ؛ ٣ أجزاء مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٤ .

(١٠) ابن فارس (أحمد) : مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام هارون ؛ ٦ أجزاء القاهرة ١٩٧٩ .

(١١) محمد رشاد الحمزاوي : النحت في مقاييس ابن فارس والمعاجم العربية بحث مرقون ينتظر الطبع ؛ ٢٥٠ صفحة .

(١٢) جلال الدين السيوطي : المزهر في علوم اللغة . تحقيق محمد جاد المولى وآخرين(ب.ت) جزءان - القاهرة .

(١٣) مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط - القاهرة - جزءان .

(١٤) الخليل بن أحمد : كتاب العين - تحقيق المهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي - ٦ أجزاء - بغداد ١٩٨٨ .

(١٥) ابن جني : الخصائص تحقيق محمد علي النجار - ٣ أجزاء - بيروت .

(١٦) محمد رشاد الحمزاوي : المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها - بيروت - تونس ١٩٨٦ - دار الغرب الإسلامي ١٢٩ صفحة .

التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال

للأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله

اعتبر الفرنسيون اللغة العربية لغة أجنبية فى الجزائر ، كما اعتبروا لغتهم الفرنسية هى اللغة الرسمية ولغة السيادة ، وكان ذلك منهم موقفًا واضحًا من الدين الإسلامى أيضا، لأن اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم ولغة الحضارة التي كتب بها تراث الدولة الإسلامية . ومن جهة أخرى كان موقفا سياسيا واضحًا أيضًا لأن العربية كانت فى العهد العثمانى هى لغة البلاد الإدارية والقضائية والتعليمية . فإذا استثنينا الجهاز المركزى بالعاصمة (الجزائر) حيث كان الخلط بين العربية والتركية ، فإن إدارة الأقاليم والأوطان والجماعات والمدارس والمحاكم كانت كلها باللغة العربية . وهكذا فإن اعتبار اللغة الفرنسية هى اللغة الرسمية كان نفيًا لما عداها مما يعنى السيادة السياسية لفرنسا وضرب الدين الإسلامى ولغته وحضارته فى الصميم .

ولكن هذا لا يعنى استغناء الفرنسيين عن اللغة العربية . لقد فهموا أن حاجاتهم الإدارية والاجتماعية لا يمكن أن تنجز إلا باستعمال هذه اللغة . وقاموا من أجل ذلك بمحاولتين تبدوان متناقضتين : الأولى هى إهمال تدريس العربية الفصحى فى المدارس القديمة وذلك بقطع مصادر الوقف عنها . (١) والثانية هى الاكتفاء بتدريس العربية الدارجة لضباط الجيش والراهبين فى العمل الإدارى من المدنيين الفرنسيين، فى حين أنهم تركوا المسلمين يحفظون القرآن وحده فى الكتاتيب بدون دراسة للعلوم المساعدة على فهمه وتفسيره . ومن ثمة بقى القرآن فى الصدور دون الكتب ودون تطبيق تعاليمه على الحياة العامة . وبذلك كادت تختفى العلوم العربية (النحو والصرف والبلاغة والإنشاء والعروض) والعلوم الدينية (الفقه والتوحيد والحديث والتفسير) لولا وجود الزوايا القليلة التى تأثرت هى أيضا بالوضع السياسى العام (الاستيلاء على الأوقاف ، والحروب ، والاضطهاد) ومع ذلك واصلت تعليم العلوم المذكورة ولكن بطريقة تقليدية .

(١) صادر الفرنسيون أملاك الأوقاف الإسلامية التى كان يتغذى منها التعليم .

أما تدريس العربية الدارجة فقد تولاه الفرنسيون أنفسهم . حقا لقد بدأه بعض المستشرقين الذين رافقوا جيش الحملة ، مثل جونى فرعون (وهو سورى - مصرى) سنة ١٨٣٢م ثم واصله لويس برينييه الفرنسى منذ ١٨٣٦م.(١) ، وقد شاركه فى ذلك عدد آخر من المستشرقين الذين انتشروا فى غربى البلاد وشرقيها ، ومنهم شيربونو فى قسنطينة ، وما شويل فى وهران . وصدرت عن هؤلاء مجموعة من الكتب التعليمية بالعربية الدارجة والفرنسية ، وهى كتب تبدأ من اليسار إلى اليمين ، كما صدرت عنهم قواميس فى نفس الموضوع.وكان التلاميذ بين الخمسة عشر والثلاثين فى كل موسم .ومعظمهم كانوا عسكريين فى المرحلة الأولى (إلى ١٨٧٠م) ، وكانت تعقد لهم المسابقات وترصد الجوائز، ثم كانت تنتظرهم الوظائف فى المكاتب العربية العسكرية وفى الإدارة المركزية ، كما أن بعض المدنيين قد استفادوا من هذه الدروس . وقد أصبح الخريجون عادة مترجمين بدرجات متفاوتة (طبقات) تحدث عنها شارل فيرو فى كتابه (مترجمو الجيش الإفريقى) ، ويمكن أن نسميهم هنا مستعربين .

وهل يعنى هذا أن الفرنسيين لم يدرسوا اللغة العربية الفصحى ؟ الواقع أنهم قد فعلوا ذلك ، ومنهم هوداس وشيربونو ودى‌سلان وبرينييه وكور . وقد اعتبروها لغة ضرورية لبلادهم من الناحية السياسية والتجارية والعلمية،ونشروا منها نصوصا عديدة ، وترجموا من تراثها الكثير ، ولاسيما فئة المستشرقين المتأخرة أمثال باصيه وفانيان وهوداس وماسينيون. وقد استعانوا بمجموعة من الجزائريين فى هذا المجال نذكر منهم محمد ابن شنب والحفناوى بن الشيخ وعلي بن سمايه ومحمود كحول (ابن دالى) وعمر بوليفة .

وعاشت العربية الفصحى أيضًا فى المدارس الرسمية الثلاث التى بدأت تعمل سنة ١٨٥٠م(٢) ومرت هذه المدارس بمراحل من حيث البرمجة : مرحلة التعريب الكامل ، ومرحلة الفرنسية الجزئية (١٨٧٦م) ثم مرحلة ازدواجية البرنامج (العربى / الفرنسى) حين

(١) انظر فصل الاستشراق من كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافى) .

(٢) كان هدف المدارس الثلاث هو تخريج القضاة المسلمين لأن الإدارة الفرنسية تحتاجهم وكان فى كل إقليم مدرسة (تلمسان للغرب والعاصمة للوسط وقسنطينة للشرق) .

وضعت تحت إشراف مستشرقين فرنسيين منذ التسعينيات من القرن الماضى. وكانت الدراسة بالفرنسية فى المواد الفرنسية ، كما أن الإدارة وطرق التعليم كانت أيضًا فرنسية . ولذلك كانت اللغة العربية الفصحى غريبة حتى فى المدارس الرسمية – فى المرحلتين الأخيرتين – فهى كما قلنا تدرس كلغة أجنبية ، وكانت وسيلة تعليمها هى اللغة الفرنسية طبعا ، وكذلك كان حال العربية فى مدرسة ترشيح المعلمين (١) أو فى الثانويات الفرنسية .

ذكرنا أن الفصحى ظلت تقاوم فى بعض الزوايا التى سمح لها بالنشاط التعليمى ، مثل زوايا زواوة ، وزاوية الهامل وزاوية طولقة . وكانت المساجد الرسمية قد حافظت أيضا على الفصحى إلى حد كبير من جهتين : الجهة الأولى هى الخطب الدينية ، فهى على بساطتها وسذاجتها كانت بالعربية الفصحى ، ومن ثمة تأتى العلاقة بين العربية والدين ، مما جعل بعض الفرنسيين يشبه العربية باللاتينية فى الكنائس ويحكم بأنها لغة ميتة كاللاتينية أيضًا . والجهة الثانية هى بعض الدروس التى رخص بها الفرنسيون، وقد كانت الدروس فى أول الأمر مقتصرة على جمهور محدود من عامة الناس القريبين من المسجد وعلى موضوع محدود هو الفقه والتوحيد . ولكنَّ المدرسين كانوا- باستثناء عدد منهم- يستعملون اللغة القريبة من الفصحى بحكم النصوص التى ينقلون عنها وتأثرهم بالمدرسة " الرسمية " التى تخرجوا فيها . وكان هؤلاء المدرسون قد سمح لهم فى نهاية القرن الماضى بتطوير تدريبهم ليشمل الشباب والتلاميذ المرشحين للمدارس الرسمية الثلاث وليشمل أيضا موضوعات غير دينية كالنحو والأدب والبلاغة . وإلى جانب هذه الدروس " الرسمية " رخصت الإدارة لبعض المدرسين الأحرار بإلقاء دروس فى مساجد قراهم حول نفس الموضوعات . وهكذا كانت اللغة العربية الفصحى تنافس العربية الدارجة والبربرية " والفرنكفونية " . وكل ذلك كان قبل ظهور الحركة الإصلاحية بين الحربين ،

(١) أول مدرسة لترشيح المعلمين تأسست حوالى سنة ١٨٦٥م ثم أخذت تتطور إلى أن نضجت فى الثمانينات من القرن الماضى ، وكانت تسمى (مدرسة النورمال) ومقرها بوزريعة . وكان فيها قسمان : واحد خاص بالفرنسية وآخر خاص بالأهالى . فأنت تلاحظ أن العنصرية كانت واضحة فى مجال التعليم والتكوين . وأول (ليسيه) فرنسى افتتح فى الجزائر خلال الستينات من القرن الماضى ، وقد بنى على أنقاض مقبرة إسلامية وبعض المساجد والقباب ، وهو حاليًا ثانوية الأمير عبد القادر .

وانطلاق مدارسها ودروسها فى التعليم والوعظ بالعربية الفصحى المتطورة.

وإلى جانب العربية والتركية كان بالجزائر غداة الاحتلال لهجات كثيرة عربية وبربرية ، بالإضافة إلى لهجة ساحلية (لغة إفرنكية) يتحدث بها أصحاب السفن وعمال الموانئ والتجار . إن اتساع رقعة الجزائر جعل استعمال لهجة واحدة غالبة وشيوعها أمرًا مستحيلا عندئذ . كما أن نظام الحكم نفسه ساعد على عزلة الناس بعضهم عن بعض، فهو حكم أقلية غريبة عن أهل البلاد ، فظلت متقوقعة على نفسها . ونتيجة لذلك كانت العاصمة فقط من حيث المركزية السياسية والسلطة . أما ثقافيًا وحتى تجاريًا فلم تكن هى عاصمة البلاد . وكان كل إقليم له عاصمته . وكانت السلطات الإدارية (المخزنية) قد جعلت البلاد تشكل وحدات (فيدراليات) مستقلة ولكن دون حدود تجارية ولا تعليمية . وهذا الوضع كله قد ساعد على بقاء اللهجات مجهولة عند بعضها سواء أكانت لهجات عربية أو غيرها.أما التركية فلم تكن معروفة خارج الإدارة المركزية بالعاصمة والثكنات . وقد كانت وسيلة التواصل بين الجزائريين هى اللغة العربية ، مهما تباعدوا فى المكان وهى لغة الكتابة عندهم ، ولغة الخطاب الرسمى ، واللغة الأدبية والدينية. وبها كانوا يتعلمون وبها يحررون السجلات القضائية والمداولات العرفية ، ويعقدون الاتفاقات الدولية والصفقات التجارية ، بالإضافة إلى تأليف الكتب وقرض الشعر .

وكان على الفرنسيين منذ البداية أن يدرسوا اللغة العربية ولهجاتها لينجحوا فى مهمتهم. وقد فهموا ذلك رغم غيرتهم على لغتهم التى كانوا يسمونها لغة "السادة" وفهموا أنه لا التركية ولا اللهجات العربية أو البربرية ولا الخليط الساحلى الإفرنكى (اللغة الإفرنكية) سيجعلهم يفهمون الجزائريين وتراثهم . لذلك عقدوا العزم على تعلم العربية مهما كان الثمن ، وبرروا ذلك بأنه لا يمكن مطالبة المغزوين (الجزائريين) بتعلم لغة الغزاة(الفرنسيين) فورا. وكان الرأى العام كله مع هذه الفكرة حسبما جاء فى كتاب فورميسترو Fourmestrout (١) .

(١) نقل ذلك أغست كور " ملاحظات على كرسى اللغة العربية " (فى المجلة الإفريقية) ، ١٣٨، ص ٢٠ ، من كتاب فورمسترو (التعليم العمومى فى الجزائر من ١٨٣٠ - ١٨٨٠م) باريس ١٨٨٠م .

ولقد أكد ذلك أكثر من واحد خلال فترة الاحتلال الأولى، فسهذا بريسون، المتصرف المدني سنة ١٨٣٦م، كتب إلى المفتش العام للتعليم قائلا: إن مهمة فرنسا فى الجزائر تتوقف على دراسة اللغة العربية والتوسع فيها، من أجل التعرف على الأهالى والاتصال بهم، كما أن الاستعمار نفسه (الاستيطان واستغلال الأرض) يتوقف على معرفة اللغة العربية. ولا يكفي فى ذلك الاعتماد على المترجمين. ومن جهة أخرى أكد بريسون على ضرورة دراسة اللهجات أيضًا كلما توسع الاحتلال فى الجزائر، وأخبر أن الإدارة سوف لا تقبل مستقبلا من الفرنسيين إلا الذين يعرفون العربية والفرنسية (١).

وفى نفس هذا المعنى أعلن الدوق دورليان، وهو ابن الملك لويس فيليب (قد شارك فى عدة حملات عسكرية، واجتاز مع الجيش الفرنسى مضائق البيبان قادما من قسنطينة إلى العاصمة عن طريق البر سنة ١٨٣٨م، وهو الاجتياز الذى تسبب فى أزمة ثم حرب بين الأمير عبد القادر والفرنسيين) قال دورليان: إن معرفة اللغة العربية ضرورية لتقريبنا مع الجزائريين، وإن الجيش الفرنسي الذى عبر البيبان كان يعرف العربية ومن ثمة كان نجاحه فى العبور، ولم يكن الجيش فى حاجة إلى مترجمين لأن هؤلاء قد أساءوا فى نظره أكثر مما أحسنوا (٢).

وهذا جان بوجولا، مؤرخ عهد بوجو والمتحمس كثيرا لاستعادة الكنيسة الكاثوليكية أعلن أن الأوربيين كانوا، سنة ١٨٤٤م، يتعلمون اللغة العربية لتكون علاقتهم مع الأهالى أكيدة ومنتجة. وأعلن أيضًا أن تعلم اللغة العربية شرط أساسى لتسريب الأفكار والعادات والثقافة الفرنسية إلى الأهالى. وطالب بحرية رجال الدين والنصارى فى تعلمها لكى يتصلوا بالأهالى ويبثوا الأفكار النصرانية عن طريقها. (٣)

وكان المارشال بوجو قد أصدر قرارا بأن تكون اللغة العربية شرطا أساسيًا فى الوظيفة ابتداء من يناير ١٨٤٧م. وجرى

(١) الرسالة نشرتها الجريدة الرسمية (المونيتور الجزائرى)، ١٠ من فبراير ١٨٣٧.

(٢) الدوق دورليان (قصة حملة) باريس، ١٨٩٢، ٢٥٨. من الغريب أن يقول دورليان أيضا إن الخمر كانت من بين الوسائل التى استخدمها الفرنسيون بنجاح. وقد تحدث أكثر من واحد عن نشر الجيش الفرنسى الخمر بين الجزائريين ولاسيما الشباب والأغرار.

(٣) جان بوجولا (دراسات إفريقية)، ١١، ص ١٧٦.

التحضير لذلك بالمسابقات والجوائز والامتحانات . وكان لويس برينييه هو المشرف على هذا البرنامج . وهكذا عمت العربية فى الإدارة المدنية المركزية والمكاتب العسكرية المتصلة بالأهالى سواء فى العاصمة أو خارجها . ونشطت حركة الترجمة وتوسعت حلقات اللغة العربية فى وهران وقسنطينه . وبدأ الحديث عن إنشاء معهد عربى - فرنسى فى فرنسا لاستقبال أبناء العرب ثم أنشئ فى الجزائر المعهد النابليونى (السلطانى) بدلا منه سنة ١٨٥٧م . ويقول أوغست كور إن العربية يمكن أن تقدم لفرنسا فوائد جمة لأنها كانت لغة الحديث منذ قرون . وهو يضيف بأن العربية لن تمكن الفرنسيين من فهم الذين يحكمونهم فقط ولكن ستمكنهم من تذويقهم طعم الحضارة الفرنسية . وتوسع كور فى هذا المعنى قائلا: إن دراسة أدب الجزائريين سيؤدى إلى معرفة عبقريتهم وأصالة فكرهم وشعرهم المؤثر ومعرفة كتبهم فى مختلف العلوم ، ومن ثمة معرفة أصول أفكارهم وأحكامهم وتقاليدهم .(١)

وهناك آراء أخرى عديدة من العسكريين والمدنيين ، السياسيين والمستشرقين ، وكلها كانت تحث على تعلم اللغة العربية كوسيلة لفهم الجزائريين ونشر الثقافة الفرنسية بينهم . وقد أضيف إليها منذ آخر القرن الماضى محور آخر وهو بناء الروابط التجارية والسياسية مع البلاد العربية والإسلامية . ولكن هذه الآراء لم تكن آراء كل الفرنسيين فى القرن الماضى ، فقد انتصرت عندئذ السلطة فى فرض اللغة الفرنسية وأصبح المغلوبون هم الذين عليهم أن يتعلموا لغة الغزاة على حسب تعبير بعض الكتاب . والغريب أنه بقدر ما كان الفرنسيون مؤمنين بضرورة تعلم العربية لأنفسهم كانوا يمنعون الجزائريين من تعلمها ، رغم أنها لغتهم القومية والوطنية والدينية .

ومنذ التسعينيات انطلقت الدراسات الاستشراقية للهجات العربية فى الجزائر . ويعترف رينيه باصيه الذى كان مديرًا لمدرسة الآداب بالجزائر سنوات طويلة أن هذا الاهتمام بدأ حوالى ١٨٩٠م . ونتيجة لذلك أخذ كل مستشرق يدرس لهجة أو أكثر فى المدن والأرياف ، فكان يذهب لزيارة المكان ويتصل بأهله ، وربما يستعين بتلاميذه الجزائريين فى

(١) كور " ملاحظات على كرسى اللغة العربية " (فى المجلة الإفريقية) ١٣٨ ، ص ٣١ - ٣٢ .

الناحية ، ويأخذ فى جمع المادة والمقارنة ثم يكتب دراسة لينشرها مسلسلة فى المجلات ثم كتابا فى المطبعة . وهذا لا يعنى أن دراسة اللهجات العربية لم تبدأ إلا سنة ١٨٩٠م، ولكن يعنى أن الخطة قد وضعت عندئذ لتطوير الدراسات وتوسيعها للوصول إلى غرض اجتماعى وسياسى، وهو حصر اللهجات ومعرفة الأصول اللغوية والعرقية للسكان، ومدى تأثير لهجة ما على ما جاورها، وكيف تنقلت القبائل عبر العصور واستوطنت جهات عديدة رغم أنها قد تكون من أصل واحد .

وفى هذا النطاق صدرت دراسات عن اللهجات الآتية (لاحظ أنها غير خاصة بالجزائر) : دراسة عن أشراف سيق، ووهران ، وأولاد إبراهيم بسعيدة، وتلمسان ، ومدينة الجزائر وقسنطينة ، ثم لهجة طنجة ولهجة الحسنية بموريطانيا ، ولهجة الجبالة . وأنت لا تكاد تفتح كتابا أو مجلة عندئذ إلا وجدت دراسة عن لهجة كذا أو لهجة كذا .. LE PARLE ARABE DE . وقد اختص بعض المستشرقين بلهجة أو ناحية أو ظاهرة أدبية ، مثل اهتمام الإسكندر جولى فى أول هذا القرن بالشعر العربى الشعبى فى البوادى .

وبينما كانت المؤسسات الحكومية ، بل الحكومة نفسها ، تدفع تكاليف الطبع وتخصص الجوائز لطبع الدراسات الخاصة باللهجات البربرية - فى الجزائر والمغرب - لا نجد الحكومة ولا مؤسساتها تساهم فى طبع دراسات عن اللهجات العربية . وربما يعود ذلك إلى أن عدداً كبيرا من المؤلفات قد ظهرت بالعربية الدارجة منذ الاحتلال ، وقد أشرنا إلى ذلك . يقول رينيه باصيه : ظهرت منذ الاحتلال ، أكوام من المعاجم والقواميس وكتب المحادثة ومجموعات الرسائل بهدف تعليم العربية الدارجة . إنها مكتبة كاملة . أما الدراسة العلمية للهجات العربية فلم تبدأ إلا حوالى سنة ١٨٩٠م . (١) ويؤكد هذا قول أوغست كور أن المسئولين الفرنسيين لم تختلف نظرتهم إلى اللغة العربية (الدارجة) لا فى أهمية دراستها من الناحية السياسية ولا فى مبدأ تعليمها إلى نهاية القرن التاسع عشر .(٢) وكانت هذه القناعة العامة ترجع إلى التقرير الذى

(١) رينيه باصيه " تقرير عن جهود فرنسا العلمية " (المجلة الأسيوية) ، ١٩٢٠ ص ٩٣ .

(٢) أوغست كور " ملاحظات على كرسى اللغة العربية فى (المجلة الإفريقية) رقم ١٣٨ .

كتبه سولفى ch. Solvet سنة ١٨٤٦م وأوصى فيه بضرورة تعليم العربية (الدارجة) لتوفير المترجمين الإداريين والاحتياطيين لدفع فكرة "التقدم" ودمج الأهالى إذا أمكن . (١)

أما عن تمسك الجزائريين باللغة العربية ونضالهم من أجلها فله أدبيات كثيرة لا يتسع المقام لذكرها هنا جميعا . ويكفى أن نذكر فصلا عمما يسميه جوزيف ديبارمى بـ " ردود الفعل اللغوية " . لقد احتج أوائل الجزائريين ضد التعسف الذى ضرب مؤسسات التعليم العربى منذ الاحتلال وفرض الفرنسية .

ونشير هنا إلى قصة المفتى مصطفى الكبابطى سنة ١٨٤٣م فقد كان موقفه الرافض لإدخال الفرنسية فى المدارس القرآنية سببا فى عزله من وظيفته ونفيه إلى فرنسا ثم الإسكندرية . (٢) ويقول ديبارمى: إن الأهالى سرعان ما شعروا بالخطة الفرنسية وخطورتها على اللغة العربية ، لأنها خطة تؤدى إلى إماتة هذه اللغة ودراستها فقط كلغة ميتة ، فوقف الجزائريون ضد هذه الخطة من البداية .

وقد علموا أن الأساتذة الذين عينهم الفرنسيون منذ جونى فرعون ، كانوا يسمون أساتذة اللغة العربية الدارجة ، وأن هذه الدارجة لا تكتب ، وأنها لهجة شفوية ينشد بها المداحون فى الاحتفالات والأعراس وليالى الطرب . وكان ديبارمى (وهو من تلاميذ باصيه) ضد استعمال الفصحى ، لأنها لغة القرآن - اللغة المقدسة على حسب تعبيره - ولأنها تفصل الجزائريين عن الفرنسيين ، وتجعل هؤلاء لا يعرفون " أسرار المسلمين " لأن هذه الأسرار لا تكون إلا بالدارجة. (٣)

ويقول المستشرق فيليب مارسيه سنة ١٩٥٦م إن المتعلمين بالعربية فى الجزائر قليلون جدا، وهم، على حسب تقديره، لا يتجاوزون عشرة آلاف . وليس لهم معرفة بالنصوص الصعبة . ولكنه لاحظ أنهم سواء كانوا متعلمين أو نصف متعلمين أو مبتدئين فإن لهم رغبة مشتركة ومخلصة ، وأحيانًا رغبة حادة فى معرفة أكثر عمقا للعربية والحصول من الفصحى على نصيب أوفر يستطيع أن يدغدغ عواطفهم ويشرف هيبتهم كمسلمين. (٤) إن هذا الشعور الصادق

(١) جوزيف ديبارمى " رد الفعل اللغوى " (الجمعية الجغرافية للجزائر وشمال إفريقية) ١٩٣١ ، ص ١٩ .

(٢) درسنا قضيته بالتفصيل فى موضوع خاص . أنظره فى (أبحاث وآراء) ج ٢ . ط ٢ بيروت ، ١٩٩١م .

(٣) ديبارمى " رد الفعل اللغوى " فى (المجلة الجغرافية للجزائر وشمال إفريقيا) ، ١٩٣١، ص ١٩ - ٢٠ .

(٤) فيليب مارسية " التساكن فى الجزائر " فى السكرتارية الاجتماعية لمدينة الجزائر) ١٩٥٦م ، ص ٥٧ .

لدى الجزائريين فى ضرورة تعلم لغتهم والالتصاق بها والمحافظة عليها كان واضحًا فى مختلف المطالب والعرائض الفردية والجماعية والحزبية التى صدرت عبر مراحل الاحتلال . ولنشر إلى مقالات أحمد بن بريهمات فى الثمانينيات من القرن الماضى ، وعرائض أهل قسنطينة فى نفس الفترة ، وكتابات محمد ابن رحال فى نهاية التسعينيات ، وعريضة رؤساء عدة بلديات من نواحي قسنطينة وهى العريضة المسماة " مقالة غريق " والموجهة إلى لجنة مجلس الشيوخ الفرنسى (١٨٩٢م) . وفى ١٩٠٤م طالب الوفد الزواوى (القبائلى) فى مجلس الوفود المالية بتكوين مدرسة رسمية فى بجاية على غرار مدرسة تلمسان وقسنطينة والثعالبية بالعاصمة،لتحفظ التراث العربى الإسلامى،ولكن السلطات الفرنسية رفضت الطلب متعللة بعدم وجود ميزانية.

وفى ١٩٢١م وقف محمد بن رحال أمام مجلس الوفود المالية ونادى بضرورة تعلم اللغة العربية فى المرحلة الابتدائية قائلا إنها هى اللغة الأم لملايين الأطفال المسلمين . وقد تساءل ابن رحال : كيف يعبر شعب بدون لغة عن أفكاره أو يتصور أفكار الآخرين ، أو يثقف نفسه ويصلح أخلاقه وسلوكه ؟ وهاجم أولئك الذين يرون آلاف الأطفال وهم لا مدارس لهم سوى كتاتيب فيها ألواح لحفظ القرآن وبعض الحروف العربية ، ويزعمون مع ذلك أنهم لا يتعلمون إلا التعصب ، ويطالبون من أجل ذلك بغلق هذه الكتاتيب . ولذلك نادى ابن رحال بتعضيد التعليم الإسلامى الابتدائى لأن المسلمين يدفعون الضرائب لميزانيته ، ولأن ذلك من مصلحة الجزائريين والفرنسيين معا " مصلحتنا ومصلحتكم".وكان هذا الرأى سببا فى الهجوم على صاحبه من قِبَل أعداء التعليم العربى من الكولون . وقد علمنا أن زملاءه النواب فى المجلس قد أيدوه (١).

وقد نقل ديبارمى عن جرائد الوقت، ومعظمها صدر خلال العشرينيات، مثل النجاح والمغرب (لأبى اليقظان) والبلاغ والشهاب. فقال إن المغرب نشرت فى عددها الأول دعوة إلى الشباب ليتعلم العربية الفصحى (٢٦ مايو ١٩٣٠م) لأنها لغة القرآن والرسول

---

(١) عبد القادر جغلول " عناصر من التاريخ الثقافى " ، ١٩٨٤م ، ص ٥٨ نقلاً عن جريدة " صدى الجزائر " الفرنسية ، ١٨ يونيه ١٩٢١م . وقد نقل ذلك ديبارمى أيضًا فى المرجع السابق ، ص ٢٢ .

صلى الله عليه وسلم . ونقل عن البلاغ قولها إن العربية لغة الملايين وإنها مقدسة (٢٣ يناير ، ١٩٣١م) أما النجاح فنقل عنها أنها كتبت مقالة عنوانها " اللغة العربية فى الجزائر " وقالت إنها هى أساس القومية المغاربية والدين الإسلامى . وقد نقل عن جريدة الإقدام سنة ١٩٢٣م أنها قالت إن تخلى الإنسان عن لغته (العربية) يعتبر انتحارا . وأخبرنا ديبارمى الذى تابع الموضوع بدقة ربما مبالغ فيها ، أن الأهالى جميعا يعتبرون المسألة اللغوية مسألة حياة أو موت للشعوب المغاربية . وهم الآن قد وضعوها موضع الدرس والاهتمام . وأعترف ديبارمى أن العربية الفصحى قد عرفت سقوطا تدريجيا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ثم تسارع سقوطها،على حسب رأيه،خلال النصف الأول من هذا القرن. ولكن الجزائر تشهد الآن (١٩٣١) "ثورة لغوية " وهو أمر لا يحتاج إلى تفسير . ذلك أن المثقفين بالعربية أصبحوا يرفضون الدارجة والفلكلور والشعر الملحون باعتباره " كلام العوام " (١)

وقد فسر ديبارمى هذه الثورة اللغوية بالتطور السياسى لبلاد المغرب عمومًا . ذلك أن هذه المنطقة تتقوقع عادة حول نفسها إذا ما حاصرتها الدول الإسلامية (الخلافة من المشرق أو من المغرب ، كما يقول) فتصبح مهتمة بالفكرة الإقليمية أكثر من الفكرة الإسلامية أو العالمية . أما فى وقتة هو فقد أصبحت بلاد المغرب العربى محاصرة بدولة نصرانية (فرنسا) لذلك كان على أهل هذه البلاد أن يبحثوا عن قواعدهم فى الأصالة والرجوع إلى الجسور القديمة والروابط الإسلامية . وأول ما يفعله مواطن هذه البلاد عندئذ هو أن يتكلم لغته . واستشهد بكلام جريدة النجاح (أول يناير ١٩٣١م) الذى وجهته إلى الشباب طالبة منهم الإبقاء على الفصل بين العربية والفرنسية وأن لا يرطنوا بكلام عربى ممزوج بالفرنسية . وفى عدد آخر من النجاح نفسها (١٥ يناير ١٩٣٠م) قالت : إن العربية هى لغة آبائنا وأجدادنا ولغة نبينا وكتابنا المقدس ، وعلينا أن نحميها وننشرها . وأضافت البلاغ أن العربية والعقيدة توأم (٢١ أكتوبر ١٩٣٠م) وأن دراسة العربية تضمن للجزائرى الشخصية أو الذاتية والجنسية، فى حين أن دراسة الفرنسية تجعله لا

(١) ديبارمى ، مرجع سابق ، ص ٢ - ١٠ .

يعرف ، حسب رأى ديبارمى ، سوى تاريخ فرنسا وأفكارها . وقالت النجاح إن النصوص باللغة العربية هو خدمة للوطنية. وروى ديبارمى أن أطفال المدارس إذا رددوا أن أجدادهم هم سكان بلاد الغال (فرنسا) فإن أطفالاً آخرين يجيبونهم بأن أجدادهم هم العرب المسلمون وأنهم يتصلون بهم عن طريق اللغة العربية كما يتصلون بالرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الشرق .

واللهجة العربية فى الجزائر - والمغرب العربى - يسميها ديبارمى فى شىء من السخرية البوربرى beurbri . وهى العربية الفصحى بعد أن عجمت ودخلت عليها الأصوات والتأثيرات البربرية وغيرها . وقد سخر ديبارمى حتى من أستاذه (هوداس) لأنه نصح باستعمال الفصحى بدل الدارجة ، وعندما طلب هوداس من المعلمين التحدث بالفصحى " ابتسموا منه " . وهكذا أصبحت الدارجة عند ديبارمى ومدرسته هى لغة أهل المغرب العربى المتبربرة. ولكن هل ذلك ينفى اللهجات البربرية ؟ إن ديبارمى لا يجيب على ذلك، ويكتفى بالقول إن جميع الأشعار الملحونة التى صيغت بالعربية الدارجة إنما هى فى نظره بالبوربرية . فهى موجودة فى أشعار الشعراء الذين مدحوا الأمير أو هجوه ، وهى موجودة فى النثر غير الخاضع للقواعد النحوية والبلاغية . وقد كانت هذه اللهجة الملحونة هى لغة الشعر والنثر - على حسب رأيه - عند الاحتلال . ولم يبق للعربية الفصحى عنده إلا مجال اللغات الميتة ، وهى النصوص الفقهية والقضائية والصلوات ، بعد أن حوصرت على كل الجبهات : وهو يعنى الجبهة الفرنسية والجبهة البوربرية (الدارجة) وجبهة اللهجات البربرية .

وقد ذكرنا أن ديبارمى يعتبر الفصحى قد ماتت إلا فى بعد النصوص الدينية ، وأن البربرية أيضا قد تقلصت وكادت تضمحل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثم تسارع سقوطها فى النصف الأول من القرن العشرين . وقد استشهد بكلام صاحب كتاب (الكنز المكنون) عندما قال إنه نشر الأشعار الشعبية الدارجة (البوربرية) لأنه يعتقد أن الناس قد نسوها بعد أن كانوا راضين عنها فى الماضى ، ولعلهم قد

أضاعوها تماما . ومن رأى ديبارمى أن صاحب الكتاب المذكور قد وجه تلك الأشعار إلى العامة " الأميين " الذين لا يتدوقون طعم الأدب ، ثم إلى طلبة الزوايا " المتعلمين " حيث مايزالون يتذوقون اللغة . ولكن الأمر اختلف بعد بضع سنوات ، وحدثت " الثورة اللغوية" على حسب تعبير ديبارمى ، وهى التى كلفت تقودها الصحف العربية المكتوبة باللغة المقدسة وبلغة قريش القديمة وهى ظاهرة تحتاج فى نظرة إلى تفسير (١).

والذى ننتهى إليه من ذلك هو أن الجزائريين عن طريق نوابهم وصحفهم وسياسييهم قد نادوا بتعلم اللغة العربية وربطوا بينها وبين الدين ثم بينها وبين الوطنية والجنسية . ولا داعى لإيراد نماذج أخرى من منقولات جوزيف ديبارمى عن ردود الفعل اللغوى من خلال الصحف التى صدرت قبل١٩٣١م وقد نشأت جمعية العلماء فى هذه السنة (١٩٣١م) وكان برنامجها ينص على أن تعليم اللغة العربية يمثل حجر الزاوية فى وجودها ، وكل أدبيات الجمعية وجرائدها وخطب رجالها وأعمالهم تشهد على ذلك . ولا نرى داعيا لإيراد شواهد على ما نقول عنها (٢) إنما نذكر أن المؤتمر الإسلامى الجزائرى لسنة ١٩٣٦م قد طالب بالحرية الكاملة فى تعلم اللغة العربية وإلغاء كل ما اتخذ ضدها من إجراءات وقوانين والتوقف عن اعتبارها لغة أجنبية والاعتراف بها لغة رسمية (٣) ومنذ ١٩٣٣م نادى نجم شمال إفريقيا بتعليم اللغة العربية إجباريا وقد نصت المادة الثالثة من برنامجه على أن اللغة الرسمية للبلاد ستكون هى اللغة العربية. ونصت المادة السادسة على أن التعليم سيكون باللغة العربية ومجانا وإلزاميا فى جميع المراحل (٤) وقد نادى المؤتمر العام لحزب الشعب الجزائرى سنة ١٩٣٨م بإصدار مرسوم يجعل تعلم اللغة العربية إجباريًا فى جميع المستويات على غرار الوضع فى المغرب وتونس والمشرق العربى. كما طالب بتأسيس كلية للآداب العربية بجامعة الجزائر إلى جانب تدريس

(١) ديبارمى ، مرجع سابق ١٩٣١ ، ص ٩٦٢

(٢) القانون الأساسى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين . طبع عدة مرات بالعربية والفرنسية أولها سنة ١٩٣١م .

(٣) الشهاب عدد خاص يوليه ١٩٣٦م وكذلك كتابنا الحركة الوطنية ٣/٢٥٥ .

(٤) عبد الحميد زوزو (دور المهاجرين الجزائريين فى الحركة الوطنية) طبع ١٩٨٠م ، ص ١٨٨-١٨٩ .وكان النجم قد طالب منذ ١٩٢٧م فى بروكسيل " بإنشاء المدارس باللغة العربية " انظر محفوظ قداش (تاريخ الحركة الوطنية) ٢/٩٠٩ .

التاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع باللغة العربية، وتحويل المدارس الثلاث الرسمية إلى جامعات إسلامية يدرس فيها بالعربية أساتذة مسلمون (جزائريون) (١).

وفى (البيان الجزائرى) الذى صاغه وقدمه فرحات عباس وزملاؤه باسم الشعب الجزائرى إلى الحلفاء ١٩٤٣ وردت المطالبة أيضا بالاعتراف باللغة العربية لغة رسمية على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية (٢) وقد أكدت ذلك مختلف الوثائق الرسمية الصادرة عن فروع الحركة الوطنية بين ١٩٤٥م و ١٩٥٤م. ونتيجة لذلك الضغط المتواصل واعترافا بالأمر الواقع أعلن الفرنسيون سنة ١٩٤٧م فى القانون الخاص بالجزائر أن تعليم اللغة العربية سيكون إجباريًا ورفعوا عنها صفة اللغة الأجنبية (٣)

ومند الثلاثيات ظهرت حملة منسقة ضد اللغة العربية باعتبارها أحد مقومات الهوية الوطنية ، وتجلت الحملة فى غلق المدارس الحرة والتأكيد على اعتبار العربية لغة أجنبية واضطهاد المعلمين الأحرار ، وعدم الترخيص بفتح المدارس، وقمع الصحف العربية، وصدور تصريحات معادية تولاها كبار المسئولين الفرنسيين، كما أطلقوا العنان لبعض الاندماجيين الجزائريين لمهاجمة القومية العربية والوطنية والدعوة إلى أن الفرنسية هى لغة الحضارة للجزائريين (٤) كما أن الصحف الفرنسية ذات الاتجاهات المختلفة ، بما فيها الاتجاه الشيوعى والاشتراكى ، أخذت تهاجم اتجاه جمعية العلماء والحركة الوطنية . وقد صرح الجنرال (كاترو) بأن عشرين مدرسة فرنسية ستؤدى إلى اختفاء اللغة العربية تماما من الجزائر خلال عشرين سنة . ونادى وزير العدل (ريكار) وغيره بترجمة القرآن إلى الفرنسية وفرضها على الشعب، وحذف كل ما يمت بصلة إلى النخوة القومية من القرآن، وبمنع المسلمين من تعلم العربية .

---

(١) المؤتمر العام لحرب الشعب الجزائرى ٢٣ - ٢٤ عشت ١٩٣٨م .

(٢) سعد الله ، الحركة الوطنية ٣/٢٦٤ .

(٣) عبد الرحمن العقون (الكفاح القومى) ٣/٤٤ . عن " حرية تعليم اللغة العربية " كما جاء فى ملحق (البيان الجزائرى) ٢٦ من مايو ١٩٤٣م انظر محفوظ قداش (تاريخ الحركة الوطنية) ٢/٩٥٢ وعن موقف حرب البيان سنة ١٩٤٨م وهو "ترسيم اللغة العربية والتعليم الإجبارى لها " انظر قداش ٢/٩٩٠

(٤) أحمد لعيمش فى (مجلة الجمعية الجغرافية للجزائر وشمال إفريقيا)، رقم ٩٦ . وقد أشار إلى ذلك ديبارمى فى المرجع السابق، ١٩٣١م ص ٣١ وكان السيد لعيمش محاميا فى محكمة الاستئناف فى الجزائر . ولم يكن لعيمش وحده فى هذه الدعوة .

وطالب بعض الفرنسيين أيضا بعدم الترخيص لأى معلم ليعلم بالعربية إلا بعد اجتياز امتحان خاص فى الفرنسية وكذلك غلق حدود تونس حتى لا يتسرب إليها الراغبون فى العلم بجامع الزيتونة .

وردا على هده الحملة ساهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمى بمقالاته فى البصائر . وانبرى عدد من العلماء الآخرين ورجال الحركة الوطنية يردون على استخفاف الفرنسيين وذيولهم باللغة العربية . وظهرت هده الردود فى الصحف موجهة أحيانًا إلى الأفراد وأحيانًا إلى العموم . كما ظهرت فى شكل عرائض صادرة عن جمعية العلماء وأنصارها ومن جمعيات حرية الصحافة العربية ، ومنها تقرير وفد مدينة بوفاريك الذى قدم إلى لجنة التحقيق الفرنسية سنة ١٩٣١م لائحة طالبة برفع الحيف عن الجرائد العربية باعتبارها صحافة أجنبية(١) وسارت صحيفة النجاح فى هذا الاتجاه . ومنذ قرار ميشيل سنة ١٩٣٣م كانت جمعية العلماء ترفع عقيرتها بالاحتجاج والشكوى لأن ذلك القرار أضر بمصالح الجمعية ومنعها من تعليم اللغة العربية ومن إصدار صحفها بانتظام. وتلاقت عبارات التنديد بالإجحاف فى حق العربية مع التنديد بدور الآباء البيض (المبشرين) ورحال التنصير فى الطعن فى الإسلام . وسلوك الإدارة بخلق النعرات العرقية . ومن ذلك حملة جوزيف ديبارمى ضد استعمال اللغة الفصحى . وحملة مارسال موران ضد الشريعة الإسلامية ودعوته لإخراج العرق البربرى منها ، وادعاءات جان سيرفيه بأن العربية الدارجة خليط من الفينقية وغير متصلة بالإسلام والمسلمين(٢)

وكان رد عبد الحميد بن باديس على لويس ماسينيون جزءاً من هذه الردود ، فقد ادعى هذا المستشرق أثناء سفره إلى القاهرة ذات مرة لحضور اجتماع مجمع اللغة العربية بأن " اللغة العربية ليست غريبة عنا - الفرنسيين - فهي جزء من تراثنا القومى "، فرد عليه ابن باديس قائلا : إن ماسينيون لو أراد حقا خدمة العربية لنصح حكومته الفرنسية بالتوقف عن الإساءة إليها فى الجزائر حيث هى محاربة وتعليمها مضطهد ولَطَالَبها بجعل اللغة العربية لغة

(١) أحمد توفيق المدنى (كتاب الجزائر) ص ٣٤٤ . (٢) شارل روبير أجرون (الجزائريون المسلمون) ٨٨٧/٢ .

رسمية ولدعا إلى حرية تعليمها .
واستغرب ابن باديس من قول ماسينيون إن العربية من تراث فرنسا القومى ، مؤكدا له أن ذلك خطأ مجاملة منه للمشارقة فقط ، وفيهم تلاميذه من أمثال طه حسين وزكى مبارك . أما الحقيقة فهى أن اللغة العربية. إنما هى " تراث القومية العربية فقط " وليس لفرنسا شأن فى ذلك ، بل أن اللغة الفرنسية هى تراث القومية الفرنسية فقط(١). أما الشيخ أبو يعلى الزواوى فقد هاجم ماسينيون لدعوته العرب إلى استعمال الحروف اللاتينية كما فعل الأتراك واتهمه باستعمال"الخرعبلات والسفسطات".(٢)

ويروى ديبارمى أنه سأل أحد الجزائريين المثقفين بالعربية ليختبر غيرته الوطنية فقال له ديبارمى : إن الفرنسيين قد تخلوا عن اللاتينية .. فرد عليه ذلك "الطالب" الجزائرى قائلا:إن الفرنسيين لم يكونوا يقاومون احتلالا أجنبيا . ثم حاجج ديبارمى طالبًا آخر فى استحالة نشر اللغة العربية (التى يسميها ديبارمى "لغة قريش" تبعيدًا لها عن الجزائريين) فأخبره هذا الطالب أن معجزة الاستقلال تتحقق عن طريق الدين الحق والعقيدة الوطنية . فاستنتج ديبارمى من ذلك أن هذا الرأى يمثل خلاصة الوضع اللغوى وطموحاته فى الجزائر ، وهو ما يسميه رد الفعل اللغوى كما عرفنا (٣).

ولقد كافحت الصحافة والنوادى الجديدة من أجل تثبيت اللغة العربية الفصحى . واتفقت فى ذلك صحافة الحركة الإصلاحية وصحافة الطرق الصوفية والصحافة المستقلة . فأغلبها قد أيد نشر التعليم بالعربية الفصحى . ويصف ديبارمي دورها ودور النوادى بأنه ليس قيادة الرأى العام فقط ولكن بعث "لغة المستقبل " وهى حسب تعبيره "لغة قريش القديمة". وكان هدف هذه الصحافة هو تطوير اللغة العربية وتطويعها وجعلها مناسبة لشروط الحياة العصرية . إن الصحافة كانت تعطى درسًا يوميًّا للشعب عن اللغة الوطنية وكانت هذه الجرائد تسقط من وقت لآخر لعدم وجود القراء - ولم يقل ديبارمى إن سقوطها كان بسبب المنع

(١) ابن باديس حول تصريحات م. ماسينيون الصائر ١٩٣٩/١/٢٠م .
(٢) جريدة الإصلاح ٢٨من نوفمبر ١٩٤٧م .
(٣) ديبارمى ، مرجع سابق ١٩٣١ ص ٣٣

الإدارى . ولكن سرعان ما تظهر صحف أخرى تعوضها وتواصل الهجوم على الجهل . ويقول ديبارمى فى شىء من السحرية والمرارة أيضا:إن أبطال هده الصحف يملؤون دائمًا حصر أحداثهم عارفين أن تضحياتهم لن تذهب أبدا سدى(١). إن المسألة اللغوية قضية حياة أو موت للشعوب المغاربية على حسب الجرائد الجزائرية،وهى شعوب كما يقول ديبارمى متفقة على ذلك، وعلى جعل العربية موضع دراستها واهتمامها الدائم. إن تلك الجرائد أصبحت تصف الإنتاج البوربرى (الدارح) بأنه كلام عوام وتتعجب من أن المشاركين فى الاحتفال المئوى سنة ١٩٣٠م كانوا مهتمين بالفلكلور والأدب الشعبى لا بالقصيدة الفصيحة (٢) .

وهكذا نرى أن إهمال الفصحى والعناية بالدارجة الذى بدأ مع الاحتلال قد تحول بعد مئة سنة إلى العكس على يد الشعوب المغاربية؛ أى العناية بالفصحى وقلة الاهتمام بالدارحة؛لأن الفصحى هى لغة الدين والتراث والقومية والاستقلال.

أبو القاسم سعد الله

عضو المجمع المراسل من الجزائر

ثانياً :

شخصيات مجمعية

تأبين

أولاً: تأبين الأستاذ الدكتور
إبراهيم بيومي مدكور
رئيس المجمع
ورئيس اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية

أ ـ تأبينه في المجلس

أقام المجمع حفلاً لتأبين شيخ المجمعيين المغفور له الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومي مدكور رئيس مجمع اللغة العربية ورئيس اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية في جلسة علنية عُقِدت بدار المجمع في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاثنين ٢٤ من شعبان سنة ١٤١٦هـ الموافق ١٥ من يناير سنة ١٩٩٦م ، وحضر هذا الحفل الأستاذ الدكتور شوقي ضيف نائب رئيس المجمع.

كما حضره لفيف من رجالات الثقافة والتعليم العالي بمصر والعالم العربي، ولفيف من رجالات الصحافة والإذاعة المرئية والمسموعة، وقد شاركت كلية دار العلوم في هذا الحفل تقديرًا منها للدور العظيم الذي قام به رائد من روادها هو الدكتور إبراهيم مدكور .

وكان منهج الحفل على النحو التالي :

١- كلمة المجمع في تأبين الفقيد للأستاذ الدكتور شوقي ضيف نائب رئيس المجمع.

٢- كلمة أخرى في تأبين الفقيد للأستاذ إبراهيم الترزي الأمين العام للمجمع .

٣- كلمة الأعضاء العلميين للأستاد الدكتور محمود مختار عصو المجمع.

٤- مرثية في وداع الفقيد للأستاذ الدكتور محمد يوسف حسن عصو المجمع.

٥- بكائية الضاد " قصيدة " للأستاذ الدكتور كمال محمد دسوقي عصو المجمع.

٦- كلمة في تأبين الفقيد للأستاذ الدكتور عاطف العراقي أستاذ الفلسفة ، والخبير بالمجمع .

٧- كلمة كلية دار العلوم للأستاذ الدكتور حامد طاهر عميد كلية دار العلوم ، والخبير بالمجمع .

٨- إبراهيم مدكور والفلسفة للأستاذة الدكتورة زينب محمود الخضيري أستاذة الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة .

٩- راهب الفصحى سلامًا . لا وداعًا قصيدة للأستاد الدكتور عفيفي محمود عفيفي الخبير بالمجمع.

١٠- كلمة الأسرة للأستاذ الدكتور محمد عبد الخالق إبراهيم مدكور.

كلمة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف نائب رئيس المجمع
في تأبين المرحوم رئيس المجمع الراحل

الزملاء الأجلاء، السيدات والسادة:

إنه ليشق عليَّ أن أقف اليوم لأؤبِّن شيخ المجمعيين في مصر والعالم العربي المغفور له الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومي مدكور، الذي كان عزَّ رياسة مجمعنا ومنارها، بأصالة رأيه وحصافة عقله ورجاحة فكره. وإن قلوبنا جميعا لتكتظ بمشاعر الحزن، وإن نفوسنا لتمتلئ التياعًا وأسى، غير أن تلك سنة الحياة، فكل حيٍّ إلى فناء وكل حي يموت في يوم معلوم بقدر محتوم واقع، ليس له من دافع، وهل نحن إلا ودائع في هذه الدار الفانية، ولابد يوما أن تُرد الودائع.

وقد كان الدكتور مدكور شخصية فذة، فهو مصلح اجتماعي وسياسي، وهو كاتب ولغوي ومتفلسف ومفكر عربي أصيل، عاش في مرحلة مهمة من مراحل نهضتنا الحديثة كانت تموج بطائفة من الدعوات: دعوات للإصلاح السياسي والاجتماعي، ودعوات للانبعاث الفكري والتطور الحضاري، ودعوات للنهوض بالعربية حتى تستطيع الوفاء بمطالب العلوم والفنون الغربية. وكل تلك الدعوات أسهم فيها بمواهبه العقلية النادرة.

وُلِد الدكتور إبراهيم بيومي مدكور في فجر هذا القرن بأسرة كريمة في أبي النمرس بالقرب من أهرامات الجيزة، وغني به والده، فألحقه بمدرسة أولية حفظ فيها القرآن الكريم، ثم ألحقه بالأزهر وتعليمه الديني، والتحق بمدرسة القضاء الشرعي، وأتم قسمها الأول، ودخل بعده دار العلوم وتخرج فيها بين طلابها المتفوقين سنة ١٩٢٧م وعمل سنة بإحدى مدارس القاهرة، واختير لبعثة حكومية إلى إنجلترا، ووقفت في طريقه الخلافات السياسية ومنعته منها، وصمَّم على أن يضم إلى ثقافته العربية زادًا أو أزوادًا من الثقافة الغربية فاستقال، واختار فرنسا ورحل إليها - على نفقته - في أوائل سنة ١٩٢٩م. ودار العام الأول فضُمَّ إلى بعثة الحكومة المصرية دون عائق، والتحق بجامعة السوربون وأكب على محاضرات الأدباء والمفكرين

فيها والمستشرقين و لم يلبث أن حصل من تلك الجامعة على ليسانس الآداب سنة ١٩٣١م ، وبعد سنتين حصل على ليسانس الحقوق ، وفي نهاية سنة ١٩٣٤م حصل على الدكتوراه في الفلسفة من حامعة السربون .

وعاد إلى مصر سة ١٩٣٥م فانصم إلى قسم الفلسفة بكلية الآداب في جامعة القاهرة مع الانتداب للتدريس في بعض الكليات الأزهرية ، ومضى يحاضر الطلاب بالجامعتين في المواد الفلسفية والاجتماعية المختلفة . وفي سنة ١٩٣٧م رأى أن يقوم بدور في الخدمة العامة للأمة فاختير عضوا بمجلس الشيوخ واضطر إلى الاستقالة من كلية الآداب استجابة لمبدأ عدم الجمع بين الوظيفة في الجامعة وعضوية البرلمان . وقضى في مجلس الشيوخ خمس عشرة سنة كان فيها صوتا بارزا مسموعا يناقش المشروعات والاعتمادات التي تعرض في المجلس مناقشة جريئة مخلصة ، وينقد نظم الحكم ، وينادي بإصلاح الأداة الحكومية ويهاجم الظلم والطغيان ، ويدعو إلى تحديد الملكية الزراعية ، وتبنى استجواب السياسيين في قضية الأسلحة الفاسدة الذي كان إرهاصا للتورة سنة ١٩٥٢م وحاولت الثورة أن تستعين به فعينته في مجلس الإنتاج سنين عدة .

وكان من حظ مجمع اللغة العربية في سنة ١٩٤٦م أن اختير الدكتور إبراهيم بيومي مدكور لعضوية المجمع بين عشرة من أعضائه العاملين السابقين ، سماهم المرحوم الأستاذ أحمد أمين " العشرة الطيبة " في استقباله لهم باسم المجمع ، ورد عليه باسمهم الدكتور مدكور بكلمة تحدث فيها عن " اللغة المثالية " . ومنذ دلك التاريخ تابع نشاطه العظيم في المجمع، وتقديرا من زملائه المجمعيين احتاروه سنة ١٩٥٩م كاتب سر المجمع، وبعد سنتين انتخبوه أمينا عاما له . وطوال أمانته كان يلقي في افتتاح مؤتمر المجمع السنوي كلمة عن نشاط المجمع العلمي طوال العام . ومند اختياره سنة ١٩٧٤م رئيسا للمجمع كان يفتتح مؤتمراته بكلمة عن الموضوع المطروح فيه للمناقشة ، مع الترحيب بالضيوف الوافدين عليه،وحاصة من البلدان العربية.

وكان الدكتور مدكور طوال أمانته للمجمع ورياسته يدفع عجلة العمل فيه دفعا متصلا محكما إدارته أدق إحكام ،

كما أحكم العمل المجمعي العلمي إحكاما رائعا ، وهو إحكام يتبين بوضوح في وفرة إنتاجه ، إذ نشر المجمع ثلاثة معاجم لغوية: معجما كبيرا تتعاقب أجزاؤه، ومعجما وسيطا في مجلدين، ومعجما وجيزا ، ويتقدمها جميعا معجم نفيس للقرآن الكريم في مجلدين . وعمل الدكتور مدكور منذ أوائل أمانته على نشر مجموعات المصطلحات العلمية والفنية التي ينتجها المجمع سنويا وبلغت حتى الآن ستا وثلاثين مجموعة . وطوال رياسته صدرت للجان المجمع معاجمها العلمية حتى بلغت ثلاثة عشر معجما علميا ، ولم يبق في الجامعات علم يدرس إلا وصدر فيه معجم قيم ، وهي ذخيرة لغوية كبيرة تعد إعدادا سديدا لتعريب التعليم الجامعي ولتصبح العربية لغة علمية عالمية . ودفع الدكتور مدكور المجمع إلى نشر كنور من التراث اللغوي لم يسبق نشرها؛ للانتفاع بها في معاجمه الحديثة ، من ذلك ديوان الأدب للفارابي، والتكملة والذيل والصلة للصاغاني، والأفعال للسرقسطي، والتنبيه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح لابن بري . وللدكتور مدكور كتابان عن المجمع : أولهما:"مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما: ماضيه وحاضره" ، أرخ فيه للمجمع من الناحيتين العلمية والفنية ، وثانيهما:" مع الخالدين" وهو في ثلاثة فصول : يدور أولها حول المجامع اللغوية عامة والمجامع العربية خاصة، ويدور ثانيها في استقبال عدد غير قليل من المجمعيين جماعات ووحدانًا ، كما يدور ثالثها في وداع طائفة كبيرة من المجمعيين مع التنويه بهم والإشادة بما كان لهم من أعمال قيمة . والكتاب يحمل وفاء كريمًا من الدكتور مدكور لصفوة من زملائه المجمعيين . وله تصدير لكتاب تذكاري للدكتور عثمان أمين ،وعددان في سلسلة اقرأ، في أولهما بعض محاضراته المجمعية ، وفي الثاني ذكريات وآراء في الحياة الجامعية والنيابية والثقافية .

ودائما كان الدكتور مدكور يغذّي دورات المجمع ومجلته ببحوث قيمة ، نذكر منها نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام - منطق أرسطو والنحو العربي - عالمية اللغة العربية - لغة العلم - حق العلماء في التصرف باللغة . وعلى نحو ما كان يبذل من جهود خصبة في المجمع كان يبذل جهودا متصلة في اتحاد المجامع

اللغوية العلمية العربية الذي تكوّن من مجامع القاهرة ودمشق وبغداد بأَخَرَة من رياسة الدكتور طه حسين للمجمع، وتحولت إليه رياسة المجمع والاتحاد بعده. ونهض بالاتحاد وانضم إليه المجمع اللغوي الأردني، ثم مجمعا السودان وفلسطين، وتمت للاتحاد في عهده سبع ندوات، نوقش في بعضها تيسير تعليم العربية وتعريب التعليم العالي والجامعي، ووضعت فيهما توصيات مهمة، وعُرِضت في بعض الندوات معاجم علمية لمجمع القاهرة ونوقشت مناقشة علمية ووحِّدت في إحدى الندوات الرموز العلمية في الرياضيات والكيمياء والفيزيقا.

وكان الدكتور مدكور يدعو إلى الانفتاح على الثقافة الغربية، مما جعله يراجع ترجمة الدكتور محمد غلاب لكتاب الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر، ولكتاب المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر، وأشرف في لجنة على ترجمة القسم الأول من تاريخ العلم لسارتر. ومن أعماله مشاركته في الإشراف على الموسوعة العربية الميسرة، وتصديره للجزء الأول من معجم أعلام الفكر الإنساني. واشترك في الذكرى الألفية لابن سينا في بغداد سنة ١٩٥١م، وطهران وباريس سنة ١٩٥٤م ومهرجان الغزالي بدمشق، وابن خلدون في القاهرة سنة ١٩٦٢م، وذكرى طه حسين بالقاهرة سنة ١٩٧٩م، وحافظ وشوقي سنة ١٩٨٢م، وماسينيون بالقاهرة سنة ١٩٨٣م، ونال مبكرًا جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية. ومنحته جامعة أمريكية الدكتوراه الفخرية سنة ١٩٦٤م؛ تقديرًا لخدماته العلمية ونشاطه في التبادل الثقافي بين العرب والغرب، ونال جائزة من اليونسكو؛ تقديرًا لمكانته. ومنذ أربع سنوات أهدى مكتبته الخاصة إلى مكتبة المجمع، وشغلت بها غرفة. وبجانب إخلاده إلى صومعة المجمع اللغوي القاهريّ ومحرابه كان يعنى بالفلسفة الإسلامية وأعلامها وبحوثها. وكان قد نشر مع الأستاذ يوسف كرم سنة ١٩٤٦م دروسًا في تاريخ الفلسفة لتلاميذ السنة التوجيهية من عصر اليونان إلى العصر الحديث، وفَرَغ سريعًا لأعلام الفلسفة الإسلاميين. فتارة يشترك في كتب تذكارية لثلاثة من أفذاذهم، وهم: الفارابي، وله في كتابه بحث عن

المصطلح الفلسفي، والسهروردي، وله في كتابه بحث مقارن بيه وبين اس سـيـنا ، وابن عربي، وله في كتابه بحث مقارن بينه وبين اسبينوزا في وحدة الوجود . وتـارة ثانية كان يعني بتقديم ومراجعة تحقيـق أعمال كبرى مـن الـتراث الفلسـفي الإسلامي ، من ذلك ثمانية أجزاء مـن موسوعة الشفاء لابن سينا هي : المدخل - المقولات- الإلهيات - البرهان - الجدل - السفسطة - الخطابة . وسبعة أجزاء مـن كتاب المغني في أبواب التوحيد والعـدل للقاضي عبد الجبار ، وثلاثة أجزاء مـن كتاب الفتوحات المكية لابـن عـربي وكتاب الكليات في الطب لابن رشد ؛

وأشرف الدكتور مدكـور علـى إخراج المعجم الفلسفي للمجمع مشاركا فيه وهو كـبر فريد ، وكان ما يني ينشر عملاً أو بحثًا كبيرًا متصـلاً بالفلسـفة الإسلامية ، من ذلك نشـره كتابًـا في الأخلاق والاجتماع ، وهو يبحثـهما في بابين بحثًا تفصيلـيًّا بديعًا ، ونشـر في كتاب" أثر العرب والإسلام في النهضـة الأوربية" فصلاً طويلاً رائعًا عن الفلسـفة الإسلامية صوَّر فيه خصائصـها وأنها فلسفة دينية عقلية، كما صوَّر أثرهـا في الغرب. وأهم مباحثه الفلسفية مبحثـه : "في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيـق " وهو في جزأين . وفي أوائل الجـزء الأول يردُّ بقوة على من يغضون من العربيـين من الفلسفة الإسلامية وفلاسـفتها ، ويضع لدراستها منهجا يعتمـد علـى فرعين : فرع تاريخي يدرس نصوصـها وأصولها، وفرع مقـارن يقـابل بـين الأشـخاص والآراء ، ويذكـر أن موضوعاتها تتنـاول نظريـة الوجـود والحكمة النظرية والعمليـة، وتمتـدُّ إلى أبواب الثقافة الإسلامية ، ويبين صلتـها بالفلسفة اليونانية ومنـزلتها من الفلسفة المسيحية وربطها بالفلسـفة الحديثـة ، ويرى أن دراسات المستشرقين لها لا تزال غير وافية. ويدرس في هذا الجزء ثـلاث نظريات : نظرية السعادة وما يتصل بهـا من التصوف عند فلاسـفة المسـلمين والمتكلمين وأثرها في المدارس الغربيـة ، ونظرية النبـوة وانتقالهـا إلى التفكـير المسيحي واليهودي وامتدادها إلى التاريخ الحديث غربًا وشرقًا، ونظرية النفس عند ابن سينا والفلاسفة الإسـلاميين . وفي الجزء الثاني يضم الدكتور مدكـور إلى بيئتي الفلسفة والتصوف بيئة المتكلمـين ،

ويفصل القول في السلفيين وفِرَق المتكلمين من معتزلة وأشاعرة وماتريدية وشيعة ، كما يفصل القول عن المتصوفة والفلاسفة الإسلاميين، ويناقش نظرية حرية الإرادة في الفكر الإسلامي وعند الفرق الإسلامية ويمتد بها إلى الشيخ محمد عبده، ويترجم للكبار من فلاسفة الإسلام : الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد . ويختم الجزء ببيان خصائص الفلسفة الإسلامية وانتقالها إلى الغرب وأثرها فيه .

وواضح أن الدكتور مدكور وضع للفلسفة الإسلامية في الجزأين منهجًا جديدًا ، وطبّقه بعقله الثاقب تطبيقا سديدًا ، وقد ضم إلى مباحث الفلسفة الإسلامية مباحث فرق المتكلمين ومذاهبهم الكلامية، ومبحث انتقال الفلسفة الإسلامية إلى الغرب في النهضة الأوربية وأثرها فيه .

أيها السادة

هذه لمحات موجزة من سيرة الأستاذ الكبير الدكتور إبراهيم مدكور، وإنها لسيرة مجيدة، ومثلها أعماله وآثاره القيمة التي سيظل الباحثون يدرسونها ويحللونها ويستخرجون ما فيها من بديع الآراء والأفكار .

رحمه الله رحمة واسعة ، وتقبله أحسن القبول، وأنزله في الجنة منازل الأبرار العاملين المخلصين .

شوقي ضيف

نائب رئيس المجمع

كلمة أخرى للمجمع في تأبين الفقيد

للأستاذ إبراهيم الترزي الأمين العام للمجمع

الأستاذ الجليل نائب الرئيس:

الأساتذة الزملاء الأجلاّء :

أيها السادة :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وبعد.

فقد شرَّف الله تعالى الإنسان باستخلافه في الأرض .

وأداءُ حق هذه الخلافة أن يصنع الإنسان على الأرض خير حياة ولكنَّ صُنّاع الحياة قليل !

بل صارت الحياة هي التي تصنع أكثر الناس !

وكم أُريقت أحبار كالبحار،في كتابة بحوث ضافية عن شخصيات صنعتْها ظروفُها وبيئاتها:الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية ، والسياسية ، والطبيعية ، أو كان لهذه الظروف والبيئات أثر في هذه الشخصيات من قريب أو بعيد .

وهذا كله حقٌّ لا ريب فيه .

ولكن صُنَّاع الحياة لا تسيطر عليهم هذه المؤثّرات وتستغرقهم ، بل يسيطرون هم عليها ويستغرقونها؛ بما لديهم من قدرات خلاّقة تستوعب الحياة ؛ لتخرجها للناس خَلقًا آخر سويًّا وضيًّا ، بما تُسطِّره أقلامُهم،وتنطق به ألسنتهم، وبما يعبِّر عنه سلوكهم حين يتعاملون،ويصرِّفون شؤون الحياة؛ فإذا هم في المجتمع مُثُلٌ عليا ، وإذا حياتهم قدوة للناس ، عليهم أن يحتذوها، ويتابعوها ؛ ليكونوا مثلهم صُنَّاع حياة !

وكم حُبِّرتْ كذلك أسفار في سيطرة الغرائز الكامنة في نفوس الناس ، والمهيمنة على عقولهم ، والمتغلغلة في كل ذرَّة من جسومهم ، وكل قطرة من دمائهم . وظهرتْ في هذه الدراسات النفسية مذاهب وآراء ، أخذت تتحاور، وتتصارع ، ولن يهدأ بينها تحاور ، ولن يخبو لها صراع !

وكثير من هذه الدراسات النفسية أيضًا حقٌّ لا ريب فيه .

ولكن صُنَّاع الحياة لا تستولي عليهم غرائزُهم ؛ فهم لا يخضعون لها ، بل يَستغلُّون بها ، وهم لا يدعونها تقودهم ، بل يجعلون زمامها في أيديهم ؛ فإذا هم كذلك قدوة للناس ، حين يجعلون سلوك غرائزهم نبيلاً جميلا ؛ فكم من قيم نبيلة جميلة أُرهقتْ على مذبح الشهوات والأهواء !

هكذا يكون صُنَّاع الحياة ، رادةً وقادةً ، يعقد لهم لواء السلطان بين الناس ؛ فإذا كان من يَحكم الناسَ ويسيطر عليهم سلطانًا فأحقُّ منه بأن يكون سلطانًا من يَحكم غرائزه العصيَّة العاتية ، ويسيطر على ما يتحكم في حياته من ظروف وأحوال ، وأحداث جسام !

ولهذا عُدَّ جهاد النفس وجهاد الحياة جهادًا أكبر من الجهاد في حَوْمات الوغى والقتال !

هؤلاء المجاهدون الخلاَّقون هم صُنَّاع الحياة .

ولقد كان إبراهيم مدكور في الطليعة من صناع الحياة !

فطرةٌ فُطِر عليها ، غذَّاها ونمَّاها بما منحه الله تعالى من ملكات وقدرات ، وعزمٍ وحزمٍ وحسمٍ ، وموهبة باهرة في الإعداد والتنظيم ، واقتدار فَذٍّ في القيادة والتوجيه.

لم يستسلم الشاب إبراهيم مدكور لعسف السياسة القاهرة الباطشة ، حين حَرَمَتْه بعثتَه العلميةَ إلى " لندن " ، بعد تخرجه في دار العلوم ، وطَوَّحتْ به إلى أقصى الصَعيد ، مدرسًا في إحدى مدارس " إدفو" الابتدائية ؛ فقد انطلق إبراهيم الشابُ كالشهاب إلى مدينة النور " باريس " ؛ ليلتحق بجامعتها العريقة "السوربون " ، على نفقته الخاصة !

وأمام إرادته الغلاَّبة تطامَنَتْ قوى السياسة الباطشة ؛ فردَّت له حقَّه على الدولة في بعثته العلمية ، فكانت السياسة معه كالوَعْل الذي صوَّره شاعرنا العربيُّ " الأعشى " بقوله :

كَنَاطِحٍ صَخرةً يومًا لِيَفْلِقَها
فَلَمْ يَضِرْهَا ، وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعْلُ

وفي سنة خمس وثلاثين - بعد ستة أعوام من بعثته - عاد إبراهيم مدكور إلى مصر مُظَفَّرًا بأعلى الدرجات العلمية : درجة دكتوراه الدولة في الفلسفة ، فعمل مدرسًا في كلية الآداب ، بجامعة فؤاد الأول .

والشأن فيمن يحصل على أعلى الدرجات العلمية الجامعية أن تكون غايته التدريس في الجامعة ، والدرس الجامعي من أعظم الأعمال قدرا ، وأرفعها شأنا . ولكن إبراهيم مدكور له غايات أخرى يتغيَّاها ؛ فإذا كان الفلاسفة القدامى قد كتبوا في شؤون الدولة والحكم والسياسة، كأفلاطون، وأرسطو ، والفارابي، وابن

خلدون ، فإن إبراهيم مدكور - صانع الحياة - رأى أن يجعل للرأي شرفَ التحقيق ، وللكلمة شرفَ التطبيق ؛ فاتجه إلى ممارسة السياسة العملية في ذروتها ، حيث تبوَّأ مكانه في السلطة التشريعية ، التي تهيمن على الحكم ، وتُشرِّع لأمور الدولة وسياستها ، وهي السلطة البرلمانية متمثلة في مجلسي : النواب والشيوخ ، فكان إبراهيم مدكور ، وهو في الخامسة والثلاثين ، عضوا في مجلس الشيوخ ، حيث جعل مقعده في هذا المجلس مِنبرًا للدعوة إلى آرائه في إصلاح أجهزة الدولة، وتطهيرها من عفن الأهواء، وجعلها تستقيم على شريعة من النزاهة والعدل، وكفاءة الأداء ، وسداد الخُطى ؛ لبلوغ أهداف الأمة في الإصلاح والتقدم والرخاء .

وسرعان ما سطع نجم إبراهيم مدكور بين شيوخ الأمة في مجلسهم التشريعي ، فحيثما يحلُّ إبراهيم مدكور يتجلى نبوغه ، ويصبح ملء السمع والبصر ، محاطًا بهالة من إعجاب يتصاعد حتى يصبح عَجبًا عُجابًا !

ولعلَّ أكثر ما يثير ذلك العجب العجاب أن يختار مجلس الشيوخ أستاذ الفلسفة مقررًا للجنة المالية ، التي تخطِّط ، وتتابع كل الشؤون المالية للدولة ، في إطار موازنتها العامة !

أخذ إبراهيم مدكور يُفَلْسِفُ المالَ ؛ فجعل المال ذا فكر إصلاحيٍّ لنهضة اجتماعية ، واقتصادية ، وتعليمية ، وصحية ، وإدارية ، تدفع بمصر إلى طليعة الدول المتحضرة .

ولقد عَهِدنا صوتَ الفلسفة هادئًا حصيفًا متأنيًا ؛ لأنه صوت الفكر المتأمل في صومعة الحكمة ، ولقد كان كذلك فيلسوفنا إبراهيم مدكور ، ولكن الأحداث حين تُدمدِم ببغيٍ وفتنة نراه يدع صومعته ، ويخلع عباءة الفيلسوف ، ويبدو في هيئة مقاتل جسور ، يُجلجل صوتُه فيُزلزل أركان الطغاة ، ولو كان على رأسهم ملكُ البلاد ، وحاشيتُه المستبدة ذات الحول والطول . ولقد صمد إبراهيم مدكور في مواجهة الحرب التي شُنَّت عليه سرًّا وعلانية ؛ فقد كانت عينُ الغضب الملكية تُلاحقه هنا وهناك ، حتى لا يحظى بما يُتاح له من مركز مرموق ، ولا يفيء إلى أمن وسلام ، وبخاصة بعد أن تبنَّى استجوابَ السياسيِّ القانونيِّ العملاق " مصطفى مرعي "

عضو المجمع الراحل ، بشأن الأسلحة الفاسدة ، الذي كان من أقوى بواعث ثورة الجيش عام اثنين وخمسين !

أيها السادة :

يعد إبراهيم مدكور من أصغر الأعضاء العاملين الذين دخلوا المجمع ؛ فقد صدر مرسوم عام ستة وأربعين بتعيينه عضوا مع تسعة أعضاء آخرين ؛ ليبلغ بهم عدد أعضاء المجمع أربعين عضوا،أسوة بأعضاء الأكاديمية الفرنسية.

كان إبراهيم مدكور في الرابعة والأربعين ، وقد أنابه زملاؤه الشيوخ في الردّ باسمهم على كلمة مستقبِلِهم " أحمد أمين " ، الذي داعبهم بتسميتهم "العشرة الطيبة ".

وسرعان ما لمع إبراهيم مدكور بين هؤلاء الشيوخ العلماء الأعلام ، وهو مازال في زهرة كهولته ، وبعث في صومعتهم المجمعية حرارة ونشاطًا : في لجان المجمع ، ومجلسه ، ومؤتمره ، وفيما يُدعَى إليه المجمع من ندوات ومؤتمرات، عربية ودولية .

وكما عهدنا في إبراهيم مدكور أن يحتل دائما مكان الصدارة في أي مكان يحل فيه - اختير أمينًا عامًّا للمجمع عام تسعة وخمسين ، خلفًا للدكتور منصور فهمي ، أول أمين عام له وكان يسمَّى "كاتب سر المجمع ".

وقد بدأ المجمع عهدًا جديدًا منذ ذلك التاريخ ؛ فقد آثره إبراهيم مدكور بكل اهتمامه وجهده ، فسحب كل أنشطته خارج المجمع لتتجمع كلها في البؤرة المجمعية ، حيث تنطلق بالنور والحرارة والحركة !

ومع الأيام ، صارت دار المجمع داره؛ يمضي فيها أكثر وقته ، وينعم لديها بالسكينة والسعادة . ولم يَعُد المجمع ظاهرًا من القول والعلم ؛ فقد تغلغل في أعماق نفسه ، وجرى مجرى الدم في عروقه ، حتى صار نبضَ قلبه ، وخاطرَ فكره ، وأنفاسَ حياته ، وقرَّة عينه ، ومناط أمله ، وغاية دنياه ، بل وسيلته إلى أُخراه ؛ فهو سادن لغة اصطفاها الله؛ لتكون لغة كتابه المبين ، والمعجزة الخالدة لرسوله صلى الله عليه وسلم إلى العالمين !

ولقد ازدهر النشاط المجمعي في عهد إبراهيم مدكور ، وانتظم صدور مطبوعاته الدورية ، وتضاعفت معجماته اللغوية والعلمية ، كما صدرت تحقيقات لنفائس تراثنا اللغوي ، وأخذ المجمع في

مؤتمره السنوي يعالج الكثير من قضايا اللغة والعلم والأدب ، كما ازدهر نشاط اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية ، الذي رأسه أكثر من عشرين عاما ؛ فعُقِدت ندوات عديدة في عواصم عربية بالمشرق والمغرب .

وهكذا صار إبراهيم مدكور عميدَ المجمعيين العرب ، وشيخهم وإمامهم .

أيها السادة :

لقد حَظِيتُ بالقرب من إبراهيم مدكور ، بل كنت أقربَ المجمعيين إليه ، منذ شرَّفني بالعمل معه ، فتفيَّأتُ ظلال دوحته المجمعية أكثر من ثلاثين عامًا ، كان لي فيها نعم الأبُ والمعلم ، أسبغ عليَّ من ذات نفسه حُبًّا ورعاية ، ومنحني من خبرته المجمعية الكثير الكثير .

وأشهدُ ما كنا نختلف إلاَّ لنأتلف ؛ فلم يكن اختلافنا اختلاف تعارض ، بل اختلاف تكامل ، ينتهي دائما إلى اتفاق!

وكم كان يُوصيني - بعد انتخابي أمينًا عامًّا للمجمع - أن أشُدَّ قبضتي في الحفاظ على تقاليد المجمع وأعرافه ؛ ليظل في مكانته من المهابة والإجلال ، وتتدفق أنهُر لجانِه بالمصطلحات والقرارات العلمية واللغوية والأدبية والفنية . ولقد كان عظيم الإيصاء لي بالمعجم الكبير ، الذي ظل مقررًا للجنته أكثر من اثنين وعشرين عامًا ، ثم شرفني -مع لجنة المعجم الكبير باختياري مقررًا لهذه اللجنة .

لقد كان إبراهيم مدكور حتى أُخريات حياته ، بعد اعتكافه في بيته ، لا يشغله شيء سوى المجمع ، وحين كنت أزوره في معتكفه لم يكن لنا حديث إلا عن المجمع ، وكان الحديث يدور بيننا كالمناجاة ، وبخاصة حين يُردِّد مؤكِّدًا وصاياه ؛ حتى يطمئنَّ إلى أنها أخذت تسري في دمي،وصارت جزءًا من نفسي وفكري ، وغاية الغايات لحياتي !

والحديث عن صلتي به طوال ثلث قرن من الزمان يحتاج إلى أسفار وأسفار!

أيها السادة :

كان إبراهيم مدكور رحلَ الذُّرَى ؛ أهَّلَته ملكاتُه وقدراتُه لأن يعتلي القمة حيثما يكون . وأصحاب القمم أوسع الناس أفقًا ، وأشملهم رؤية ؛ لأن الآفاق تَنْداح وتتسع مع كل ارتفاع ، وتزداد الرؤية بذلك أبعادًا وشمولا . ولهذا نرى أصحاب الذُّرَى أقدر الناس على اكتشاف ما يدور هنا وهناك ، وبذلك صاروا أقدر الناس على الإصلاح . وما

نجح داعيةُ إصلاحٍ فكري ، أو اجتماعي، أو سياسي ، ينغلق على مذهب من المذاهب ؛ لأنه بذلك يحبس نفسه في فَجٍّ من فِجاج المذاهبِ والآراء !

واعتناق المذهب يبدأ اختيارا ، ثم لا يلبث أن يصبح إسارا ؛ فصاحب المذهب لا يرى الصوابَ في سواه ، وهو مُتوفِّز مُتَحَفِّز دائما للدفاع عنه ، والجدال فيه ، وقد يُنفق الكثير من عمره وجُهده في مدافعة خصومه عن حِماه !

ولقد كان إبراهيم مدكور - صانعُ الحياة - من عمالقة الإصلاح ، فلم ينغلق على مذهب ، ولم يتشيَّع لفلسفة أو فيلسوف؛ولهذا شُغِل بوضع المنهج الفلسفي وتطبيقه،وكتب في الأخلاق، وعالج أدواء المجتمع،وطَبَّ لها طِبَّ النِّطاسيِّ الخبير ؛ فإبراهيم مدكور - صانعُ الحياة - لا يتوقف عند الفكر المجرد، بل ينفخ فيه من روحه حياةً تجعله يتحرك ، ويُحرِّك .

وكما وضع المنهج وقام بالتطبيق كتب في إصلاح أداة الحكم ؛ فالصلاح لديه يتحوَّل إلى إصلاح ، والحكمة إلى حُكم، والحقيقة إلى حقٍّ ، والعلم إلى عمل .

وكم يكشف تبادلُ هذه الأحرف الثلاثة للعلم والعمل عن سرٍّ عبقريٍّ من أسرار لغتنا الخالدة !

وفي ختام كلمتي عن إبراهيم مدكور أقول مع شاعرنا العربي الحكيم "الشريف الرضي " وهو يُودِّع بعض مَن رحلوا عن الدنيا من كرام الناس :

معشرٌ إن غابت الأرضُ بهم
لم يَغِيبوا عند مجدٍ وفعالِ
لا تقل : تلك قبورٌ .. إنما
هي أصدافٌ على غُرٍّ لآل

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إبراهيم الترزي

الأمين العام لمجمع اللغة العربية

كلمة العلميين في حفل تأبين فقيد المجمع

المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور

للأستاذ الدكتور محمود مختار عصو المجمع

السيد الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

نائب رئيس المجمع :

السادة الزملاء أعضاء المجمع :

سيداتي وسادتي :

رحل رافع لواء اللغة العربية في مصر، رحل رائد علوم الفلسفة والاجتماع في الوطن العربي المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور . رحل عن هذه الدنيا ليلقى ربه الكريم وينعم برضوانه . رحل بجسمه ، أما اسمه فقد دخل سجل الخالدين من أوسع أبوابه . وسوف يظل فيه نبعًا للعلم ومنارًا للفكر، متوجًا بجلال الدين القويم والخلق الحميد. وسوف تزخر بذكراه صفحات التاريخ ، وتنهل من علمه الأجيال من أهل اللغة العربية وآدابها وعلومها .

هذه الشخصية العلمية الفذة للدكتور إبراهيم مدكور قد تأسست وتأصّلت علي عراقة الأزهر الشريف والقضاء الشرعي، ودار العلوم، وجامعة القاهرة ، وكلها معاقل للعلم والدين والأدب والعلوم الإسلامية والإنسانية ، ثم تكاملت وتجاوبت مع آداب العرب وفلسفته في جامعات السوربون وباريس وبرنستون ، هذه الحصيلة المتميزة في العلم والأدب قد أنبتت هذه الشخصية المتميزة للدكتور إبراهيم مدكور ، وأهّلته لتولي مناصب رفيعة في الدولة وخاصة في الشؤون الوطنية والاجتماعية والسياسية ، التي اضطلع بها بعزيمة قوية وإيمان راسخ . واستهلّها بالمشاركة في الثورة الوطنية عام ١٩١٩م لطرد المستعمر الأجنبي من أرض الوطن ، وكان نصيبه منها الاعتقال والسجن . ثم انتخب عضوًا بمجلس الشيوخ، وظل به خمسة عشر عامًا عُيّن بعدها وزيرًا للخدمات والإنتاج . كما اختير عضوًا مؤسّسًا في عدد كبير من الهيئات والجمعيات الثقافية والأدبية، ورئيسًا لمؤتمراتها وندواتها . ومن أبرز أعماله المشاركة في إحياء ذكرى عدد من الرواد العرب في مقدمتهم ابن سينا ، وقد حقق وأخرج له كتاب "الشفاء"ثم الغزالي،وابن خلدون،وشوقي، وحافظ، وطه حسين ،وغيرهم كثيرون .

وحظي مجمع اللغة العربية بانضمام الدكتور إبراهيم مدكور عضوًا عاملاً به عام ١٩٤٦م أي منذ نصف قرن ، وكان واحدًا ممن أطلق عليهم اسم العشرة الطيبة . وحمل أمانة المجمع لعدة سنوات، ثم تولى بعدها رئاسته عام ١٩٧٤م خلفًا للدكتور طه حسين .

ولا يتسع هذا الحفل الكريم مهما امتد وطال لإيفاء هذه الشخصية العلمية الموسوعية للدكتور إبراهيم مدكور حقها من التقدير ، الذي استحق من أجله أعلى أوسمة الدولة التقديرية والعلمية؛فقد منحته جامعة برنستون شهادة الدكتوراه الفخرية ،وجامعة السوربون شهادة الدكتوراه العلمية .

أما إنجازاته وأنشطته داخل المجمع وخارجه فيفيض بها أي حديث عنها مهما طال ، وقد أحاط بمعظمها من قبلي الأستاذ الدكتور شوقي ضيف نائب رئيس المجمع، والأستاذ إبراهيم الترزي الأمين العام للمجمع في حديثيهما الرائعين. لهذا فإني أستأذن في أن أقصر حديثي عنه اليوم على جانب واحد فقط من تاريخه الحافل ، وهو اهتمامه باللغة العلمية العربية، وقضايا تعريب العلم والتعليم بالجامعات وهيئات البحث والتطبيق . ويشرفني أن أذكر له حكمة وردت في كلمة له في تقديم أحد المعاجم العلمية المتخصصة تقول: " لا حياة للعلم بدون لغة تؤديه ، ولا سبيل إلى النهوض به في وطن ما إلا أن يتدارسه المختصون فيه بلغتهم الوطنية "، وقد أصبحت هذه الحكمة عنوانا للعديد من المؤتمرات والندوات يرددها كل من يعنى بأمر اللغة والعلم وكل من ينادي بتعريب العلم والتعليم .

وكان مجمع اللغة العربية من أسبق الهيئات لتحقيقها باتخاذ خطوة إيجابية منذ إنشائه ، بفتح صدره لنخبة من الجامعيين العلميين الغيورين على اللغة العربية، والمهتمين بقضايا التعريب من أمثال محمد شرف، ومصطفى نظيف، ومرسى أحمد، وأحمد زكي، والحفناوي، والشرباصي، والدمرداش، ومنتصر ،وغيرهم ، عليهم جميعا رحمة الله . ومنذ خمسة وعشرين عاما شكل المجمع من أعضائه العلميين واللغويين لجانا علمية لغوية متخصصة في عدد من فروع العلم الأساسية والتطبيقية تعمل كلها بإشراف وتوجيه من مجلسه .

وأحاط الدكتور إبراهيم مدكور هذه اللجان العلمية اللغوية المتخصصة بالكثير من رعايته واهتمامه ، تحقيقًا وتنفيذاً لما ورد في قانون المجمع من بند يقول: " العمل على أن تعنى اللغة العربية بمطالب العلوم والفنون والحضارة " ، وكوّن الدكتور إبراهيم مدكور لجنة من مقرري اللجان العلمية تعمل تحت إشرافه وتوجيهه ، وكلّفها بوضع منهج خاص تسير عليه في عملها يستند على مبادئ أساسية منها: الإفادة بما استقر في التراث العربي من مصطلحات علمية عربية أو معربة صالحة للاستعمال الحديث ، والوفاء بأغراض التعليم ومطالب الترجمة والتأليف والثقافة العلمية العالية ، ومنها أيضا مسايرة النهج العلمي العالمي في وضع المصطلحات تيسيرًا للمشتغلين بالعلم والدراسة .

وفي ضوء هذه المبادئ وتوجيهات الفقيد الكبير، تقدمت اللجنة بمجموعة من التوصيات تناولت :

- إيثار ترجمة المصطلح دائمًا على تعريبه ، إلا إذا استعصت الترجمة فيلجأ إلى التعريب .
- اعتبار اللفظ المعرب لفظًا عربيًّا يخضع لقواعد اللغة العربية على أن يسيغه اللسان العربي .
- إفراد المصطلح المتخصص بمصطلح عربي واحد فقط وإلحاقه بشرح مبسط له يوضح دلالته العلمية .

ووافق مجلس المجمع ومؤتمره على ما جاء في هذا النهج وأوصى بنشره على أوسع نطاق بين المشتغلين بالعلم وبالتطبيق . وفي بضع سنوات أخرج المجمع أربعة عشر معجمًا علميًا عربيًّا إنجليزيًّا متخصصًا تحوي أكثر من مئة ألف مصطلح علمي مقنّنًا ومشروحًا ، تناولت علوم الرياضيات، والفيزيقا، والكيمياء والصيدلة، والبيولوجيا، والزراعة، والجيولوجيا، والجغرافيا، والنفط، والهندسة ،والطب ،والحاسبات . ونشرت هذه المعاجم في دور العلم والتعليم حيث صادفت قبولا وسدت فراغا ظل شاغرا في المكتبة العربية لأمد طويل . ويجري حاليا إخراج عدد آخر منها في علوم القانون والمنطق والإنثروبولوجيا والحضارة والموسيقا والفنون .

وبالإضافة إلى اهتماماته الموفقة في إخراج المعاجم العلمية ، لم يفت الدكتور إبراهيم مدكور الإشادة في جميع خطبه وأحاديثه بما قدمه ويقدمه العلميون من إنجاز ، مما حفزهم لاستكمال مسيرتهم في العمل على استحداث معاجمَ في فروع أخرى من العلم . ولم يقصر الدكتور إبراهيم مدكور نشاطه على داخل المجمع، بل امتد خارجه أيضا . فقد كان يحرص دائمًا على حضور المؤتمرات القومية العلمية، ويدعو فيها إلى ضرورة تنشيط قضية التعريب،وتشجيع الترجمة والتأليف باللغة العربية ، والدعوة إلى توحيد المصطلح العلمي العربي . وشارك بنفسه في هذه الجهود بإخراج طبعات جديدة من المعجم الوسيط تحوي زيادة واضحة من الألفاظ العلمية الشائعة الاستعمال . ويتم الآن تطعيم المعجم العربي الكبير أيضا بما يتطلبه الإنسان العربي المثقف من ألفاظ علمية .

وثمة جهود أخرى للفقيد الكبير الدكتور إبراهيم مدكور، لا تقل أهمية عن اهتماماته باللغة العلمية العربية . وهي مسايرة متطلبات العصر في استخدام التقنيات الحديثة في إدارات المجمع، ولجانه ،ومجالسه بإنشاء شبكة متكاملة لحاسب آلي كبير يعي بكل هذه الأنشطة ،ويرفع قدراتها وكفاءاتها أضعافًا كثيرة . ومن الجدير بالذكر أن شبكة الحاسب الحالية بالمجمع متصلة اتصالاً مباشرًا بالشبكة القومية المصرية للمعلومات واتخاذ القرار بمجلس الوزراء، مما ييسر لها التعامل مع جميع شبكات الهيئات العلمية الكبيرة في مصر كالجامعات والوزارات والمؤسسات. وتعني اللجان العلمية حاليًا بتغذية خزانة الحاسب بكل ما في معاجمها من مصطلحات في فروع العلم مضافًا إليها كل ما أصدره المجمع من مصطلحات في هذه الفروع، وما سوف يصدره منها في دوراته القادمة المتعاقبة أولاً بأول .

وغني عن البيان أنه فضلاً عن استيعاب الحاسب هذا الكم الهائل من المصطلحات والبيانات ، فإنه يتم الرجوع إلى أي مصطلح أو بيان منها في لحظة إذا ما طلبته اللجان أو المجالس أو المؤتمرات أو أية جهة أخرى خارجية ، كما أنه يمكن استخراج أقراص مغنطيسية صغيرة مسجل عليها مصطلحات علم بأكمله إذا ما طلبتها هيئة أو جهة خارجية .

وثمة إنجاز آخر كبير بـدأ تنفيـذه بالمجمع بتوجيه من الفقيد الكبيـر هـو الإسراع بإخراج المعجم الكبيـر الـذي كان العمل قد بدأ فيه منذ إنشاء المجمع تقريبًا ولكنه سار بالطرق التقليدية التي لم تنجز منه إلا جزءًا صغيرًا حـتى الآن . والأمل معقود على أن تسمح الظـروف والإمكانات الحالية، ووجود الحاسـب بالإسراع في السير في إنجاز هذا المشروع الضخم مع تحديثه وتطويـره لمسـايرة حاجيات العصر ومتطلباته .

سادتي :

هذه إلمامة سريعة عن جانب واحـد فقط مما قدمه، أو شارك فيه، أو وجَّه إليه فقيدنا الكبير الدكتور إبراهيم مدكـور في خدمة اللغة العربية عامة واللغة العلمية العربية خاصة ، وما تركه فيـهما مـن بصمات سوف تظل خالدة وضَّـاءة في سجل التاريخ .

وإذ يسجل العلميـسون في المجمـع إيـمانهم بقضاء الله وقدره ، لا يسـعهم إلا أن يتقدَّموا للوطن العـربي بخـالص العزاء على رحيل حامل لواء اللغة العربية في مصر وشيخ المجمعيين . وهم يؤكدون ثقتهم في قدرة خلفائه المخلصين علـى مواصلة السير بركب اللغة نحـو آفـاق رحبة ومستقبل زاهٍ يضعها في مصـاف اللغات العالمية الحية ، لغة رفيعة المستوى جديرة بما أضفاه عليها القرآن العظيم من تكريم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمود مختار

عضو المجمع

راعي الفصيحة

للأستاذ الدكتور محمد يوسف حسين

عضو المجمع

إلى روح الرئيس العظيم ، والفيلسوف الحر ، واللغويّ الفذّ ، والمثقف البحر، والمعلم المثال ، والرجل الإنسان ، المغفور له الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومي مدكور ، رئيس مجمع الخالدين : تغمَّده اللهُ بواسع رحمته ،

أرضُ الفصاحةِ زُلزِلتْ زلزالها
فارتـاع أهلوها وقـالوا: مالَها
ردَّ الصَّدَى : شيخُ الفصيحةِ قد مَضَى
جَلَّ المصابُ عَنِ العَزا يا آلَـها
مدكورُ أوْدَى وانقضَتْ أيامُهُ
ياللـرزيئةِ أثـقلتْ أهوالَـها
راعي الفصيحةِ قد مضى أنَّى لها
راعٍ يصـونُ ذمـارَها؟ أنَّى لَها؟
يا رُفْقَةَ الفصحى أُحلِّفُكُم بِهِ
أبقُـوا عليهَا شـأنَها وجَمالَها
خمسين عامًا ظلَّ يحمي رَبعَها
كُونوا لها من بعـدِهِ أبطالَـها
وترسَّموا خُطُواتِه فَهْوَ الذي
سوَّى الطريقَ لها وحلَّ عِقَالَـها

* * *

قد كان نهرًا في ثَراها دافقًا
أحلى مناهلَـها وثـجَّ زُلالَـها
قد كان طودًا في حِماها شاهقًا
فأعزَّ هيبتَـها وصـان جلالَها
قد كان نجمًا في سماها ساطِعًا
من أجله كلٌّ يـرومُ وِصَالَـها
سِيما الرئاسةِ فطرةٌ في طبعِهِ
لم تأتِـه مِن رُتبـةٍ قـد نـالها
ضادُ العُلُومِ له تدين بمجدِها
قد حلَّ عقـدتَها وهذَّب قالَـها
والإصطلاح : فنونه وعلومه
سُـننٌ له هو قد أقـرَّ أُصولَـها

* * *

قد كنتَ يا مدكورُ صاحِبَ حُجَّةٍ
في الحقِّ تُفحِمُ من يقومُ حِيالَـها
(ثبتًا على زَلَلِ الحوادثِ راكبًا
من صرفهن لكل حالٍ حالَـها)
والفيلسوفَ الحرَّ في فكرٍ وقـ
ـولٍ ليس يَنْقُضُ ، قولة قد قالها
الضادُ لاهجةٌ بفضلك عمرَها
كم قد حَميتَ ذِمَارَها ورجالَها
باللقوافي ما قَضَيْنَ لبانتي
من رَثْيكم ، ياللقـوافي يَالَـها

قَصرَتْ عنِ الشّرفِ الرَّفيعِ لأنها
ذَهِلتْ لفقدك ما تَعي أفعالَــها

* * *

ضمّتْ رُفاتَكَ روضةٌ مِعطارةٌ
(سحّت بها دِيَمُ الربيعِ طِلالَــها)

وحَبَاك ربُّكَ جنةً فينانةً
في الخُلدِ ثمراً شهدَها وزُلالَــها

طوبى لروحِكَ يا رئيسُ برتبةٍ
شمّاءَ في آفــاقِها ، طوبى لَــها

محمد يوسف حسن
عضو المجمع

بُكَائيةُ الضَّاد

في رثاء شيخ المجمعيين إبراهيم مدكور
قصيدة للأستاذ الدكتور كمال دسوقي
مقرر لجنة الفلسفة بالمجمع

فريدٌ كحرف الضاد في لغة العُرْب ... سَهيرٌ على الصحيح من لغة الفُرقا
مُفخَّمُ صَوْتاتٍ تُرقِّقُها الرُّبَضْ ... نِ دَهرًا فما غَفا ولا جَفْنُه غَمَضْ

* * *

سواء على سِيبْوَيه رخوة ضاد مصـــ
ـــرَ والشامِ أم شِدَّةُ النطقِ تَنْقَرِض ... مُصابي في الشيخ الرئيسِ فجيعةٌ
فلا الضادُ ظاءَ الفُرس والتركِ حيثُما ... فسهمُ افتقادي الأبَ لم يخطئِ الغَرَض
تعثَّرُ صوتٍ دونَ إحكامِه نَقَضْ ... تفرَّدَ فينا الجوهرَ الأولَ الذي
ولا ضَعفُ ضَادِ ابن يعيشَ-حلا النطق ... نقومُ ثوانيه كما الكيفِ والعرضْ
بطرفِ اللسان والثنيتين،بلى حَمُض ... أخذْنا عليه العهدَ أن نقتدي به
ولا موقفُ ابنِ فارسٍ وابنِ جِنّيٌ ... فبارِكْ مَسْعانا ، وإنْ حظُّنا رَفض
وشُرَّاحِ مَتْنِ "شفاءِ" قاضيهمو عِيَضْ ... فأباؤه إذ أسرَفوا وتشيَّعوا
فمدكورُ في القرآن " مُدْتَكر " الفَرَّا ... وأضحى تَفَلْسُفُهم بأنفُسهم مَرَضْ
ءِ يَسَّـــرَهُ اللهُ ليحـــلوَ ما غَمُضْ

تفرَّقتِ الأهواءُ في مِللٍ شتَّى
يُكَفِّرُ كُلٌّ مَنْ تحاوَرَ فاعترضْ

تهافتَ أصحابُ المذاهب لا يمحِّـ
صونَ الذي بَنَى الحقَّ والذي قَوَّض

وبعضهمُ استعدى على الغيرِ سُلْطَانَهُ
فاهلَكَهُ والغَيرُ شيطانهُ الحرَضْ

واحْرَقتِ البغضاءُ جوفَ مُنَاظِرِهْ
منَ الغيظِ ما دَرى بمن قبلَه ارتمضْ

* * *

تجلَّدْ ، فما بعدَ مذكورٍ لنا حِميً
وَلاَ عَنْه للسَّالكِ في دَرْبه عِوَضْ

ثكِلتُ حياتي بعد إبرَهم إذ وَصَّى
بَنِيـــه فما أدَّوا إليهِ الَّذِي فَرَضْ

ومعذرةً مَوْلايَ : ما أمسِ حَبَّبتَ
منهاجَ علمٍ اليومَ قد بَغُض

ولستَ تُوَفَّى حقَّ قَدْرِكَ سيِّدي
بما كَاتِبٌ سَطَّرَ أوْ شَاعِرٌ قَرَضْ

عليكَ سلام الله في منـــزل الأبرا
ر والشـــهداءِ بجناتِه الرِّيَضْ

وقبرًا ثويتَ به يُجَلِّله الرضوا
نُ ما قصفَ الرعدُ سَنَا برقِه وَمَض

وذكراكَ تبقى في مُريديك حتى يو
مَ لُقياكَ ما بالقلب ضَخُّ دَمٍ نَبَضْ

كمال محمد دسوقي
عضو المجمع
ومقرر لجنة الفلسفة بالمجمع

الدكتور إبراهيم مدكور : حياته الفكرية والفلسفية

للأستاذ الدكتور عاطف العراقي

رحل عن عالمنا- في الخامس من شهر ديسمبر- علم بارز من أعلام فكرنا العربي المعاصر . هو الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية .

والواقع أننا نجد أنفسنا- حين نتحدث عن الدكتور إبراهيم مدكور- أمام رجل بارز من رجال الفكر ، أستاذ للفلسفة بكل ما تحمله كلمة الأستاذ من معان ومدلولات ، أديب يعبر من خلال كتاباته الأدبية عن أسمى درجات الإحساس والوجدان ، رجل اهتم اهتمامًا كبيرًا بمشكلاتنا الاجتماعية، ومشكلاتنا السياسية، منذ السنوات الأولى بعد عودته من فرنسا، حيث سافر إليها للحصول على درجة دكتوراه الدولة في الفلسفة من السوربون .

ولم يقتصر نشاطه على البحوث والدراسات العميقة غاية العمق ، بل إنها تعدت ذلك إلى رعاية طلابه رعاية مستمرة . هؤلاء الطلاب الذين ينتشرون الآن في بقاع الأرض من مشرق الدنيا إلى معربها، وخاصة في عالمنا العربي من محيطه إلى خليجه .

نعم لقد احتل الدكتور إبراهيم مدكور في فكرنا العربي المعاصر مكانة كبيرة . لقد أسهم طوال حياته في دراسة وتحليل العديد من القضايا الفكرية والأدبية والفلسفية . وإذا كان الرجل قد رحل عن حياتنا التي نحياها ، فإن مجهوداته الفكرية والعلمية ستظل باقية طوال السنين، وعلى امتداد أرضنا العربية من مشرقها إلى مغربها . لقد ظل الرجل يكتب،ويحاضر، ويشرف على العديد من أوجه النشاط الفكري والفلسفي طوال أكثر من ستين عامًا، وعلى رأسها نشاطه داخل مجمع اللغة العربية عضوًا ، وأمين سرٍّ ، ورئيسًا له حتى وفاته، بالإضافة إلى اهتماماته الاجتماعية والسياسية .

لقد جمعتني بالرجل ذكريات عديدة. ناقشني في رسالتي للماجستير ورسالتي للدكتوراه . رحَّب باختياري خبيرًا للفلسفة بمجمع اللغة العربية . اختارني عضوًا باللجنة الدولية لنشر تراث أعظم

فلاسفة العرب وآخرهم ، ابن رشد ، عملاق فلسفتنا العربية في المشرق والمغرب معًا. اشتركت معه في مناقشة أكثر من رسالة علمية للماجستير والدكتوراه ، أهديت إليه أول كتاب قمت بإصداره بعد رسالتي للماجستير والدكتوراه وهو كتاب : مذاهب فلسفة المشرق . تبادلنا العديد من الخطابات داخل مصر وخارجها، وسأقوم بإيداعها بمجمع اللغة العربية. كتبت عنه دراسة تم نشرها بمصر احتفالاً بعيد ميلاده الخامس والثمانين . ويشاء القدر أن تبدأ صلتي الفكرية به في ديسمبر عام ١٩٦٥م ، ويرحل عن عالمنا في الشهر نفسه بعد ثلاثين عاما .

ولسنا في حاجة إلى الحديث عن تفصيلات حياته ، فهي معروفة ومنشورة بكتاب " المجمعيون في خمسين عامًا" وفي كتب أخرى ، سواء كتبها هو ، أو كتبها آخرون عنه . ومن المناسب أن نبدأ برحلة للدراسة بالخارج ، وبعض إنجازاته بعد عودته من البعثة .

لقد سافر إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه ، وذلك بعد عرقلة بعثته إلى إنجلترا بسبب الخلافات السياسية .

ودرس بفرنسا الفلسفة والقانون . وحصل على درجة الليسانس في الآداب، ودرجة الليسانس في الحقوق ، وبعدهما حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من السوربون . التقى به- في باريس - الدكتور عثمان أمين ، الذي يعد واحدًا من بين أعظم الأساتذة في عالمنا العربي ، وذلك في خريف عام ١٩٣١م ، وكان إبراهيم مدكور قد سبقه إلى السفر إلى فرنسا . ويشاء القدر أن يشرف الدكتور مدكور على كتاب تذكاري صدر عن عثمان أمين ، وأن يشرف عثمان أمين على كتاب تذكاري صدر عن إبراهيم مدكور .

ويتحدث الدكتور عثمان أمين عن جلسة مناقشة إبراهيم مدكور في رسالته للدكتوراه قائلاً : " لقد كنت حاضر الجلسة المشهودة ، جلسة المناقشة لرسالتيه عن " منطق أرسطو في العالم العربي" ، و"مكانة الفارابي في المدرسة الفلسفية الإسلامية" بمدرج ريشليو بتلك الجامعة ، فكنت من أشد الناس إعجابا برباطة جأشه، وحضور بديهته، واستقامة حُجَجه ووضوح رؤيته. وغمرني شعور الفرح حين سمعت أعضاء اللجنة الموقرة

يوجهون إليه موفور الثناء على تلك الصفات الجميلة البارزة التي تجلّت في رحابة النظر، وفي الصبر على البحث، والاتزان في الحكم.

كان الدكتور إبراهيم مدكور مهتمًّا بالنشاط السياسيّ والإصلاحيّ منذ أن كان طالبا، وبعد عودته من فرنسا تم اختياره عضوًا بمجلس الشيوخ، وكم أغنى جلسات المجلس بالعديد من المناقشات المثمرة والعميقة، وكم ضحّى بوقته وجهده لتقديم العديد من الاقتراحات.

لقد استطاع تحقيق الترابط بين الأبعاد النظرية؛ والأبعاد العملية؛ نتيجة لاعتقاده بأن للفلسفة دورها السياسي والاجتماعي.

يقول الدكتور عثمان أمين عنه: لقد اجتمعت له صفات الجامعي المحقق، والمجمعي الأمين، ورجل العمل الواعي. كان من أولئك القلائل الذين تحققوا على الأصالة بالقول المأثور: اعمل كأنك رجل فكر، وفكّر كأنك رجل عمل.

كانت علاقة الدكتور مدكور بأساتذة الفلسفة علاقة زمالة وصداقة، ومن بينهم: مصطفى عبد الرازق، وعثمان أمين، وتوفيق الطويل، ومحمود الخضيري، وأحمد فؤاد الأهواني. أثنى على كل واحد منهم ثناء بغير حدود.

أرسل لي خطابا وأنا أقوم بتدريس الفلسفة بجامعة قسنطينة بالجزائر منذ ربع قرن من الزمان، وعلى وجه التحديد في مارس عام ١٩٧٠م، يحثني فيه على متابعة كل ما يتعلق بالدكتور أحمد فؤاد الأهواني بعد وفاته بالجزائر؛ حرصًا على مصالح أسرته بالقاهرة. إن الإنسان يشعر بالحسرة حين يقارن بين أخلاقيات مفكرينا الكبار- ومن بينهم الدكتور إبراهيم مدكور - وبين ما نجده عند أبناء هذا الجيل الضائع من شتائم موجهة ضد أساتذتهم.

قدَّم الدكتور إبراهيم مدكور إلى مكتبتنا العربية الكثير من الدراسات، كما كتب أيضا باللغة الفرنسية، ومن بين كتبه: كتاب " في الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيق" وأسهم - كما قلنا - في العديد من المؤتمرات التي أقيمت للاحتفال بذكرى الشخصيات البارزة كالغزالي، وابن خلدون، وطه حسين ولويس ماسينيون، وابن سينا. حصل على جائزة الدولة التقديرية من مصر،

وعلى الدكتوراه الفخرية عام ١٩٦٤م من جامعة برنستون، وكان عضوًا -حتى وفاته- بالمجلس الأعلى للثقافة. وكم رحب بعضوية الدكتور توفيق الطويل ، كما شجع عضويتي بلجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة .

ولم يكن الدكتور مدكور يضيق بخلافي معه في الرأي، سواء أثناء مناقشتي في رسالتي للماجستير ورسالتي للدكتوراه، أو أثناء اشتغالي بالقضايا الفلسفية والفكرية التي مازلت مهتمًا بها، اختلفنا حول تسمية فلسفتنا : أهي إسلامية أم عربية ؟ كان يقول في كتابه "في الفلسفة الإسلامية":إنها إسلامية، وكنت من جانبي لا أتردد في القول بأنها عربية. كان يقول:إن الغزالي يعد فيلسوفًا، وكنت ومازلت أقول: إنه خارج إطار فلاسفة العرب ؛ فهو لا يزيد عن كونه متكلمًا أشعريًا وصوفيًا . كان يرى من خلال الفصل الذي كتبه عن الفلسفة من كتاب" أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية " أن خصائص الفلسفة الإسلامية تتبلور حول كونها فلسفة دينية وروحية، وأنها عقلية توفيقية ، وكنت أقول: من الظلم لفلسفتنا العربية أن نقول: إنها حصرت نفسها حول موضوع التوفيق بين الدين والفلسفة ، وخاصة أن فلاسفة العرب لم يقدر لهم النجاح في التوفيق بينهما ، بالإضافة إلى أن فلاسفة العرب لم يكن الهدف من مذاهبهم مجرد التوفيق بين الدين والفلسفة .

كان يثني على ابن سينا أكثر من ثنائه على ابن رشد ، وكنت أقول له :إن أمتنا العربية لم تنجب فيلسوفا يكاد يقترب من عظمة ابن رشد عميد الفلسفة العقلانية في العصر الوسيط، كان يبالغ أحيانا في إثبات تأثر مفكري الغرب في العصر الحديث ، بأفكار العديد من مفكرينا ، وكنت أقول: إن طبيعة الفكرة عند المفكر الأوربي قد تختلف عن طبيعتها عند المفكر العربي ، بل ربما لم يسمع المفكر الغربي عن مفكرينا العرب.

ولكن رغم هذه الخلافات في الرأي ظلت الصداقة بيننا مستمرة . وكم دار بيننا الحوار حول كتبه التي صدرت مؤخرًا ومن بينها كتابه " في الأخلاق والاجتماع" وكتابه " في الفكر الإسلامي"،ودراساته في الكتب التذكارية التي أشرفت عليها بالمجلس الأعلى للثقافة، ومن بينهما كتب تذكارية عن

يوسف كرم ،وابن رشد ، والشيخ محمد عبده ، والدكتور توفيق الطويل .

وقد كان شيئًا طبيعيًا أن يحظى مفكرنا الدكتور إبراهيم مدكور بالثناء والتقدير والإعجاب من جانب العديد من الهيئات العلمية والفكرية في أرجاء العالم كله شرقا وغربا . وعلى مستوى مصر فقد حصل - منذ أعوام بعيدة- على أعظم جائزة وأرفع وسام ، وأعني بهما جائزة الدولة التقديرية.

كما التقى حول فكره آلاف الدارسين والباحثين .

وعلى الرغم من اهتمامات الدكتور مدكور العديدة والمثمرة ، فإن المجال الرئيسي لاهتماماته هو مجال الفلسفة . لقد عمل مدرسًا للفلسفة -كما ذكرت- فور عودته من البعثة بفرنسا. يقول الدكتور عثمان أمين : لقد دارت الأيام ورأيت الدكتور إبراهيم مدكور في القاهرة يحاضر في الفلسفة الإسلامية مع أستاذنا المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فيجلو للطلاب مواقف الفارابي، وابن سينا، والغزالي، وابن رشد، وينشر من تلك المواقف فصولاً متتابعة في مجلة "الرسالة " جمعها بعدئذ في كتاب عنوانه " في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق" (دراسات فلسفية ص١٠)

إن نقطة الانطلاق الجوهري في فكر الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور تتمثل في سعيه سعيًا مستمرًا، سواء عن طريق مؤلفاته، أو مقالاته باللغة العربية واللغة الفرنسية،أو محاضراته وبحوثه في المؤتمرات الفلسفية العالمية . أقول: إنما تتمثل في سعيه إلى الربط بين الماضي والحاضر ؛ فهو لا يقف عند الماضي لمجرد أنه ماض أو تراث ، بل إنه يسعى بكل قوته إلى أن نأخذ في اعتبارنا ظروف الحاضر والمستقبل . وهذا- لعمري- يكشف عن عمق نظرة مفكرنا ورؤيته المستقبلية الجادة والثرية ثراء فكريًا واضحًا .

إنه بالإضافة إلى ذلك يعد من الذين اهتموا ببيان أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ، إن هذا الجهد من جانبه إن دلّنا على شيء فإنما يدلنا على أنه ينظر إلى التاريخ الفكري الحضاري على أساس أنه متماسك الحلقات، فإذا كانت كل حلقة تستمد بعض مقومات وجودها من الحلقة السابقة عليها فإنما تؤدي بدورها إلى التأثير في الحلقات أو الأدوار التالية لها . وهذا ما نعنيه عادة

بقضيـــة التــأثر والتأثــير؛ فـــالمفكر أو الفيلسوف بقدر ما يكون متأثرا في بعض آرائه بآراء السابقين له ، فهو في الوقـــت نفسه يكون ـ عن طريق آرائه – مؤثرًا في صياغة وبلورة آراء الذين يأتون بعـــده . وكم أكَّد على هذا الجانب وبحثه بحثًـــا عميقًا، أستاذنا الدكتور توفيق الطويل في كتبه العديدة .

لقد عالج الدكتور مدكـــور هـــذه القضية علاجًا مستفيضًا دقيقًـــا . فـــإذا رجعنا –على سبيل المثال– إلى الفصـــــل الخاص بالفلسفة من كتاب "أثر العـــرب والإسلام في النهضة الأوربيـــــة" وهـــو الفصل الذي كتبه الدكتـــور مدكـــور، وجدناه يحدد لنا صلة الفلسفة الإســلامية ومميزاتها . إن هذه الخصائص إنما تتبلـــور حول كونها فلسفة دينية روحية ، كمـــا أنها فلسفة عقلية توفيقية ، بالإضافـــة إلى أنها فلسفة وثيقـــة الصلـــة بـــالعلم . ثم يكشف لنا في دراسته هذه كيفية انتقالهـا إلى الغرب سواء عن طريـــق الاتصـــال التشخصي أو عن طريق الترجمة اللاتينية. كما يحدد لنا أسماء أهم الكتب التي تمـــت ترجمتها . وبالإضافة إلى ذلك ، ولكـــي يحدد الدكتور مدكور أوجه تأثيرهـــا في النهضة الأوربية ، فإنـــه يختـــار ثـــلاث مشكلات هي: مشكلة الوجود والماهيـة ومشكلة المعرفة ، ومشكلة النفس. إنـــه يحلل هذه المشكلات تحليلاً دقيقًا، ويبـــين لنا– عن طريق تقديم مجموعة من الأدلة– كيف أثرت آراء فلاسفة العرب حـــول تلك المشكلات في صياغة هذا الـــرأي أو ذاك من الآراء التي قال بها أكـــثر مـــن فيلسوف من فلاسفة المسيحية في العصـــر الوسيط، والعصر الحديث أيضـــا . إنـــه يقول في خاتمة دراسته هذه : لقد فتَحَتِ الفلسفة الإسلامية أمام اللاتـــين آفاقًـــا جديدة ووجهت أنظارهم نحو ثقافـات لم يكونوا يأبهون لها . حبَّبتهم في الثقافـــة العربية فجدُّوا في طلبها والأخذ عنـــها، وربطتهم بالفكر اليهودي؛ فأضحى جزءًا لا ينفصل عن الفكر المسيحي في القـــرون الوسطى . وعن طريق الثقافة اليهوديـــة العربية نفذوا إلى الثقافة اليونانية فكشـفوا عن ذخائرها وأقبلوا عليها أكثر مـــن ذي قبل .

والواقع أن هـــذه الآراء مـــن جـــانب الدكتور إبراهيم مدكور تدلنا على إيمانـــه بضرورة الربط بين القـــديم والجديـــد . صحيح أن المقارنات وإثبات فكرة التـأثر

والتأثير قد تكون لها مخاطرها ، ولكن الدارس المحلل والمتعمق لتاريخ الفكر الفلسفي يجد من واجبه التنبيه إلى أوجه التشابه بين أفكار مفكر أو فيلسوف وأفكار مفكر أو فيلسوف آخر، وخاصة إذا وجد أمامه الوثائق والمصادر التي تثبت له أخذ اللاحق عن السابق.

كما نود أن نشير إلى أن تأثر اللاحقين بالسابقين إنما يعد ظاهرة صحية وليس ظاهرة مرضية . فمن من الفلاسفة لم يأخذ عن غيره ؟ إنه من الصحيح تماما أن نقول: ليس فينا أصيل ، وذلك إذا فهمنا الأصالة بمعنى عدم تأثر الفيلسوف بأية فكرة سبقته وقال بها فيلسوف أو مفكر آخر .

إن المحلل لكتابات مفكرنا إبراهيم مدكور يجد أنه دائما يدعو إلى فتح النوافذ . يدعو إلى عدم الانغلاق . إن كتاباته تمثل دعوة إلى الانفتاح وليس الانغلاق . إن الانغلاق يودي إلى الفساد والموت ، كمن يتنفس هواء راكدا غير متجدد ويجد أنه من الضروري- لكي يُبقى على حياته وأسباب وجوده- أن يقوم بفتح النوافذ وإلا أصبح في عداد الأموات .

إن الدكتور إبراهيم مدكور كان يدعونا إلى أن نتجه إلى الترجمة بكل قوتنا ويضرب مثالاً على دلك بظاهرة صحية غير مرضية حدثت في العصر العباسي، وهي انفتاح العرب على النوافذ الثقافية الغربية اليونانية وما أحرانا أن نفعل ذلك الآن ! إننا - إذا لم نفعل ذلك - لن نستطيع مواكبة عصرنا وما فيه من تيارات متجددة، وستصيبنا لعنة المفكرين في كل زمان ومكان، وسيلحقنا الفناء، والدمار، والهلاك إن عاجلاً أو آجلاً . ولاشك أن اغتراف مفكرنا الدكتور إبراهيم مدكور من مصادر الثقافات الأجنبية - منذ سفره إلى فرنسا طالبًا للعلم- قد أثر عليه في دعوته إلى التأكيد على أهمية الترجمة والاطلاع على أفكار الآخرين، سواء اتفقنا معهم في الرأي أو اختلفنا معهم . إنني لا أشك في أن دعوة الدكتور مدكور إلى أهمية الترجمة ودراسة اللغات الأجنبية، إنما كانت من جانبه تأثرا بدعوات فلاسفتنا إلى الانفتاح على أفكار اليونان .وفلاسفتنا العرب قد آمنوا بأهمية الترجمة والاطلاع على أفكار فلاسفة اليونان . وكم دعانا الكندي إلى أن نطلب الحقيقة كحقيقة، أي بصرف

النظر عن مصدرها، سواء كانت عربية أو غير عربية(أي أجنبية يونانية) . وكم دعانا ابن رشد آخر فلاسفة العرب إلى أن نطلع على أفكار الأمم الأخرى، فما كان منها صوابًا استفدنا منه وشكرناهم عليه، وما كان غير صواب نبهنا إليه وبيّنا أنه ليس من الضروري أن نعتقد ما يعتقدونه من آراء .

ودعوة الدكتور مدكور إلى التنبيه على أهمية الترجمة والانفتاح على أفكار الآخرين، تعد دعوة غاية في الأهمية، وخاصة في أيامنا الحالية والتي نعيشها الآن.

لقد دعا الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور إلى ضرورة الترجمة للتعرف على أفكار الآخرين، وهو يؤكد ذلك خلال مناقشته لكل رسالة من الرسائل العلمية ، أو في محاضرة، أو في ندوة من الندوات التي أشرف عليها، وما أكثرها !

أقول: إن الدكتور مدكور- بالإضافة إلى ذلك- يؤكد تأكيدًا رئيسيًا ويركز تركيزًا لا حدَّ له على أهمية تحقيق التراث. ولا أشك من جانبي لحظة واحدة في أن المهتمين بتحقيق التراث، سواء في عالمنا العربي من مشرقه إلى مغربه، أو في العالم الغربي، يذكرون دومًا أياديه البيضاء وبصماته الواضحة والظاهرة في هذا المجال ، مجال تحقيق التراث . لقد أشرف على تحقيق العديد من أمهات المصادر الفلسفية وكنوز الفكر العربي الإسلامي. ومن بينها- على سبيل المثال لا الحصر- كتاب "الشفاء" لابن سينا، وهو موسوعة ضخمة استغرق العمل فيها أكثر من ربع قرن من الزمان . لقد شارك في هذا العمل الضخم- الذي لا يستغنى عنه أي باحث في الفكر الفلسفي العربي من قريب ومن بعيد- مجموعةٌ من المحققين والدارسين الممتازين، من بينهم: الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، والأب جورج قنواتي الذي يعد علامة مضيئة في سماء حياتنا الثقافية، وخاصة ما تعلق منها بمجال تحقيق التراث ، والأستاذ محمود الخضيري ، والدكتور أبو العلا عفيفي وغيرهم . لقد صدر قرار بتأليف لجنة لتحقيق كتاب "الشفاء" عام ١٩٤٩م ومنذ هذا التاريخ والكل يعمل ويؤدي واجبه تحت إشراف ومراجعة الدكتور إبراهيم مدكور . لقد جاء التحقيق آية في الدقة . إن المقارن بين هذا التحقيق وبين ما يحدث ويشيع

الآن عندما تقوم مجموعة من الناس بمجرد طبع كتب التراث ، بمجرد تحويل الصفحات الصفراء إلى صفحات بيضاء ، لابد أن ينظر بعين الإعجاب والتقدير إلى الجهد الكبير الذي قام به المشتركون في تحقيق كتاب "الشفاء" لابن سينا تحت إشراف ومراجعة الدكتور إبراهيم مدكور . إن ما يشيع الآن -كما قلت- إنما هو مجرد طبع كتب التراث، وهي عملية تجارية أساسًا، ولا تدخل في إطار العلم من قريب أو بعيد . أما بالنسبة لكتاب "الشفاء" فإن تحقيقه-كما قلت- يُعدُّ قائمًا على منهج علمي أكاديمي . لقد كتب الدكتور طه حسين تصديرا ممتازا لهذا العمل . وكتب الدكتور إبراهيم مدكور مقدمة رائعة، تناول فيها كل ما يتعلق بكتاب "الشفاء" من حيث موضوعه، وصلته ببقية كتب ابن سينا، وإلى أي مدى يعبر عن فلسفته وترجماته وأثره في العالم العربي والعالم اللاتيني الغربي .

وما يقال عن كتاب "الشفاء" يقال عن كتب عديدة من بينها: كتاب "المغني" للقاضي عبد الجبار المعتزلي، وكتاب "الفتوحات المكية" للصوفي ابن عربي، وهو يعد من أهم كتبه كما يعد موسوعة أو دائرة معارف في مجال التصوف الإسلامي ، والفلسفي منه علمي وجه الخصوص ، وقد ظَلّ زميلنا الدكتور عثمان يحيى يخرج الجزء بعد الآخر من أجزاء هذا الكتاب الرائع تحت إشراف ومراجعة الدكتور إبراهيم مدكور، إلى آخر تلك الكتب التي تعد من روائع التراث العربي .

والواقع أن اهتمام الدكتور إبراهيم مدكور بمجال التحقيق ، إنما يعد من جانبه إيمانا بأهمية تراثنا العربي، وردًا على هؤلاء الذين ينادون بالابتعاد عن التراث، بالابتعاد عن القديم ، لمجرد أنه قديم . ومنذ سنوات قليلة دعا الدكتور إبراهيم مدكور إلى الاهتمام بتحقيق كتب الفيلسوف الذي يعد عميد الفلسفة العقلية في وطننا العربي ، وهو ابن رشد الفيلسوف الأندلسي . وقد تم فعلاً عقد أكثر من اجتماع بالقاهرة، بخصوص هذا الموضوع، وكنت مشلوكًا في هذه الاجتماعات التي حضرها المهتمون بفلسفة ابن رشد، سواء في العالم العربي أو في العالم الغربي . وأشهد أن الدكتور إبراهيم مدكور كان حريصًا

الحرص كله على أن يتم إنجاز هذه العمل الضخم في أقرب وقت .

بل إن الاهتمام بمجال التحقيق يظهر من جانبه، سواء من خلال محاضراتـه أو من خلال إشرافه ورئاسته للعديد من المؤتمرات الفلسفية . أذكر أنـه حين تكوَّنت لجنة بالقاهرة للإعداد لمؤتمر ابن رشد بالجزائر- وكنت من أعضاء هذه اللجنة مع العديد من الأساتذة الكبار من بينهم: أستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود، والأستاذ بدر الدين أبو غازي، والأب جورج قنواتي، والدكتور ناصر الدين الأسد -أذكر أن مفكرنا إبراهيم مدكور اقترح أن يتم - قبل عقد المؤتمر- تحقيق كتاب أو أكثر من كتب هذا الفيلسوف المارد العملاق، أي ابن رشد. فنقدم بذلك أعظم خدمة للتراث الرشدي وللباحثين والمهتمين بالفلسفة الرشدية .

أما في مجال التأليف فإنه من الصعوبة بمكان - كما أشرت - أن نحلل آراء الرجل ونسبر أغوار فكره، وأكتفي -بالإضافة إلى ما سبق أن أشرت إليه أثناء حديثي عن بعض القضايا التي أثارها وحللها أستاذنا إبراهيم مدكور تحليلاً دقيقا- أن أشير إلى أن آراءه وخاصة ما تعلق منها بمنهج البحث في فكرنا الفلسفي ، ودعوته إلى المنهج التاريخي المقارن، إنما كانت معبرة عن الاهتمام بتراثنا من جهة ، والنظر إليه بمنظور جديد من جهة أخرى . إن هذا ما يدركه الباحث جيدا حين يتأمل في كل سطر من سطور كتبه ومن بينها: كتابه "في الفلسفة الإسلامية : منهج وتطبيق" سواء في الجزء الأول، أو في الجزء الثاني، وكتابه "في الأخلاق والاجتماع" الذي يعد مُعَبِّرًا خير تعبير ليس فقط عن ضرورة الالتزام بمنهج علمي مدروس، بل يعد مُعَبِّرًا أيضًا عن نظراته الثاقبة وتأملاته العميقة وحرصه على الربط بين الأفكار الفلسفية وتطبيقاتها في مجال الأخلاق والاجتماع ، وكتابه الذي صدر مؤخرًا بعنوان "في الفكر الإسلامي"الذي يظهر من خلاله اهتمام مفكرنا الكبير بالفكر العربي والفكر الغربي قديمًا وحديثًا .

إن هذا الكتاب ، الذي كان في الأصل مجموعة من المقالات في مناسبات عديدة، إنما يعد معبرا عن نظرته إلى تاريخ الفكر الفلسفي العالمي، وكيف أن

كل حلقة من حلقات هذا الفكر تتـأثر بالحلقات الـتي سـبقتها، وتـؤدي إلى الحلقات التي تليها . إنـه لا ينظـر إلى المفكر أو الفيلسـوف إلا مـن خـلال فلاسفة آخرين؛ إيمانا من جانبه بفكـرة التأثر والتأثـير . ولكـن دون إغفـال المميزات أو المقومات الخاصـة بكـل فيلسوف على حدة، وبكل مرحلة مـن مراحل الفلسفة على حدة. وأعتقـد أن هذه تعد نظرة دقيقة وموضوعية. ونحـن نقول دائما :إن من لم يقرأ إلا أفلاطـون لا يفهم أفلاطون، ومن هنا فإن الفـهم الصحيح والدقيق لفلسفة أي فيلسوف لا يتسنى لنا إلا إذا نظرنا إلى فلسفته مـن خلال ما سبقها، ومن خلال مـا جـاء بعدها.

لقد رحل عنا الدكتـور إبراهيـم مدكور . وأقول : إذا كنت أختلف مـع الرجل حول رأي أو أكثر من الآراء الـتي قال بها ، فإن هذا الاختلاف من طبيعـة الفلسفة والتفلسف ، وإن كان أكـثرهم لا يعلمون . لقد أدى الدكتور مدكـور دوراً، ودوراً بـارزاً في مجـال حياتنـا الفكرية والثقافية . ومن حقنا أن نفخـر بالدور الذي أدّاه ، ومن واجبنا أن نعـدد مآثره وأفضاله . ويكفي أنه كان أسـتاذاً في عالم كثر فيه أشباه الأساتذة ، وكـان غاية في النشاط في عالم كثر فيه الكسالى من أفراد البشر ، وكان مدافعًا دومًا عـن لغتنا العربية الفصحى ، وعن العديد مـن القيم النبيلة الخلاقة السامية .

عاطف العراقي

الأستاذ المتفرغ للفلسفة بكلية الآداب

بجامعة القاهرة والخبير بالمجمع

كلمة كلية دار العلوم

للأستاذ الدكتور حامد طاهر

السيد الأستاذ الدكتور شوقي ضيف نائب رئيس مجمع اللغة العربية:

السيد الأستاذ إبراهيم الترزي ، الأمين العام للمجمع :

السادة أعضاء المجمع الموقر:

أسرة الراحل الكريم:

يشرفني غاية التشريف أن أتحدث إليكم باسم كلية دار العلوم ، التي تخرج فيها إبراهيم مدكور ١٩٢٧م والتي ترتبط ومجمع اللغة العربية بأواصر قوية ، منذ طرح حفني ناصف - وهو من أعلام دار العلوم - فكرة هذا المجمع العظيم ، والتي مازال أساتذتها وعلماؤها يسهمون حتى اليوم في أعمال هذا المجمع ، وإنتاجه المعترف به .

أحدثكم باسم هذه الكلية العريقة التي يصل عمرها في العام القادم إلى قرن وربع ، وهي تحمل رسالة اللغة العربية: درسًا وتعليمًا ، وتجلو التراث الإسلامي تحقيقًا وتعريفًا . ويتخرج فيها كل عام أعداد مؤهلة ، لا يقتصر دورها على حركة التعليم في مصر وحدها ، وإنما يمتد إلى كل أنحاء الوطن العربي ، والعالم الإسلامي .

كان إبراهيم مدكور واحدًا من خريجي دار العلوم ، الذين نهلوا من علومها ، وأفادوا من منهجها ، وتشبّعوا بروحها ورسالتها .. وعندما سافر إلى فرنسا ليكمل دراساته العليا، تلقته جامعة السوربون وهو إنسان مكتمل الشخصية، ناضج الفكر ، متمكن من معرفة التراث العربي لغةً وثقافة ، فما كان منها إلا أن صقلت عقليته ، ووسّعت آفاقها ، وأعطته لمستها السحرية التي أخرجته من نطاق المحلية إلى نطاق العالمية .

في جامعة السوربون - وقد كان لي شرف الدراسة بها - ينظرون إلى الطالب العربي الوافد إليهم نظرة فاحصة ثم يبدؤون في التعامل معه على أساسها : فليس كلُّ من يذهب إلى هناك يعتبر طالبًا، وإنما المتميز يعد زميلاً للأساتذة ، ويصبح - مع الوقت - صديقًا لهم . وهذا ما حدث مع إبراهيم مدكور الذي وجدوا فيه أستاذًا مصريًّا يرغب في صقل

معارفه ، ويعمل على استكمال أدواته العلمية ، ولا أقول اكتسابها .

رحل إبراهيم مدكور إلى فرنسا،وهو على معرفة واعية بكل جوانب التراث العربي والإسلامي ، وذلك بفضل ما زوّدته به دار العلوم التي تدرّس اللغة العربية : نحوًا وصرفًا ومعجمًا ، والأدب العربي : نصوصًا وتاريخًا ونقدًا ،والشريعة الإسلامية : تفسيرًا وحديثًا وفقهًا وأصولَ فقهٍ، والفلسفة الإسلامية : منطقًا وتصوفًا وأخلاقًا وعلمَ كلام، والتاريخ الإسلامي : أحداثًا متسلسلة وحضارة .

لذلك فإن جامعة السوربون لم تكن مهمتها مع مدكور مستحيلة أو صعبة ، وإنما كانت في غاية اليسر والسهولة ، مجرد لمسة في المنهج ، مجرد دقة في الأسلوب، ثم بعد هذا وذاك تلك النظرة الشاملة لحركة الفكر في العالم كله ، واعتبار الإنسانية كُلاًّ متكاملاً ، يتنوع في الثقافات ولكنه يتّحد في الغايات .

وعاد مدكور من فرنسا ليشتغل بالعمل السياسي ، وقد يندهش بعضنا لذلك ، ولكنني أفهمه جيدًا من واقع معايشتي للتجربة الفرنسية : فهي تؤكد في أعماق المثقف أن مهمته لا تقتصر على التعليم داخل فصل أو مدرج ، وإنما تتسع لتشمل كل إنسان يعيش في المجتمع، وكل قضية تثار فيه .. ولقد رسخ في أذهاننا لفترة أن المثقف إنسان مترفّع عن حياة الناس اليومية ، يعيش في برج عاجي .. وتلك أسطورة فارغة ؛ فالمثقف واحد من الناس ، لابد أن يعيش عصره ، وأن يكافح فيه من أجل الأفضل.

تلك هي بعض اللمسات التي اكتسبها مدكور من السوربون ومن فرنسا عمومًا ، أضيفت إلى بناء متكامل من دار العلوم ، فخرج مزيج متميز ؛ عرف منذ اللحظة الأولى طريقه ، وتأكّد من قدراته ، ثم سار على الدرب منتجًا في كل الاتجاهات ، وتحت مختلف الظروف.

شارك في التحقيق ، وشجّع على الترجمة ، وعمل بالتأليف، وتلك هي الدوائر المتداخلة التي مازلنا- مع الأسف- نفصل إحداها عن الأخرى .

كتب الفلسفة لطلاب المدارس الثانوية (وكما قيل بحق مازال كتابه متفردًا لم يتجاوزه غيره حتى اليوم) وكتب الفلسفة الإسلامية

لطلاب الدراسات العليا ، مبينًا لهم المنهج ، وواضعًا أيديهم على تطبيقاته .

وكان مجمعكم الموقر مجالاً رحبًا تفتحت فيه إمكانيات مدكور الثقافية الضخمة .. فأشرف على صنع المعاجم ، وتراجم الأعلام، وهي اللبنات الأساسية لأي بناء ثقافي وتعليمي ، ولا أريد أن أقول: إنه تأثر في هذا المجال بديدرو وأصحاب الموسوعة الفرنسية ولكنني أقول: إن عظماء الرجال في كل مجتمع يتشابهون ؛ لأنهم يعرفون دائمًا مواطن الضعف والقوة ، ويميزون دائمًا بين الصحيح والزائف .

ليس صحيحًا أن العمل الإداري يفسد الجانب العلمي في الإنسان، وخاصة إذا كان هذا الإنسان ظاهرة متميزة مثل مدكور .. فالعقل العلمي لا يحب الفوضى ، ويسعى دائمًا إلى تحقيق النظام، كما يهدف إلى الاكتمال في الأداء والنتائج .. ولقد شهد مجمع اللغة العربية في عهد مدكور الكثير من ذلك ، وإن كانت الظروف أحيانًا غير مواتية ، وأدوات العمل في أحيان أخرى غير مناسبة تمامًا .

ولم يكن مدكور من هواة الإعلام بالمعنى السَّيِّئ للكلمة ؛ فلم يكن يعلن عما يفعل ولا يهتم بالإخبار عنه، تاركًا للناس حرية الحكم بأنفسهم عليه بعد أن يكتمل .. وتلك إحدى الخصائص التي ترسخها كلية دار العلوم في أبنائها وخريجيها .

ولم يكن مدكور يكتب بالعربية الفصحى كلامًا متهافتًا أو سقيمًا وإنما في كل جملة، بل في كل لفظة ، هو نموذج للمدقق الذي يُجهد نفسه لاختيار الأدق والأوضح . إنني لا أتصور باحثًا في التراث العربي لا يجيد قواعد النحو والبلاغة التي بها تتقوّم العبارة ، ويتضح المفهوم ، ولا يمكن للنصوص القديمة أن تفهم فهمًا صحيحًا إلا على أساسها .. وقد تربَّى مدكور في كلية دار العلوم على هذه الأسس والقواعد ، وظل ملتزمًا بها.

في خلال يومين متتاليين يقام لمدكور ثلاث حفلات تأبين ، وهذا يعني أن شجرته الوارفة قد امتدت أغصانها وفروعها على جهات كثيرة ومتعددة .

وقد يقال إن دار العلوم وهي كليته الأم لم تقم حفل تأبين له ، ولكنني أعد

أمامكم أن نخصص له احتفالية علمية متكاملة ، تجري فيها دراسة أعماله ، وتقييم دوره الفكري الكبير ، ويشترك فيها جميع المعترفين بجهوده ، وإن شاء الله، يكون لمجمعكم الموقر دور مهم في تلك الاحتفالية .

وقبل أن أنهي كلمتي أذكر ملمحين من ملامح شخصية الدكتور مدكور : أما الملمح الأول فشخصي . وهو إنصاف طلاب الفلسفة حين كانوا يتعرضون لظلم أو تعصب : ومن ذلك أني رُشِّحت في عام ١٩٧٤م لبعثة حكومية إلى فرنسا، وإلى جامعة السوربون ، في تخصص الدكتور مدكور نفسه، وكانت البعثة تابعة لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية وتعصب ضدي أحد الأساتذة هناك ، وكان حينئذ رئيسًا للقسم، فرفض أن أخرج في هذه البعثة، مع أنني كنت المرشح الوحيد لها، والسبب في رأيه أنني من خريجي دار العلوم، ولست من آداب الإسكندرية، وتوجهت دون سابق معرفة شخصية إلى الدكتور مدكور، فقابلني بترحاب، وكتب لي خطة البعثة التي وافقت عليها على الفور إدارةُ البعثات . وعندما عدت من البعثة بعد سبع سنوات كان أول ما فكرت فيه زيارته في مكتبه بالمجمع ، وظل الرجل يسألني عما حدث لي بجامعة السوربون ، ويستفسر عن زملائه وأصدقائه .. وأهم ما في هذا الملمح هو كراهيته الشديدة للتعصب وضيق الأفق .

أما الملمح الثاني ، فهو ذو طابع عام. فحين ثارت زوبعة غوغائية ضد نشر كتاب" الفتوحات المكية " لمحيي الدين بن عربي، وكاد الأمر ينتهي إلى وقف الكتاب بقرار واجب التنفيذ ، انبرى مدكور للرد على تلك الحملة ، فأسكتها، وانتصر بقوة منطقه ، وصراحة حججه على الغوغائية .

والآن يمكننا أن نتساءل : هل قضى تمامًا على التعصب والغوغائية ؟

لقد رحل عنا مدكور ، ولكنه ترك من المبادئ ما إن تمسكنا به ، فقد يمكننا أن نقضي عليها .

رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزاء عما قدم للفكر الإسلامي واللغة العربية من خدمات . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حامد طاهر

عميد كلية دار العلوم والخبير بالمجمع

إبراهيم مدكور والفلسفة

للأستاذة الدكتورة زينب محمود الخضيري

عندما لبّى شيخ الأجيال أستاذي الدكتور إبراهيم مدكور ، الذي انعقدت له رئاسة كل المجالات التي شارك فيها ، وكُتِبَتْ له الريادة طوال حياته - عندما لبى نداء ربه في الخامس من ديسمبر من العام المنصرم، لم يغب عنا إلا بجسده ، إذ ظل وسيظل على الدوام حاضرًا حضورًا لا يبارى بيننا ، بفضل سخاء عطائه ، وبسمو قيمه ، وبعمق إنسانيته . وسيظل أستاذي صفحة ناصعة مشرقة من تاريخ مصر الثقافي والسياسي، وهو الذي نجح في رفع رأسها عاليا في كل أنحاء المعمورة التي دعته فطار إليها؛ ليصول ويجول في محافلها العلمية بقدرته الفذة على النفاد إلى دقائق الأمور وأسس القضايا ، مُعَبِّرًا بصوته القوي الهادئ الحبيب عن الحقيقة، والحق، والرؤية المتطلعة إلى غد أجمل تتحقق فيه كل القيم الإنسانية الرفيعة التي عشقها.

جعل من العمل المتقن المتطور دستورًا لحياته، سواء في طلبه للعلم، أو في إنتاجه له ، أو في " إدارته " المتميزة للمشاريع العلمية الضخمة في عدة مجالات، وعلى رأسها بالطبع ما يتعلق باللغة العربية . ولأن الله يحب العبد الذي يتقن عمله ، أحب الله أستاذنا ففتح له أبواب النجاح والمجد على مصراعيها . ولعل أكثرنا يعرف أنه كان ثاني مصري يحصل على الدكتوراه في الفلسفة، وذلك عام ١٩٣٤م إذ كان الأول هو الشيخ الإمام مصطفى عبد الرازق . ولقد بدأ أستاذي حياته الأكاديمية برسالتيه اللتين تقدَّم بهما لجامعة السوربون بباريس، وقد أصبحتا دراستين كلاسيكيتين، لا غنى عنهما لأي باحث في الفلسفة الإسلامية حتى يومنا هذا، ونعني بهما " مكانة الفارابي في المدرسة الفلسفية الإسلامية " و " جانون أرسطو في العالم العربي" . وبُهِر بهما أساتذته الذين أدركوا أن هذا الوافد الشاب الموهوب حاد الذكاء، عظيم الجلد ، بالغ الحماس، قد أصبح زميلاً لهم ، وأن المستقبل له؛ لأنه هو صاحب الفكر الذي يدرسه في حين أنهم أغراب عنه . قدَّم له المستشرق العالمي

لويس ماسينيون أعظم مستشرقي القرن العشرين، الذي أصبح عضوًا في هذا المجمع الجليل ، والذي رأس أستاذنا - منذ عدة سنوات - احتفالاً بالذكرى المئوية لميلاده، قدّم لرسالته الأولى بقوله: إن من سيصبح شيخ الفلسفة الإسلامية قد نجح - بفضل جمعه بين التكوين اللغوي والعقائدي الذي حصل عليه في دار العلوم بالقاهرة، وبين إتقانه للمناهج الغربية الحديثة التي تعلمها في باريس - في أن يتجاوز في دراسته التأريخ إلى التفلسف .

وإذا كانت السياسة قد شغلته فترة لأن واجبه الوطني كان يفرض عليه ذلك؛ فإنه لم يستطع البعد طويلا عن ذلك المجال الذي عشقه وكرّس له حياته كلها وأعني به خدمة اللغة العربية . ومنذ أن اختير عضوًا في مجمع اللغة العربية ، وحتى قبل أن يصبح رئيسًا له على أثر وفاة عميد الأدب العربي عام ١٩٧٣م وهذا المجمع داره . ولقد كان يستخدم كلمة " البيت" للدلالة عليه فيقول : "فلان من البيت هنا " أو " البيت يحتاج لكذا " . وليس بغريب أن يعنى الفيلسوف باللغة كل هذه العناية ، فاللغة وعاء الفكر والألفاظ حاملة للمفاهيم . ولابد أن ذلك المصري المهموم بمشاكل بلاده ومصيرها ، الموسوعي الثقافة، كان يدرك أن الموسوعة التي أشرف عليها الفيلسوف الفرنسي "ديدرو " ساهمت مساهمة كبيرة في صياغة فكر الفرنسيين الإصلاحي قبيل الثورة الفرنسية؛ فنهضوا يصلحون أحوال بلادهم ؛فأراد أستاذنا أن ينهج نفس النهج . وببصيرته الشهيرة التي عرفها كل من اتصل به صاغ مشروعًا ضخمًا للنهوض باللغة العربية، عماده أمران، يصعب التوفيق بينهما عادة، وإن نجح هو في ذلك بيسر: أولهما: المحافظة على تراثنا اللغوي الغالي لأنه جذور وأصول هويتنا .

وثانيهما : تحديث هذا التراث بالانفتاح على ألفاظ كل من الحضارة الحديثة، وأهم أركانها العلم ، والحياة العامة، بهدف مواكبة روح العصر حتى لا تتخلف لغتنا عن سائر اللغات العالمية. ونجح أستاذي مع الفريق الذي عمل معه في ربط لغة القرن العشرين بلغة الجاهلية وصدر الإسلام، وهدم الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت خطأ في طريق تطور اللغة ونموها. وأصبح إصدار المعاجم

والقواميس اللغوية في كافة فروع الفكر ، والعلم رسالته التي حشد لها الجهود للنهوض بها. ونهج في ذلك المنهج العلمي المعاصر ، الأمر الذي تطلب منه الوقوف عن قرب على جهود كبرى المؤسسات العلمية الغربية، التي اضطلعت بمثل هذا العمل وعليه رأسها مؤسسة لاروس الفرنسية . ولقد حدثني مراراً عن زيارته لتلك الدور وعن استفادته البالغة من جراء ذلك .

أستاذي:كم كانت متوهجة على الدوام رغبتك في التعلم وفي متابعة الجديد من أجل التطور والتقدم ، وكم كانت تذهلنا – نحن تلاميذك – الذين نسعى لمحاكاتك في ذلك فنكل، وتستمر أنت ثابت الخطى . في هذا المجمع كوَّن أستاذي اللجان من عظام المتخصصين، ووزّع المهام ، ونظّم العمل وحصل عليه وشارك فيه ، وراجعه في كثير من الأحيان، وقدَّم له مبرزا جهود فريق أصدقائه المؤمنين بالرسالة . ولعل في مقدمة تلك المعاجم " معجم ألفاظ القرآن الكريم "،و " المعجم الكبير " ، و"المعجم الوسيط "،و" المعجم الوجيز ". وكلها صدرت لها عدة طبعات وكلها ذائعة الصيت . ولم ينس أستاذي الفلسفة فأصدر في المجلس الأعلى للثقافة، وهو من أعمدته الرئيسية، " معجم العلوم الاجتماعية "، والجزء الأول من " معجم أعلام الفكر الإنساني " فسد بذلك ثغرة مهمة في ثقافتنا العربية . وكوَّن لجنة مازالت تواصل العمل لإصدار " معجم المصطلحات الفلسفية العربية ".

وفي عهد أستاذي أصبح هذا المجمع معهدًا عالميًا ذائع الصيت ، يحج إليه علماء لغتنا من العالم أجمع (فمن بين أعضائه بعض الغربيين) مرة كل عام ، بمناسبة انعقاد مؤتمره الذي جعله أستاذنا احتفالية علمية ، ينتبه إليها حتى في أحلك الفترات التي عرفت فيها الثقافة العربية نوعًا من الخسوف . الكل يلبي نداء أستاذنا، وهو يمني نفسه بالحوار والاستفادة العلميَّيْن، والتقارب العقلي والروحي الحقيقي . ونجح الشيخ الرئيس في أن يتجاوز دائما الخلافات السياسية بين الدول الشقيقة ، مؤمنًا بأن ما يجمع بينها أقوى من كل عثرات عابرة ، وفي أن يجعل زملاءه العرب يستنون سنته، فحقق الجميع الوحدة الثقافية العربية التي لا يمكن المساس بها ؛ لأنها حقيقة تاريخية، وواقع معاش .

وقد ظلّ رئيسًا لاتحاد المجامع العربية حتى وفاته ، ومعه أصبحت مجلة هذا المجمع مجلة عالمية ، وصارت مكتبته مكتبة هائلة، ولقد ضم إليها قبيل وفاته مكتبته الخاصة النادرة . أليس المجمع داره الذي لا يبخل عليه بشيء ؟

في هذه القاعة كم من عضو جديد استقبَلَه مُرَحِّبًا ، وكم من زميل نعاه ذاكرًا فضله، حزينًا على فراقه ، وكم من أبحاث دقيقة ألقى . وفي مكتبه المجاور لهذا المكان كم من علماء من كل أرجاء العالم استقبل بحفاوته الشرقية الشهيرة ، وكم من قضية تبنّى ، وكم من تلميذ وجّه وعلّم ، بفضل الشيخ الرئيس أصبح هذا المجمع الخالد كما هو عليه الآن، وبوجوده فيه وبعلاقاته الشخصية العالمية ذاع صيته في العالم أجمع، حتى أن البعض يطلق على هذا المجمع اسم مجمع مدكور للغة العربية . وإنا لننتظر من المجمع أن يكرم اسم الراحل العزيز بصورة لائقة كأن ينشئ جائزة كبيرة باسمه، وكأن يصدر سلسلة تنسب إليه .

خسارتنا فادحة، هذا لا جدال فيه ، وإن كانت ثقتنا في الله وفي مصر من بعده كبيرة في أن يظهر بيننا خليفة للشيخ الرئيس يتحمل الأمانة كما تحملها، ويخلص كما أخلص ، ويعطي بلا حساب كما أعطى ، ويحب الناس كما فعل فيحبونه .

أبي ومعلمي، لا أقول : وداعًا لأنك معنا في قلوبنا وفي عقولنا ، جزاك الله عنا كل خير .

زينب محمود الخضيري

أستاذة الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة

راهب الفصحى : سلامًا ... لا وداعًا !

للأستاذ الدكتور عميفي محمود عفيفي

لست أدري كيف واتتني الجرأة على التصدّي لرثاء رجل شارك أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد ، وعميد الأدب العربي طه حسين العمل - جنبًا إلى جنب - في خدمة قضايا الفصحى وعلومها زهاء ربع قرن .. ثم واصل العمل - بعد رحيلهما - ربع قرن آخر ، وبذلك أنفق أكثر من نصف عمره في هدا المجال ... فلو قسمنا الأعوام التي قضاها في خدمة اللغة العربية على حروفها المنطوقة لوجدنا أن كل حرف منها قد استهلك من عمره زهاء عامين .

رجل تصدَّى في بسالة وفروسية لتحقيق كتاب "القانون" لابن سينا بعد مُضي بضعة قرون على تفرق نسخها بين مكتبات العالم شرقيّه وعربيّه .

رجل كان مع العقاد ثانيَ اثنين إذ هما في البرلمان، يناهضان الإقطاع والرأسمالية متمثلين في ملك دخيل مستبد اتخذ من مصر ضيعة ورثها عن آبائه الجراكسة ومن أهلها عبيدًا وإماءً .. وكان جزاء إبراهيم مدكور على مواقفه حرمانه مما كان مرشحًا له من أن يكون أول رئيس تحرير مصري لأعرق جريدة عربية هي الأهرام ، وشُطِب اسمه من قائمة المرشحين للاشتراك في الوزارة ... ولم يَدْرِ من فعل ذلك أنه لم يعاقب مدكورًا إنما كافأه ، إذ دعاه أستاذ الجيل رئيس مجمع الخالدين آنداك - لمشاركته العمل ، فأنزله بدلك منزلة أرفع مما كان ينتظره لو رأس تحرير الجريدة أو تربع على كرسيّ الوزارة .

رجل حقق لمجمع الخالدين - في أثناء رئاسته - من الأهداف أسماها وأغلاها ، بالتوسع في الاستعانة بخبراء العلوم الطبيعية بمختلف فروعها ، وإصدار بعض معاجمها ومعجم ألفاظ الحضارة .. وغير ذلك مما لم تكن أحلام شاعر النيل حافظ إبراهيم تتطاول إليه. ولعل روحه الآن قد هدأت في برزخها بعد ما لحقت بها روح إبراهيم مدكور، وأفضت إليها بما حققه سدنة الفصحى لها من الآمال الغالية .

هذه هي بعض الخواطر التي كانت تحوّم في أفق خيالي وأنا أنسج خيوط

مرثيتي في فقيدنا الكبير .. هاتـــفًا بــــه:

راهب الفصحى سلامًا، لا وداعًا!

ما كنت أحسبُ أن يكون رثائي
في "ســـيبويهِ" كنانة الفُصحاءِ

واللهُ يشهدُ: ما القريض صناعتي
وأنا الرَّديفُ بمـــوكِبِ البلغاءِ

لكنَّه الإخلاصُ أنطقني وَطَوَّ
(م)عَ لي قوافي الشعر فيضُ وفائي

كغمامة الصحراء تعصِرُ نفسَها
لتـــرُدَّ لليـــنبوعِ .. قطرةَ ماءِ

سبحان من خلق البيانَ وعلَّم الــ
إنســـانَ - آدمَ - سائرَ الأسماءِ

وقضَتْ مشيئتُهُ اختلافَ لغاتِ مَنْ
بَدَؤوا لســـانًا واحـــدًا بأداءِ

واختصَّ بالفصحى سُلالَةَ يَعْرُب
واختار للتنـــزيل خيرَ وعاءِ

واللفظ للمعنى وعاءٌ يحتويـــ
ـــهِ كضِفَّتَي نهرٍ لمسرى الماءِ

لغةٌ بها القرآنُ أُنزِل فازدهت
بحُروفِها .. من همـــزةٍ للياءِ

لكنْ أتى حِينٌ عليها كُبِّلَتْ
بقيـــود حُكَّامٍ مِنَ الدُّخَلاءِ

في أهلِها ذَاقَتْ - وفي أوطانها -
ذُلَّ اليتيمِ ووحشةَ الغرباءِ!

عاشت رهينةَ محبسَينِ وخُوصِرتْ
في مصحفٍ، وقصيدةٍ عصماءِ

ظلَّت تُحدِّث نفسَها عن نفسِها
وبذاك أخبر شاعرُ البؤسَاءِ(*)

يا شاعرَ النيل اطمئِنّ .. فما حَلُمْـــ
ـــتَ به تحقق فوق كلِّ رجاءِ

كم كنتَ تندُبُ حظَّها بلسانها
وتخـــصُّ غفـــلةَ أهلِها برثاءِ

فُصْحَاكَ ما عادتْ رَهينةَ مُعْجَمٍ
أو حِلْيـــةً في دفترِ الإنشـــاءِ

لغةُ العروبةِ مزَّقت أكفانَها
ومضت تشـــقُّ طريقَها بإباءِ

وغَزَتْ بألفاظِ الحضارةِ عالَمَ الــ
تصنيعِ .. بعد الطبِّ والكيمياءِ

وَغدًا تُحدِّثُنا عن الأقمارِ فُصْـــ
ـــحانا وقدْ رَكِبَتْ سفينَ فضاءِ

لو طالَ عُمرُكَ أربعًا لرقصْتَ في
يومِ انطـــلاقِ أميرةِ الشُّـــعَراءِ

وشهدْتَ مصرعَ من أرادوا وأْدَها
وهي التي بقيـــت مع الأحياءِ

ورأيتَها تختالُ يومَ زفافِها
وتجرُّ ثوبَ العُـــرْسِ في خُيَلاءِ

والتَّاجُ يَسْطَعُ فوق مَفرِقِها يبثُّ
ضياءَها في ســـــائرِ الأرجاءِ

---

* شاعر البؤساء اللقب الثاني لشاعر النيل حافظ إبراهيم، وله قصيدة معروفة عنوانها: "اللغة العربية تندب حظها".

فاليومَ أُسِّسَ معبدُ الفُصْحَى فصا ... ونَبَذْتَ كُرْسِيَّ الوزارة كَي تُجَا
رَتْ مصرُ- حقًّا- كعبةَ الفُصَحَاءِ ... هِدَ تَحتَ قُبَّةِ منبرِ الشُّرَفَاءِ
ولقد أراد اللهُ فكَّ حِصَارِها ... ولقد حَباك اللهُ خيرًا مِنْهُمَا
لما التقى الأدباءُ .. بالعلماءِ ... في معبدِ الفصحى كريمَ نقاءِ

* * *

ومضى شريطُ الذكرياتِ يُصوِّر الـ ... لبَّيْتَ - لـمَّا أنْ دُعِيتَ - مُشَارِكًا
أحداثَ - بعد فواتِها - بجَلاءِ ... أستاذَ جيلِ النُّبْلِ - والنُّبلاءِ(٣)
فإذا بمصرَ سفينةٌ تهتزُّ في ... حتَّى دعاهُ اللهُ .. وانتقلَ اللِّوا
بحرِ السِّياسةِ غاضبِ الأنواءِ ... ءُ لِذي البَصَائِرِ .. قاهرِ الظُّلَمَاءِ(٤)
فَقَدَتْ هُوِيَّتَها ، وقد آلتْ أُمو ... قد كنتَ يُمنَاهُ ، وعينيهِ ، وخَيْـ
رُ الحكمِ للمحتَلِّ .. والعُمَلاءِ ... ـمةَ ظِلِّه .. في رحلةِ الصَّحْرَاءِ
يا مَنْ حملْتَ رسالةَ الفصحى ، وفي ... في عهدِهِ أخرجت " قانون بن سيـ
وجهِ الرياحِ رفعتَ خيرَ لِواءِ ... نا " مصدرَ الدُّستورِ للحُكَمَاءِ
في زورقٍ قد شقَّ عاري صدرِهِ ... وَبِإِثْرِه أصبحتَ خيرَ خليفةٍ
موجَ النفاقِ بهمَّةٍ .. وَمَضَاءِ ... لأبي البيانِ .. وعمدةِ العُمَدَاءِ(٥)

* * *

قد كنتَ والعقَّادُ بمجدافَينِ لم ... يا ربِّ .. قد لبَّى نِدَاكَ إمامُنا
يتوقَّفا في عاصفِ الأجواءِ ... فاجْعلْ ثَراهُ منازلَ الشُّهدَاءِ
في وجهِ طاغيةِ البلادِ (١) رميت قفـ ... واحْفظْ لقافلةِ البيانِ مَسَارَها
ـازَ التَّحدِي .. في كريمِ إباءِ ... فالرَّكْبُ لا يمضِي بغيرِ حُدَاءِ
فحُرِمت تحرير الجريدة (٢) خشيةً ... مِصْرُ العروبةِ لم تَزَلْ ولاَّدةً
مِنْ أنْ تُعرِّيَ سَوْأةَ الجُهَلاَءِ ... والنيلُ لم ينفكَّ نهرَ عَطَاءِ

(١) الملك فاروق .

(٢) جريدة الأهرام ، وكان العقيد قد رُشّح لرئاسة تحريرها ، فاستبعد أعوان الملك اسمه عقابًا له على موافقة المعارضة للملك في مجلس النواب ، وتحسّبًا لما قد ينشره عن فضائح العرش

(٣) أستاذ الجليل أحمد لطفي السيد أحد مؤسسي الجامعة المصرية ، وأول رئيس لها ، وثاني رئيس لمجمع اللغة العربية

(٤ ، ٥) عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين الذي لم يمنعه فقد بصره من تنوير عصره

فأعِنْ خليفتَهُ على استِكمالِ ما
بدآهُ مِنْ غَــرسٍ ومِن إنشــاءِ
رفَعَا القواعدَ من أساسِ البيتِ في
دأب على الترســيخِ والإعلاءِ

حتى أقاما رابعَ الأهرامِ في
أرضِ الخُلودِ ومنجَمِ العُظَـمَاءِ
فامدُدْ بفضلِكَ - ربَّنا - آحالنا
حتى نُــبايعَ رابــعَ الخــلفاءِ

عفيفي محمود عفيفي
الأستاذ المتفرغ بكلية العلوم
بجامعة المنصورة والخبير بالمجمع

كلمة الأسرة

للأستاذ الدكتور محمد عبد الخالق إبراهيم مدكور

السيد الأستاذ الدكتور نائب رئيس المجمع :

السادة المفكرون، والعلماء ، والأساتذة الأجلاء :

سيداتي وسادتي :

نيابة عن أسرة الفقيد الغالي أتقدم بكلمات شكر وامتنان وتقدير ليس لها أن تفي حق ما لمسناه من وفاء وإشادة.

والشكر ابتداءً للبيت الأكبر: مجمع اللغة العربية وللقائمين عليه .

والشكر أساسًا لمحدثينا الأفاضل من زملائه الخالدين، أو تلاميذه ومريديه النابهين .

والشكر ختامًا لضيوف كرام شاركونا في ظاهرة الوفاء هذه .

أما بعد

فلعل في الكثير الغزير مما سمعت عن مدكور العالم، ومدكور المفكر الفيلسوف، ومدكور رجل الإدارة، ومدكور رجل الدولة، بل ومدكور "صانع الحياة"،ما يثير في نفسي من تطابق مع فيض من الذكريات حول مدكور الأب الإنسان تطابق ما بين :

الشيخ الرئيس، والقدوة الحنون.

ما بين - رجل الدولة ورب البيت، وما بين - عمق ورزانة العالم المفكر، والأب المتياسط المتسامح المتفهم دائمًا .

وفي هذا المقام وفيما سمعته اليوم ويوم أمس من أصدق وأوفى الكلم، بل وأعطره، ما يذكرني بدعابة للوالد سارت لنا ذكرى ومثلاً شائعًا بين العائلة .

أسوقها لسيادتكم كتعبير عما جاش في نفسي من مقابلة بين ما عايشتموه، وما عايشناه نحن من شموخ وحضور مع التبسط.

ويقيني بأن الفقيد في حكمته ما كان ليترك هذا التجمع يمر دون أن تخالج العبرات بسمة ولو هتاء .

ففي صباح مبكر وكنت -بعدُ- تلميذًا في المرحلة الابتدائية وأستعد مع الوالد لركوب سيارته، وأهل (أبو النمرس) والدائرة يتكاثرون حوله كالعادة؛ للحصول على " كارت من الدكتور" فإذا بأحدهم ويدعى " نعناع "

يطلب أحد المطالب غير المنطقية ، وما أكثرها! مدعمًا قوله بحجج هي مزيج من اللعط والهراء .

فكان للوالد قوله المأثور لدينا :" الكلام ده ملوش ريحة يا نعناع " !

وإن كان لي أن أسجل بعضًا يسيرًا من فيض هائل مما عايشته اليوم وأمس فلعلي أصطفي :

- نعتًا

- وموقفًا

أما النعت فهو الإشادة بما كان يمتاز به مدكور من حيث " موضوعيته الهادئة " حيث إنها - في يقيني - أبرر صفاته على الإطلاق .

فقد كان موضوعيًا في كل جوانب حياته.

وكان هادئًا في تعامله مع أصعب المواقف وأشدها تأثيرًا .

أما الموقف فهو لشاب في العشرين من عمره، لم أقابله إلا قبل أمس في إطار إحيائنا للذكرى الأربعينية لوفاة الوالد بالمنزل . وهو طالب بقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية ، حصر حصيصًا، بل مكث ليكون بيننا اليوم.

إذ أحد يسأل بتحفز واضح عن مدى وفاء تلاميذ الأمس: أساتذة اليوم، لذكرى الشيخ الرئيس !

ولعل فيمن يشرفوننا اليوم من حضور يمتدون عبر أجيال ثلاثة ليغطوا قرنًا كاملاً وفيما تفضلوا به من ثناء نثرًا وشعرًا أفضل ردٌ على سؤالك يا من قابلتَ فقيدنا مرة واحدة، ولمدة دقيقة فقط .

بارك الله فيكم جميعا .

فلكم منا - آل مدكور - أصدق الشكر وأعمق التقدير .

وفقكم الله ورعاكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد إبراهيم مدكور

ب - تأبينه في المؤتمر

أقام مؤتمر المجمع حفلاً لتأبين الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومي مدكور رئيس المجمع ، ورئيس اتحاد المجامع اللغوية والعلمية والعربية ، في جلسة علنية عقدت بدار المجمع في الساعة الخامسة من مساء يوم الأربعاء غرة ذي القعدة سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٠ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٦م ، وكان منهج الحفل على النحو التالي :

١- كلمة الافتتاح للأستاذ الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع .

٢- كلمة في تأبين الراحل الكريم للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب عضو المجمع من السودان .

٣- مرثية في وداع الفقيد للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب .

٤- إبراهيم مدكور رجل مبادئ للأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي عضو المجمع من المغرب .

٥- في موكب الخلود (بكائية) للأستاذ حسن عبد الله القرشي عضو المجمع المراسل من السعودية.

أولاً : كلمة الافتتاح
للأستاذ الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع

أيها السادة

نجتمع اليوم أيها السادة الكرام لتأبين شيخ المجمعيين الدكتور إبراهيم بيومى مدكور رئيس المجمع الراحل ، وقد أقام المجمع للفقيد الكريم حفل تأبين عظيم فى ذكرى الأربعين من وفاته، وحينما جاء زملاؤنا من البلاد العربية أبدوا رغبتهم فى أن تكون لهم كلمات تأبين لشيخ المجمعيين رئيس المجمع .

والأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور ولد فى قرية من قرى محافظة الجيزة هى قرية (أبو النمرس) بجوار الأهرام ، وقد عنى به والده عناية كبيرة فأدخله "كُتّابا" حفظ فيه القرآن الكريم "، ثم ألحقه بالأزهر، ومن بعده التحق بمدرسة القضاء الشرعى، وأتم الدراسة فى القسم الأول، ثم تحول إلى مدرسة دار العلوم العليا ، وتخرج فيها سنة ثمان وعشرين، ورشح لبعثة إلى إنجلترا ، ولكن ظروفا سياسية حالت دون سفره ، فسافر على نفقته الخاصة فى سنة تسع وعشرين إلى فرنسا ، وانتسب إلى جامعة السربون فى باريس ، ومضى فيها يعمل جاهدا حتى حصل على ليسانس الآداب سنة إحدى وثلاثين، وليسانس الحقوق سنة ثلاث وثلاثين، ثم نال درجة الدكتوراه من السربون سنة أربع وثلاثين، وفى سنة خمس وثلاثين عاد إلى مصر ، فعمل مدرسًا بكلية الآداب ، وبعد سنتين رأى أن يعمل فى الخدمة العامة للأمة فترك التدريس فى كلية الآداب إلى مجلس الشيوخ ، وعين فيه عضوا سنة سبع وثلاثين ، وظل به نحو خمسة عشر عاما، وفى هذه الأعوام عنى بأن يكون له صوت فى أشياء تهم الأمة، فكتب كتابا بالاشتراك مع زميل له عن إصلاح الأداء الحكومى ، وفى هذا الكتاب طالب بتحديد الملكية الزراعية . وفى سنة ست وأربعين عين عضوا بهذا المجمع ، وظل عضوا عاملا فيه

حتى سنة تسع وخمسين حين اختير أميناً عامًّا للمجمع ، وظل فى الأمانة العامة للمجمع حتى اختير رئيسًا له سنة أربع وسبعين، ومن هذا التاريخ وحتى وفاته وهو رئيس للمجمع ،وفي هذه المدة الطويلة التى قضاها شيخ المجمعيين رئيسًا للمجمع دفع المجمع خطوات واسعة إلى الأمام، فغزر إنتاجه، وتنوع ما بين كُتب فى التراث العربىّ إلى الكثير من المعجمات العلمية المتخصصة، ومن أبرز كتب التراث العربى التى حققت إبان رياسته للمجمع كتاب (التكملة والذيل والصلة) للصاغانى ، وكتاب (الأدب) للفارابى ، وكتاب (الأفعال) للسرقسطى، كما عنى -رحمه الله- بالمجموعات العلمية الاصطلاحية التى ينجزها المجمع سنويا ، فأخرج مجموعات متوالية منها حتى وصلت إلى ست وثلاثين مجموعة . وله بجانب ذلك من أعماله المجمعية تقديمه للمعاجم اللغوية التى أخرجها المجمع ، وقدم معها معجما نفيسا هو : (معجم ألفاظ القرآن الكريم). وفى أثناء عمله أمينا عاما للمجمع ألقى محاضرات مختلفة فى مؤتمرات المجمع، وهذه المحاضرات جمع منها طائفة فى عددين من أعداد (سلسلة اقرأ). وله نشاط واسع فى الإشراف على إخراج كتاب (الشفاء لابن سينا) ، وقدم ثمانية أجزاء منه إلى القراء ، مع مشاركته أحيانًا فى المراجعة ، فضلا عن سبعة أجزاء من كتاب (التوحيد والعدل) لعبد الجبار المعتزلى ، وثلاثة أجزاء من (الفتوحات المكية) لابن عربى ، فعمله فى هذا الجانب أيضا كان عملا واسعا إذ أشرف على طائفة مهمة من كتب التراث الفلسفى .

وفيما يختص بالمجمع له ثلاثة كتب تتصل بالمجمع مباشرة هى :

(مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما) و(مع الخالدين) و (بحوث وباحثون). وأيضا من أعماله المجمعية (المعجم الفلسفى)وهو نتاج لجنة الفلسفة التى كان مقرراً لها، وهو الذى أشرف عليه ، وعلى المصطلحات التى احتواها هذا المعجم ، وهو مطبوع من مدة بعيدة.

وبجانب ذلك له كتاب فى الفلسفة الإسلامية بعنوان : (الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق) ، وقد أدخل فى الفلسفة المتصوفة ، والمتكلمين ، وهذا يعد شيئا جديدًا ، لأننا فى العادة حينما ندرس

فلاسفة المسلمين،لا ندخل فيهم المتكلمين. وله كتاب ثان فى الأخلاق والاجتماع.

لقد أثرى الفقيد الكريم المكتبة العربية ببحوثه ودراساته ، كما أثرى المجمع بأعماله العلمية المختلفة، ولكن نقول:" إنا لله وإنا إليه راجعون"تسليما لقضاء الله وإرادته.

ثانيا - كلمة فى تأبين الراحل الكريم
للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب

أيها السادة :

اسمحوا لي أن ألقي بين يديكم كلمة عن شيخ المجمعيين الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع .

رحم الله شيخ المجمع أمينا ورئيسا له ، ثم رئيسًا لاتحاد المجامع. تفصيل حياته من حين ولد بناحية من قرى الجيزة غير بعيد من القاهرة فى أول هذا القرن الشمسى إلى زمان قريب مستوفى فى كتاب المجمعيين فى خمسين عاما لزميلنا الراحل نائب رئيس المجمع آنئذ الدكتور مهدى علام رحمه الله - ذكر فيه درسه القرآن وتخرج من دار العلوم ونال الشهادة الجامعية، والدكتوراه من السوربون وعمل أستاذا بالجامعة ونائبا فى مجلس الشيوخ، ثم اختير عضوا عاملا بالمجمع سنة ست وأربعين وأمينا سنة إحدى وستين، ورئيسا سنة ثلاث وسبعين إلى وفاته -رحمه الله- فى كانون الأول سنة ١٩٩٥م من التأريخ الميلادى وقارب -رحمه الله- أو أكمل سبعا وتسعين عاما بالعد القمرى . رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

أول عهدى بشيخ المجمع قارئا ما كان يكتبه فى رسالة الأديب البليغ أحمد حسن الزيات رحمه الله تعالى . وكانت منبرا نسمع من خلال أسطاره صوت عظام أهل الفكر. الشعراء منهم الزهاوى ومحمود غنيم وأنور العطار.واللغويين منهم الكرملى والنشاشيبى .والنقاد وأهل البيان منهم الرافعى وعبد الوهاب عزام وهلم جرا وكان رحمه الله من الكتاب فى الفلسفة نحفظ اسمه مع أسماء إسماعيل مظهر ثم من بعد زكى نجيب محمود ، ولم يتح لى آنئذٍ وأنا طالب بكلية (غوردون) بالخرطوم النائية فى أعماق صحراء إفريقية أن ألقى من كبار أدباء العرب وعلمائهم من كان يطمح القلب طموحا إلى لقائهم. رحم الله الدكتور إبراهيم مدكور . والمسلمون يتبركون باسم إبراهيم ؛لأنه اسم ابن نبيهم الذى مات صغيرا، ودمعت عليه -صلى الله عليه وسلم- عيناه، واسم أبينا خليل الله إبراهيم ،وهو سمانا المسلمين وابنه إسماعيل- عليه السلام -جد العرب،

مضر منهم فى قول ، والعرب كلهم فى قول آخر :

وهو الذى بشرت به كما فى التوراة أم إسماعيلا

ودعته وحسن الناس كل ندية وله على الناس الأيادى الطولى

كما قال الإمام البوصيرى فى لامية له رائعة.

هذا وأول ما تشرفت بلقاء الدكتور مدكور رحمه الله فى أول سنة ١٩٦٢م عند اجتماع لمؤتمر المجمع بعد أن صار -رحمه الله- أمينا له . وكان الرئيس آنئذ أحمد لطفى السيد باشا . وقد كان للدكتور إبراهيم مدكور منذ البدء فى كل اجتماع حضور وأداء تام وتوجيه . ولم يكن أحد ما -معشر الأعضاء -يحس أنه فيلسوف دون إعلان بتخصصه . بل كان أغلب انطباعات النفوس عنه جودة خطابته ويقظة حضوره فى الجلسات ، وانتباهه ومشاركته الواعية لما يقوله الخبراء، ولما يدلى به الأعضاء من وجوه المناقشة والمراء الظاهر . وكان رحمه الله يحسن المقاربة بين الوجوه المتابعة من الأقوال، ويتأتى بلباقة إلى الحلول الوسط كاقتراح بديل مناسب أو إحالة إلى بعض اللجان .

وكان إذ يتأتى إلى ذلك فى أيام لطفى وطه من بعد، رحمهما الله ، يفعل ذلك من حيث هو أمين لا يفتات على رئيسيه بشيء من تخطٍ على ما كان لأولهما من ضعف .

كان رحمه الله وافرًا من الأدب المهذب واللباقة وسيرة الحزم .

وكان رحمه الله أمينا ورئيسا ذا دأب وأسفار . وقد شرفنا بزيارته الخرطوم ورأيته وهو شيخ تقدمت به السن فى الرباط وإسبانيا ، وكان رحمه الله على وعثاء السفر صبورا وعلى مدى الجلسات وما يستر بها أحيانا من دواعى الفتور والسأم جلدا .

هذا وقد كان مع اهتمام بأمر المجمع عامة ، يهمه أمر الأعضاء فردا فردا . يكتب إليهم يهنئهم بالأعياد، ويستقبل الوافدين كلا منهم كأنه مستقبله هو وحده. وأنا خاصة أحمد له أنه كان كثيرا ما يسألنى ويستشيرنى، وكان يسألنى أحيانا عن السودان سؤال متلطف حفى لا مستخبر مستنبئ، كان ذلك منه مجاملة

تبث فى النفوس راحة وثقة وانشـــرحا .
وأذكر هذه المناسبة أن الدكتور طه حسين رحمه الله كان ربما سألنى نحوا من ذلـــك بصوته الذكى العبقرى الودود . مرة قـــال لى ، وكانت قد وقعت مس رئيسنا السابق جعفر محمد النميرى جفوة ما :
ما هذا النميرى؟ . فلم أتردد أن قلت له:

ولما رأت ركب النميرى أعرضت
وكن من أن يلقينه حذرات

وهو فى القصيدة التى أولها :

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت
به زينب فى نسوة خفرات
يخبئن أطراف البنان من النقى
ويخرجن شطر الليل معتجرات

وزينب هذه أخت الحجاج بن يوســـف الثقفى
فقال رحمه الله وهو يضحك على الفور:

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وكان مما سألنى عنه واستشارنى فيـــه فقيهنا الدكتور إبراهيم مدكور رحمـــه الله أمر بعض التمثيل فى عضويـــة المجمـــع، فاقترحت عليه أن يوسع فيها حتى يدخلـه عدد من فحول العلماء والأدباء من رقعـة بلاد الإسلام الواعدة . ونبـــهت علـــى الخصوص .على أدباء بلاد إفريقية الغربيـة وحضرتنى منها على وجـــه التمثيـــل لا التذكية أسماء بلاد وأفراد . وقد اتبع رحمه الله قبول ما سمع منى واستحسن بتنفيـــد جديد أكيد سديد . ووســـع العضويـة فجاوزت بلاد العرب والمستشـــرقين إلى علماء بلاد المسلمين جميعا فى مشـــارقها ومغاربها .

ولكم أفرحنى انتخاب زميلنا الراحـل الأستاذ الحـــاج آدم عبـــد الله الألـــورى أحزننى فقده مند نحو ثلاثة أعوام . وكـلن قد جاهد رحمه الله فى أمر تعليم العربيـــة بأرض اليوروبا وفى مدينة أبادان ومدينـــتى كانتقورا ولاغوس . وكنت قـــد رأيـــت مبادئ علمه رحمه الله هو وزميله المرابـــط الفذ خرشى الثانى اليرباتى سنة ١٩٥٨م . وكان الأمل آنئذٍ فى نجـــاح مســـاعيهما ضعيفا إذ كان الاستعمار بتعصبه علـــى العربية ضاربا بجحران . ثم قد رأيت بحمد الله كيف تغلبنا على تلك الصعاب حـــتى أن اللغة العربية الآن منهج متلئـــب مـــن مناهج التدريس للصغار .

هذا وقد كان عمل المغفور له الدكتور مدكور فى توسيع رقعة العضوية العاملة والمراسلة عملا تممه إنشاء اتحاد المجامع أو كان كالتمهيد لبعضه . وقد ذكرت فى مرثيتى للدكتور مدكور رحمه الله أن هذا كان كأنه من عمله ونبهنى زميلنا العلامة الشيخ حمد الجاسر أن مبدأ تنشئة الاتحاد وفكرته قد كان ذلك مس عمل الدكتور طه حسين رحمه الله . وكلا الرجلين عطر الله قبريهما بمسك الجنة والرئيسين اللذين سبقاهما قد رفعا بهذا المجمع حتى قد صار هو المنار الهادى للعرب أجمعين فى ميادين خدمة العربية إن شاء الله تعالى .

رحم الله الدكتور إبراهيم مدكور وأسكنه فى الفردوس دار النعيم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

عبد الله الطيب

عضو المجمع من السودان

ثالثا - مرثية فى وداع الفقيد

للأستاد الدكتور عبد الله الطيب

نَعَتْ كبيرًا شهيرًا غيرَ مغمورِ
رسالةٌ ضُمِّنَتْ منعى لمذكور
مَنْ كانَ بمجمعُ كلِّ الخالدين يُرَى
مِنْ عهدِ لطفي له ربَّان تسييرِ
وقد تولى مقاليدَ الأمورِ بهِ
مِنْ بعد طه أخا جد وتشميرِ
وكانَ في جلسةِ الأعضاء يرأسهُا
بذي حضورٍ وإشرافٍ وتأثيرِ
وكانَ وهو كبيُر السن ذا دأبٍ
وما وني قط في حزمٍ وتدبيرِ
وماتَ في أول التسعين جازوها أو
كاد ما مُس في عقلٍ بتغييرِ
وكلُّ نفسٍ لهذا الموتِ ذائقةٌ
فلا يَغُرَّن شيخًا طولُ تعمير
نعى أبا المجمعِ الناعي مآثرُهُ
طوعُ اليراعِ فَحَبّر كل تحبير
ذي الدارُ شيَّدَها إنجازُ مذكورِ
منْ بعدِ لأي إعارات وتأجيرِ
حتَّى كأنَّ ولاةَ الأمرِ قد غفلوا
عنَّا وحتَّى عُددنا في الأساطير
هذا كذاك اتحادًا للمجامع قد
أرسى قواعد سعي فيه مشكور

وقد خطا عملُ التعريب عدة
خطواتِ ذواتِ التزام بالمعاييرِ
من بينها مثلا توحيد مصطلح
بين المجامع في متنٍ وتفسير
والمعجمانِ وسيطٌ والوجيزُ معًا قد
زيَّنا صُحْبَةَ المِصبَاحِ في الدُّورِ
ومعجم المجمع السفرُ الكبيرُ عسى
يتم نقص لسان لابن منظورِ
عُيِّنْتُ عُضوًا وعُمري أربعون فقد
شاهدتُ جيلاً من الغُرِّ المغاويرِ
أهل البصائرِ في بحثٍ ومعرفةٍ
بكلِّ كنزٍ من الآثار مذخورِ
وكان لطفي رئيسًا ثمّ نائبهُ
طه العميدُ فما يَعْيا بتعبيرِ
وكانَ هَدكَ مِنْ شيخ ورشحني
ترشيح ود وإعجاب وتقدير
وذاك فضل من المولى ظفرتُ به
من نابه عبقري السبق محضير
وكانَ في المجمع النجار في نفرٍ
من قادةِ الفكرِ أهلِ العلمِ والنورِ
من كلِّ ذي قوةٍ حفظًا وبادرةً
وكلٌّ في الضَّادِ حذق وتنظير(١)

(١) هنا فَصْلٌ بين المتضايفين أي كلُّ دي حدق في الضاد - وهو فصيح.

مِن هؤلا كانَ عزّامُ وكان له
مدى من الفضلِ رَحْبُ غير محصور
وكانَ ترجَمَ إقبالاً وحقّقَ شعْرَ
ابنِ الحُســينِ بضبــطٍ منهُ موفورِ
وكانَ عباسُ العقادُ نعلمهُ
بحــرًا وفارسَ منــظومٍ ومنثــورِ
وناقدًا نافذًا فذًا وذا قدمٍ
في كــلِ فــنِ وتحصــيل وتفكير
ثم الشبيبـــي بحاثُ أخو قِطَعٍ
من القريــض لها إيقاع مزمــور
وأحمد حسن الزيات بينهم
والتونسيان حسني وابنُ عاشورِ
والمغربيُّ ابنُ كنون وطائفةٌ
من الفحــولِ الألبّاءِ الحــاريرِ
فيهم عزيزٌ أباظا كانَ يُنشدُنا
شعرًا عزيزًا بصوتٍ منه مجهورِ
على عروضِ الفراهيديِّ يصنعهُ
جزلاً وما فيه من بيتٍ بمكسور
ولا حداثةُ تفعيلٍ ألَمَّ بها
خوْفَ الخَباثِ الحديثين المناكيرِ
وقل أمثالُهم أهلُ البيان هُمو
أهلُ الفصاحةِ قولاً غير ذي زورِ
في النّيل والشّام الزوراء واليمن
الخضراء والطّود من لبنان والطُّور
والشّرقِ والمغربِ الأقصى وفي بلدِ
السودانِ فورٍ وفوتٍ ثمَّ تكرورِ
لقد بكيتُ بدمعٍ غير متزورِ
عليهم سادتي أرباب تنويري
ويشمل الله مذكورًا برحمة
له وعفوٍ لذنبٍ منهُ مغفورِ
ويجعل الخُلدَ في الفردوسِ مسكنَهُ
دارَ المُقامة رزقا غيرَ محظورِ
ومن فقدناهم فاللهُ يشملُهُم
بنعمةٍ حين تغشى نفحةُ الصُّورِ
نعوذُ باللهِ منْ شرِّ المحاذيرِ
ونسألُ الله تيسيرَ المعاسيرِ
وقلتُ للنّفْسِ أُمّي البيتَ واعتمري
وفي المدينة قبرَ المصطفى زُورِي
ثمَّ الصَّلاة على المُختارِ ثمَّ
على آلٍ وصَحْبٍ وتسليمٍ بتكريرِ

عبد الله الطيب

عضو المجمع
من السودان

رابعا – إبراهيم مدكور رجل مبادئ

للأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي

كنت أسمع به ولكن لم أتعرف عليه شخصيا إلا عندما جمعتنا الصدفة على أرض الرافدين فى الدورة الثانية والثلاثين لمجمع اللغة العربية عندما اختار بغداد مقرًا لانعقادها عام ١٣٨٥=١٩٦٥ أى قبل أكثر من ثلاثين سنة حيث تعرفت عليه مع أعضاء المجمع عندما كنت سفيرا لبلادي بالعراق .

هناك حضرت لافتتاح الدورة مدعوًا من المجمع العلمي العراقي حيث استمعت فيمن استمعت إليهم الدكتور مدكور الذي كان يقوم آنذاك بمهمة الأمين العام لمجمع اللغة العربية .

وقد دعوته إلى بيتى فى الوزيرية ضمن عدد من الزملاء كان يتقدمهم الأستاذ عبد الله كنون الذى شاء القدر أن أخلفه فى كرسيه بهذا المجمع الموقر .

ومن ثمة ظلت صلتى بإبراهيم قائمة، وقد تعززت هذه الصلات بحضوره إلى المغرب عندما احتضنت بلادنا ندوة اتحاد المجامع اللغوية العلمية أواخر نوفمبر ١٩٨٤ أى بعد مرور ثماني سنوات من التحاقى بالمجمع .

أعترف أمامكم أننى كنت أعتبرك دوما أستاذا جليلا، وكنت أشعر إزاءه بواجب الاحترام والتقدير الذي فرضه علىّ تعامله رحمه الله وتواضعه الجم وأريحيته المتناهية فى الخلق الرفيع .

وقد تأثرت بالغ التأثر من إهدائه لى بخطه المتئد الرصين ، بتاريخ ١٩٨٥/٩/٢٥ ما كان قد طبعه من الفتوحات المكيةّ لمحيى الدين ابن عربى وبأسلوبه المرح قال لى معلقا مبتسما: سترى أن " الفتوحات المكية" كان ينبغي أن تسمى "بالفتوحات الفاسية" لأن آراء ابن عربى إنما اكتملت أثناء مقامه بالمغرب وبخاصة بمدينة (فاس) على نحو ما كان بالنسبة لشيخه أبى مدين ... عندما كان بها طوال عهد ملوك ثلاثة يوسف بن عبد المؤمن ،ويعقوب بن يوسف، ومحمد الناصر ابن يعقوب .

و لم يفت الرئيس مدكور أن يلاحـــظ أن "الفتوحات" تعد مرجعا من المراجع المهمة التى تفيد فى تاريخ العلاقات الثقافية بـــين المشرق والمغرب مذكرا بما حدث لابـــن رشد (٥٩٥) معاصر ابن عربي ففـــى رده أى رد ابن رشد على الغزالى (م٥٠٥) مـــا يشهد بأنه كان ملما إلماما تاما بدقـــائق الفكر الفلسفى فى المشرق .

وبالرغم مما نعرفه جميعا عـــن بـــاع الأستاذ مدكـــور فى ميـــدان التـــأليف والإشراف على التـــأليف، وفى ميـــدان المشاركة فى مختلف مناحى الفكر، فقد لذ لى أن أعيش مع مدكـــور فى تصديراتـــه للفتوحات لأعرف جيدا مدى آرائـــه فى هذه الموسوعة الصوفيـــة ، وفى مؤلفـــها المعروف الذى دوى فى عالم التصوف .

وقد كان مدكور منصفا لابن عـــربى عندما قال وهو يتحدث عن الصوفية - إنه من الظلم أن يرمى المتصوفة بكفر أو إلحاد أو زندقة ، والأصل فى المسلم هو الإيمـــان إلا إن قام الدليل القاطع على غير ذلك ...

لقد رأيت أن الرجل وهـــو متشـــبع بأفكاره الحرة المســـتنيرة يقصـــد إلى رد الاعتبار لابن عربى بعد أن لاحظ أن بعض إخواننا فى المشرق لم يولوا الاهتمام اللازم للمتصوفين المغاربة ... و لم يتصدوا لـلأدب الصوفى الذى يعد قسما مهمًا من أقســـام الأدب العربى الذى ينفذ إلى القلوب" .

وهكذا لم يكن مدكور مجرد قـــارئ أو مراجع لما حققه الأستاذ الجليل عثمـــان يحيى الذى وقف حياته على دراسة ابـــن عربى ولكنه كان يتتبع إفادات ابن عـــربى، ويعلق عليها التعليقات التى كان يرى أنهـــا ضرورية ، والتى كانت تسير وفق مبادئـــه وفكره من غير أن يجامل أو يكابر ولذلـــك بقى على الخط الذى عرفناه له من الـــتزام الصدق والحذر فى القول وعـــدم غمـــط الناس حقوقهم .

لقد كنـــت أجـــد فى "تصديراتـــه" الموجزة المركزة ما يعطينى فكرة مدققـــة عما كان ينتظرنى فى صلـــب الكتـــاب وأعتقد أن كل القراء يوافقونى على هـــذا الاستنتاج .

لقد أفادنا أن ابن عربى بالرغم من أنه أندلسى المولد والنشأة، وبالرغم ما كـــان لمذهب مالك فى الأندلس والمغرب مـــن منزلة وسلوكيات فإنه يبدو عليه أنـــه لا يتعصب لمذهب بعينه ...

وقد أبرز مدكـــور فى - تصديـــره - التفرقة بين " الحقيقة" التى تنفذ إلى العمــق وبين الشريعة التى تعد عند المتصوفة مجــرد رسوم ..

وكم كانت تستوقفنا كلمات نالت مــن إبراهيم منالها فرددها فى تصديره إعرابـــا عن التأثر بها والسير على منوالها مثل :"من نام بنفسه فهو ميت ومن مات بربه فـــهو نائم" وأشد ما كان تأثرى عندما قرأت ما جاء فى تصديره الأخير للمجلـــد الرابـــع عشر عندما ردد قوله : حياة العلم مذاكرة تفتح الباب للأخذ والرد" .

وكأنه يقدم إلينا مبدءا من مبادئه الرفيعـــة التى تهدف إلى احترام حرية الفكر ومزايـــا الحوار الهادف ...

ولا أريد أن أسترسل فى الحديث عـــن مداركه حول (الفتوحات) فإن لذلـــك مجالس خاصة قد نعود إليها . ولكن الذى يهمنى من هذه الصفحة الباقية من شهادتى عن الرئيس الراحل ما يتصـــل بجـــهاده الوطنى وسلوكه السياسى .

لقد عرفنا عن الأستاذ مدكور - وهو يمارس البحث العلمى - مثـــل المصداقيـــة والنزاهة فى تقصى الحقائق ... ونريـــد فى هذه العجالة أن نعرف عن مدكـــور فى تطبيقه لهذه المبادئ على الصعيد السياسـى . أى أنه يكون ذا جلد واحـــد ووجـــه واحد وكلمة واحدة . كان يريد أن يظل رجل مبادئ فى الحركة الوطنية ، رجـــل مبادئ وهو يخاطب الجمهور،رجل مبادئ وهو يدعو إلى الإصلاح، ورجل مبـــادئ وهو يتمتع بعضوية مجلس الشيوخ. لكـــن هذه المواقف منه لم تكـــن مستســـاغة فى شريعة السياسة التى ليست لها شريعة .

نحن نتذكر - بوصفنا مجمعيـــين - أن لسان الذين ذكرهم ابـــن الخطيـــب - فى كتابه " إعلام الأعلام فيمن بويـــع قبـــل الاحتكام " أشار بأسلوبه الرفيع البديع إلى القصة المأساوية لأحد الأمراء المراهقـــين كان يحمل اسم عبـــد الله بـــن أميـــة . استعجل الوصول إلى الحكـــم واســـتثقل وجود والده على الكرسى، ولما لم يفلـــح فى إقناع والده باعتزال الحكم - عمل على تصفية الوالد حتى إذا ما جلـــس علـــى الكرسى التفت يمنة ويسرة فشعر - كمـــا تقول بعض المصادر - أن وجود أعمامـــه قد يهدد حكمه فأخذ يتخلـــص منـــهم الواحد بعد الآخر .. ثم عمد إلى إخوتـــه

فعمل فيهم من سوء التصرف ما اقشعرت منه الجلود .

وقد أشفق ابن الخطيب - على القراء أن تصدمهم مثل هذه الأخبار وأن يتساءلوا عن بواعثها الحقيقية فقال عبارته التي تظل عندى الشعار الصادق للتعريف بالسياسة ، قال :" ولا تستعربن ذلك فتلك بضاعة فى سوق السياسة رائجة فمن عوفى فليحمد الله " .

وهكذا عبر عن السياسة بالبضاعة، عبر عن محيطها بالسوق وعبر عن تداول القول فيها بالرواج ، وكلها مفردات وألفاظ تنم عن " البيزنس " كما يقال بلغة اليوم .

وقد كنا نحفظ ونحن نعيش فى المدرسة قصيدة نونية نشرتها مجلة (الرسالة) المصرية لأحد شعراء العراق المبرزين أحمد صدقى الزهاوى يقول فى مطلعها :

"الكذب أسعدنى والصدق أبكانى"

لقد قال فى جملة ما قال :

هل السياسة إلا كذب باقعة

على جماهير من بله وعميان؟

أستاذنا مدكور - وهو يعيش تجربته السياسية - لم يرض أن يكذب على الناس .. ولم يقبل أن يعد منتحبيه بالمغفلين والبلداء واللامعين .

وأدرك فى أثناء المسيرة أن السياسيين يعيشون عمرهم المحدود، وفتراقم العابرة من الحياة التي تأكلهم أكلا " وتطويهم طيا .." لذلك نراه يفضل جانب الاستقراء والاستمرار ، وجانب الحياة مع الخالدين عوض العيش فى زحمة العابرين .

وهنا وجدناه فى مجال العلم والمعرفة ، وجدنا أن الأكاديميات والمجامع تتهاداه من مؤتمر إلى آخر، ومن ندوة إلى أخرى ، مدرسًا وأستاذا ومحاضرا ووجدناه إلى جانب هذا ألا يقنع بالكرع من معين الثقافة العربية التي كانت قاعدته الأساسية ولكنه يتوق لأن يكون مزدوج الثقافة . وهذه محطة بارزة فى حياة إبراهيم مدكور كان لها أكبر الفضل فى ذيوع شهرته ، وقوة عارضته وتنوع مناحى معرفته ، وكانت المعبر الأكثر دلالة عن قوة شخصيته ومضاء عزيمته .

وقد مكنته هذه " الازدواجية" من أن يخرج من العالم المحدود الذى كان يعيشه إلى عالم آخر أفاد منه واستفاد ، وجدناه يتجول فى القارات : أوربا وآسيا وأفريقيا

وأمريكا؛ يحاضر ويناقش بفكره الجبر البناء.

وقد عرفناه في المجمع رائدا مستحضرا موجها متواضعا وصارما في الوقت الواحد، يوزع الحديث بصوته الجهوري على الزملاء ويراقب عن كثب مبادئ المجمع أن تمس أو تحرف، مدافعيا عن كرامة المجمعيين ومركزهم ... وما نسيت لا أنسى يوم ١٩٩٥/٤/٤ عندما قصدناه ببيته الكريم، وجلسنا سويًا إلي جانبه وهو يعطى توجيهاته التي كانت تصب كلها في ضرورة الحرص على أداء الرسالة كاملة من لدى سائر الأعضاء سواء على صعيد المجمع أو صعيد اتحاد المجامع الذي استبشر خيرا بأن أكاديمية المملكة المغربية انضمت إليه ...

ولقد لفت نظري في بيته العامر أنني وقفت - على مصحف القرآن الكريم أهداه إليه محمد متولى الشعراوي وقد حلى الإهداء بهذا الشعر الجميل :

وأنفس ما تهدى إلي من تحبه
كتاب إلى المختار الله أوحاه

وقد كان تعليق أستاذنا على هذا الإهداء والمهدى بكلمات عبرت لى عن قوة ذاكرته وإصادق إيمانه واعتزازه بهويته، رحمه الله أخيرا عما بذله من أجل أسرته الصغرى والكبرى .

عبد الهادي التازي

عضو المجمع

من المغرب

في موكب الخلود

[بكائية عن الدكتور إبراهيم مدكور]

للأستاذ حسن عبد الله القرشي

زَاحموا إنَّما الحَياةُ مَزاحمْ
وجُدودٌ بيضٌ وأخرى قَوائِمْ
والحَصِيفُ الحصيفُ مَنْ صَارَعَ النَّا
سَ ومَنْ خَادَنَ العُلَى غيرَ نائمْ
قد يعوقُ الذكيَّ حظٌّ عصيٌّ
ويواتي الغبيَّ حظٌّ مُسالِمْ
ويعيشُ الخسيسُ لا نَفْعَ فيه
ويموتُ المرجوُ رَبُّ المكارمْ
إنما تصدعُ القلوبُ لفقدِ النَّـ
ـدبِ مَنْ خطَّ للحياةِ دَعائمْ
مَنْ إذا قِيلَ مَنْ فَتىً قيل إبرا
هيمُ، مَنْ طار ذِكْرُهُ في العَوَاصِمْ
عبقري والعبقرية تعلو
ضمن برديه والحظوظ البواسم
رائد من كتائبِ العلم أهدى
لتراث الآداب أغلى المغانم
باذخُ الفضل منذ كان فتيا
عاشقٌ للأباء ماضي العزائم
عاش حصنا للفكر موئل عِلْمٍ
يتصبَّى العلياءَ صعبَ الشكائم
وتماداه مجمع الضاد فذا
أين منه النظير أين المزاحِم ؟
نصفَ قرنٍ حباه حبة قلب
وضياء العينين غير مساوم
حالما أن يراه فوق السِّماكَيْـ
ـنِ قويا على اكتسابِ العظائِمْ
بدل الجهدَ كي يُشيِّد صرحًا
لبناء الفصحى وطيدَ القوائم
كي يعيدَ الشبابَ للغةِ المثـ
ـلى فتعلو على لغات الأعاجم
جاء بعد الأفذاذ من عِلْيَةِ الفكـ
ـر إلى مَرْكَزِ النسورِ القشاعم
واستطال البناء بالجهد والكدْ
حِ بفذٍ جمِ المآثر حازم !

* * *

أين منا وقد تغرب عنا
من يفك الغموض يجلو الطلاسم؟
مَنْ يُفيض البيانَ عذبا نديا
جوهريا ، يفوق سجع الحمائم؟

وعلى وجهه الوضيء تَبَدَّى
عند إطلاله مهابةُ حاكم
لغةَ الضَّادِ عاش يحمي حماها
ويردُّ الأعداءَ وهي غواشم
خُلُقٌ صِيغَ من ظلال النبوا
ت سرىُّ الطيوبِ حُلْوُ النواسم

* * *

من عجاف السنين حلت علينا
سنة وقعها كحز الفلاحم
إذْ فقدنا زين الرجال المرجَّى
من توالت آلاؤه والغنائم
من له دوما السرئ من الرأ
ي ، وفصل الخطاب أبلجَ حاسم
هو في ساحة البلاغة (سَحْبَا
نُ) وفي قمة المكارمْ (حاتم) !

* * *

لا تقولوا مضى فمازال فينا
همةً تُرتَجَى ورُوحا تقاوِم
هو حَيٌّ فينا بخصب سجايا
ه مطل من شُرْفة الغيبِ باسم
شارقٌ ذكرُهُ وباقٍ سناه
فهو تِرْبُ الخلودِ فرعُ الأكارم
ثم آثاره ، شوامخُ فكرٍ
ناطقاتٌ بمجدِه المتعاظِمْ
وسلامٌ على بقيَّةِ جيلٍ
كلُّهُم وافرُ المفاخرِ عَالِمْ !

حسن عبد الله القرشي
عضو المجمع المراسل
من السعودية

ثانيًا : تأبين الأستاذ الدكتور
عدنان الخطيب
عضو المجمع من سورية

أقام مؤتمر المجمع حفلاً لتأبين الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب عضو المجمع من سورية ، في جلسة علنية عُقِدت بدار المجمع في الساعة الخامسة من مساء يوم السبت ٤ من ذي القعدة سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٣ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٦م .

وكان منهج الحفل على النحو التالي :

١- كلمة الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع في افتتاح الجلسة .

٢- كلمة المجمع في تأبين الفقيد للأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق.

أولاً - كلمة الدكتور شوقي ضيف
رئيس المجمع
في افتتاح الجلسة

أيها السادة:

نجتمع اليوم لتأبين الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب نائب رئيس المجمع اللغوي الدمشقي ،وعضو مجمعنا العامل من سوريا الشقيقة منذ سنة ١٩٨٦م ، وكنا ننتظر قدومه علينا سنويًا في كُل مؤتمر لمجمعنا لنستمع إلى البحوث اللغوية الخصبة التي كان يحملها إلينا .

وقد أتم تعليمه الابتدائي والثانوي في دمشق ، والتحق بكلية الحقوق في بغداد، وعاد إلى وطنه وعمل محاميًا فترة قصيرة ، ثم التحق بالقضاء ، وله مباحث قانونية كثيرة ، بدأ في نشرها منذ سنة ١٩٥١م ، واختير عضوًا بمجمع دمشق ثم نائبًا لرئيسه .

ومن أهم:" مؤلفاته لغة القانون في الدول العربية"، و"شرح قانون العقوبات" في مجلدين ، وله بحوثه اللغوية المدونة في مجلتي المجمعين الدمشقي والقاهري .

ويتولى الأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع الدمشقي إلقاء كلمة مجمعنا في تأبينه .

كلمة المجمع في تأبين الفقيد

للأستاذ الدكتور شاكر الفحام
رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

كان الدكتور عدنان الخطيب، تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جناته، من أوعية العلم، كما يقول علماؤنا الأقدمون. وقد تضافرت الأسبابُ والدواعي التي هيّأت له أن تتنوعَ معارفُه، وتغزرَ مادتها.

فقد نشأ في بيت علم وفضل، فألِف أن يحضر مد صباه مجالس العلم التي كانت تُعقد في منزل والده الشيخ عبد القادر الخطيب (١٨٧٤-١٩٣٢م)، وكان الشيخ من جلّة العلماء، يتولّى الخطابة في الجامع الأموي (١). وكان الفتى الناشئ يستمع إلى ما يدور من أحاديث العلماء ومحاوراتهم، ويعي ما يعي من أقوالهم ومناقشاتهم. وكانت الحركة الوطنية التي تصدّت للمستعمر الغاصب في أوجها، فكان الحديثُ يتشقق إلى ذكر دعاة النهضة العربية، وما قاموا به منذ أواخر العهد العثملي، وما قدّموه من تضحيات، ثم ما أقدم عليه المستعمر في غدرته المشؤومة يوم ميسلون (٢٤/٧/١٩٢٠م) من القضاء على الحكومة العربية بدمشق، وما تبع ذلك من نضال الشعب المتواصل ليستخلص حقّه من براثن العدو. وكان الفتى شديد الإنصات والاستماع، قد ملأ قلبه حبُّ قومه ووطنه، وبغضُه للاستعمار الغاشم. وظلّت تلك الصورُ التي وعاها فتىً تراجعه، وتملك عليه نفسه، حتى تبدّت بعدُ في كتاباته عن الرجال المصلحين، وعلى رأسهم الشيخُ طاهر الجزائري.

تلقى الدكتور الخطيب علوم اللغة والفقه على جمهرة من علماء دمشق، وتابع دراسته الثانوية في مدرسة التجهيز الرسمية، وقد تفتحت نفسُه على حبّ العربية، وملأته الرغبة في دراستها، ومطالعة كتبها، ثم كان للحركة الوطنية أثرُها الواضح على تأجيج حماسته للعربية، إذ رأى في التشبث بها، والحفاظ عليها وجهًا من وجوه الدفاع عن الهوية العربية، ومقارعة المستعمر.

---

(١) انظر ترجمته في كتاب: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري (دمشق – ١٩٨٦م) ١ ٤٦٠-٤٦٤

اختار الدكتور الخطيب بعد دراسته الثانوية الالتحاق بكلية الحقوق بجامعة بغداد ، ونال إجازة الحقوق سنة ١٩٤٢م ، ثم حصل على شهادة الدكتوراه في الحقوق من جامعة باريس سنة ١٩٤٧م. ومارس المحاماة حتى نهاية عام ١٩٤٤م. وفي عام ١٩٤٥م تولى القضاء ، وتدرج في مناصبه حتى أصبح مستشاراً في محكمة استئناف دمشق سنة ١٩٥٣م ، وفي عام ١٩٥٤م عُيّن نائبًا عامًا في الإدارة المركزية لوزارة العدل، وكان آخر ما تولاه منصب رئيس مجلس الدولة (١٩٦٩ - ١٩٧٤م).

وترك في الدراسات القانونية مؤلفات هامة ، انصبَّ جلُّها على دراسة القوانين الجزائية وشرحها ، ضمّنها عصارةَ مطالعاته الطويلة ؛ وخلاصة خبرته التي اكتسبها في حياته الوظيفية ، وفي التدريس في كليتي الشريعة والحقوق بجامعة دمشق ، وفي معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة .

وتجدُ له إلى جانب ذلك المقالات القيّمة التي نشرها في المجلات ، عالج في طائفة منها مباحث هامة في القانون ، وتناول في أخرى جملة من الكتب الحقوقية معرّفًا وناقدًا .

وقد عُرف الدكتور الخطيب في حياته القضائية الطويلة بالنزاهة في المسلك والتقصي في تحري الحق والإنصاف ، والاجتهاد في الرأي ، يستمسك بالعروة الوثقى ، شعارُه كلمةُ الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:"اليمينُ والشمال مضلّة ، والوسطى الجادة " (١) فكانت سيرته عَبَقَ المسك ، نقاءً وطيب .

وإن هذا الجانب المشرق من حياة الدكتور الخطيب بشقيه العلمي والمسلكي ليستأهلُ البحث والدراسة المعمقة .

ويطالعنا في حياة الدكتور الخطيب الجانبُ الثاني الذي تجلّى في حبّه العربية حبًّا مَلَكَ عليه نفسه ، فأقبل عليها إقبالَ ظمآن ، يتملّى تراثها ونفائسها .

وقد رأى في مجمع اللغة العربية بدمشق الواحةَ التي يتوقُ إليها فتفيَّأ ظلالَها. لقد أحب المجمع وتردد عليه منذ شبابه ، وتابع أعماله وشارك في بعضها . وقد ضم ثبت محاضرات المجمع عناوين

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢: ٥٠ .

أربع محاضرات له في مجال القانون ، ألقاها في سنوات : ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ ، ١٩٤٦ (١) ، كما ضمّت مجلة المجمع أول مشاركة له على صفحاتها عام ١٩٤٩م بمقالته : النهضة العربية في العصر الحديث(٢) . وفي هذا ما يُفصح عن تعلق الدكتور الخطيب بالمجمع ، ومتابعته لمسيرته ، وإيمانه بمراميه وأهدافه ، وصلتِه بأعضائه الأوائل حماة العربية ، الثائرين عن حياضها ، الرافعين بناءها السامق ، وعلى رأسهم الأستاذ محمد كرد علي (١٨٧٦-١٩٥٣م) مؤسس المجمع . لقد كان الفقيد رحمه الله مفتونًا بالأستاذ كرد علي وشمائله ، يرى فيه المثل الأعلى الذي طالما رنا إليه ، فأكبَّ على كتبه ، وعدَّ نفسه من تلامذته . وحين أصدر كتابه : (لغة القانون في الدول العربية)(٣) قال في إهدائه : " إلى الأستاذ الجليل محمد كرد علي ، رئيس المجمع العلمي العربي ، إجلالا وتقديرًا " معبّرًا بذلك عمّا يُكنّه لرئيس المجمع من التوقير لمكانته ، والإعجاب بعلمه ، والإكبار لفضله . ثم افتنَّ من بعدُ في الترجمة له ، والإشادة به ، وإظهار مزاياه وفضائله. ومن النعوت التي أضفاها عليه: " الرائد المجمعي الأول في الوطن العربي".

ولما انضم الدكتور الخطيب إلى مجمع الخالدين بدمشق في عام ١٩٦٠م (١٩٦٠/١٠/٦) (٤) لم يكتم ما انتابه من إحساس التهيّب ، ممزوجًا بمشاعر الإجلال والاحترام التي كانت تعتلج في صدره إكبارًا لهذا الصرح الباذخ من صروح العربية ، ولقد عبّر التعبير الحلو الشائق عما كان يخالجه من مشاعر في الكلمة التي ألقاها في حفل استقباله . قال: " فإذا تماجدت دمشق كان هذا المجمع العظيم من مفاخرها الخالدة على الدهر ، الباقية بقاء العربية ... إني ما نظرتُ إلى هذا الصرح الشامخ من صروح العربية في نهضتها الحديثة إلا حنيتُ الرأس إجلالا لعظمته ، وإكبارًا لجهود بُناته الأبطال ، حتى إذا ما دعوتموني إلى هذا اليوم المشهود أخذتني الهيبةُ من الوقوف أمامكم ، وتملكتني رهبة الانضمام إلى صفوفكم، رهبةٌ يشعر بها من يصّعّد في السماء"(٥).

(١) تاريخ المجمع العلمي العربي لأحمد الفتيح : ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ .

(٢) مجلة المجمع ، مج ٢٤ (١٩٤٩م) : ٤٧٠ - ٤٧٩ ، ٦١٢ - ٦٣٦ .

(٣) صدرت طبعته الثالثة بدمشق عام ١٩٥٢م .

(٤) مجلة المجمع بدمشق ، مج ٣٦ (١٩٦١م) ١:١٥١ .

(٥) مجلة المجمع بدمشق ، مج ٣٦ (١٩٦١م) ٢:٣٣٢ .

لقد تبيّن ضخامة المهمة التي عليه أن ينهض بها ، فوقف على المجمع جُلّ اهتمامه ونشاطه ، وجدَّ الجدّ كله ، وقام بأعماله على خير وجه ، حتى أوفى على الغاية .

أكبَّ على كتب العربية ، ينهل من ينابيعها العذب الزّلال ، ثم جال في ميادينها ، وأشرع قلمه تبيان خصائصها، والكشف عن أسرارها ، وإصلاح ما بدا له من أغلاط وقع فيها الباحثون ، والتأليف في موضوعات تضيف جديدًا أو تنير غامضًا . وكانت غيرته على الفصحى بالغة ، فإذا ما بدا له أن أحدًا مسّها بسوء ، من مثل معارضته تدريس العلوم والطب بالعربية في الجامعات ، أو دعوته إلى إحلال اللهجات المحلية محلَّ العربية هاج هائجه ، على ما عُرف به من هدوء النفس ، وكظم الغيظ .

تناولت كتبُ الفقيد ومقالاته موضوعاتٍ شتى . ومن أبرز مؤلفاته : كتابه : "المعجم العربي بين الماضي والحاضر" ، وكتابه : "المعجم العربي ونظرات في المعجم الوسيط" ، وكتابه : "لغة القانون في الدول العربية ".

وكتابُ "المعجم العربي بين الماضي والحاضر" (١) هو مجموعة المحاضرات التي ألقاها الدكتور الخطيب على قسم الدراسات الأدبية واللغوية في معهد البحوث والدراسات العربية . وهو قسمان: تحدث في أولهما عن أمهات المعاجم العربية في الماضي ، واستعرض في الثاني المعاجم المؤلفة في العصر الحديث، وختم كتابه بعرض تصوره للمعجم العربي الحديث .

أما كتاب "المعجم العربي ونظرات في المعجم الوسيط" (٢) فهو كتابان : أولهما: "المعجم العربي"،وهو يكاد يكون النواة الأولى لكتابه : "المعجم العربي بين الماضي والحاضر" المذكور آنفًا .
ويضم ثانيهما وهو "نظرات في المعجم الوسيط" جملة ملاحظه على المعجم ، وقد ذكر المشرفون على طبعة المعجم الوسيط الثانية أنهم أفادوا من بعض ما أورده الدكتور الخطيب .

ويأتي كتابه : "لغة القانون في الدول العربية "، محاولةً جادة للارتفاع بلغة القانون في البلاد العربية : أسلوبًا ودقة وتوحيدًا .

---

(١) صدر عن معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٦٦-١٩٦٧م).

(٢) صدر عن المجمع العلمي العربي بدمشق – ١٩٦٥م .

وللأستاذ الخطيب المقالات الكثيرة التي حبّرها في مباحث لغوية مختلفة،وفي التعريف بالكتب ونقدها ، ينسرب فيها جميعًا تلك الروح الصافية التي أحبّت العروبة والعربية،وأشادت بالنهضة ورجالاتها.

كان ، رحمه الله ، يردد مع أستاذه محمد كرد علي، نصيحة الشيخ طاهر الجزائري :" اذكروا مَنْ عندكم من الرجال .. ودوّنوا أسماءهم في جريدة لئلا تنسَوْهم ، ونوّهوا بهم عند كل سانحة ، واحرصوا عليهم حرصكم على أعز عزيز... " (١)

واستجابة لإعجابه الشديد بالشيخ طاهر الجزائري أحد رجال النهضة والإصلاح البارزين في الشام فقد ألّف كتابه : "الشيخ طاهر الجزائري" (٢) ، كشف فيه عن أعمال هذا المصلح الفذّ الذي كان نبراسًا يضيء في ليل مظلم ، وبيّن آثاره العميقة في نفوس مريديه وطلابه ، فامتدوا به ، وساروا على نهجه، دفاعًا عن الهوية العربية ، وتأصيلا لها ، ودعوة إلى الإصلاح والنهوض حتى تستعيد الأمة العربية مكانتها السامية . يقول الأستاذ محمد كرد علي في مطلع كتابه : (كنوز الأجداد) منوّهًا به ، مهديًا كتابه إليه ، اعترافًا بفضله ، وتقديرًا لعمله :" إلى روح من أشرب قلبي حبَّ العرب ، وهداني إلى البحث في كتبهم ، صدر الحكماء سيدي وأستاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري ، أهدي كتابي : كنوز الأجداد " (٣)

وإنك لتلمحُ في كتب الفقيد ومقالاته تذكيرًا بالنهضة العربية ورجالاتها،وإنما هي الدعوةُ إلى الاقتداء بهم،ومتابعة طريقهم ليشرق فجر العروبة الصادق ، وتتبوأ الأمةُ العربية منزلتها الرفيعة بين الأمم .

وتلاقت في نفس الفقيد خصالٌ حبّبت إليه الحديث عن المجمع والمجمعيين يأتي في مقدمتها حبُّه للعربية رمز هويتنا ، ومستودع ذخائرنا الفكرية والثقافية ، وحرصُه على تخليد الرجال المصلحين الذين قدموا لأمتهم خير ما عندهم ، ووفاؤه لاخوانه الذين ساروا في الدرب الذي آثر أن يسير فيه ، وعملوا ما بوسعهم لتظلَّ العربيةُ المبينةُ لغة العصر ، تلبّي ما يراد منها ، وتستجيبُ لمطالب الحياة الجديدة .

وإنه ليبهرك هذا القدر من تراجم الرجال المجمعيين الذي صوّرتهم ريشة الفقيد الذي رزق الموهبة ، فإذا هو ينفذ

(١) المذكرات لمحمد كرد علي ٢٧٤.١ .

(٢) صدر عن معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٧١م) .

(٣) كنوز الأجداد لمحمد كرد علي (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق – ١٩٥٠م) ، الشيخ طاهر الجزائري ٣٠ .

بنظراته الثاقبة إلى الصفات والسجايا الأصيلة لمن يتحدث عنه، وتُسعفه سَعة الاطلاع فإذا هو يستقصي أحوال المترجم له وأعماله، لا يكاد يغادر منها شيئًا.

ترجم للأعضاء المؤسسين الثمانية، ومضى على سنّه يترجم لمن فقدنا من المجمعيين، من أمثال الأمير مصطفى الشهابي، والدكتور شكري فيصل، والأستاذ عبد الله كنون، والأستاذ أحمد حسن الزيات، والأستاذ ساطع الحصري، والدكتور عمر فروخ، والدكتور أحمد عبد الستار الجواري.. والأمل أن تجمع هذه التراجم التي ترسم صورة حية لهذه المرحلة الهامة من حياتنا اللغوية والثقافية منذ مطلع القرن العشرين.

هذا ولا يفوتني أن أشير إلى أن جلّ هذه التراجم قد نشر على صفحات مجلة المجمع بدمشق. كان الفقيد رحمه الله طموحًا ذا نفسٍ توّاقة إلى الكمال، أراد أن يتحدث عن مجمع اللغة العربية بدمشق في خمسين عامًا، فأعدَّ العدّة، ووضع الخطّة ليترجم لخمسة وأربعين عضوًا من أعضاء المجمع، وليلحق بكتابه ثبتًا بأسماء أعضاء المجمع المراسلين، ومجموعة القوانين والأنظمة المتعلقة بالمجمع، ومسردًا يضمّ أسماء مطبوعات المجمع في خمسين عامًا.

ولكن الشواغل المتزاحمة لم تسمح له إلا بتسطير القسم الأول من الكتاب الذي تناول فيه سير ثمانية من الأعضاء هم الأعضاء المؤسسون (١)، ولم يسعفه الوقت ليكمل ما بدأ، وكان هو الأقدر على صنع ذلك لصلته الوثيقة بالمجمع، وعنايته البالغة بضم النصوص والوثائق الخاصة بالمترجمين، وتنسيقها لتكون دائمًا بين يديه، تلبيه في عمله.

ولعل في هذا تفسير ما نقع عليه أحيانًا في آثاره من وعده بأشياء لم نرها، فقد ألقى كلمة في الاحتفال بالذكرى المئوية لولادة الأستاذ محمد كرد علي تناول فيها كتابه: "المذكرات". وقد اجتزأ بالمقدمة لضيق الوقت، ووعد بنشر بحثه كاملاً في كتاب مستقل (٢). وكُنا نودّ لو ظهر الكتاب، لأن المذكرات قد أثارت ضجة كبيرة عند ظهورها، واختلف الناس في تقديرها وتقويمها أشد الاختلاف. وكان الدكتور الخطيب أقدر الناس على بيان

(١) مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا (مطبوعات المجمع ١٩٦٩م) ١٥-١٦

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٥٢ (١٩٧٧م) ٩٧.١، هـ ١.

الدواعي والأسباب التي تفسر كثيرًا من مواقف الأستاذ محمد كرد علي في مذكراته .

وآخر ما أورده في هذا الصدد أن الفقيد رحمه الله ، عزم على أن يؤلف كتابًا يتحدث فيه عن مجمع اللغة العربية بدمشق في خمسة وسبعين عامًا ، ليقدّمه في الحفل التذكاري الذي يقيمه المجمع في (٢٦ - ٢٩/١١/١٩٩٥م) بمناسبة مرور خمسة وسبعين عامًا على إنشائه .

وقد ذكر لنا في آخر جلسة من جلسات المجمع التي حضرها أنه أنجز مؤلفه وهو في سبيل تقديمه للطباعة . وفاجأته المنية ، وبحثنا عن مخطوطة الكتاب فلم نقع لها على أثر . وإنا لنأمل أن تكشف لنا قادماتُ الأيام ما خفي علينا من أمرها .

إن الحديث عن الأستاذ الخطيب المجمعي حديث شائق ذو شجون . وإن سيرته المجمعية وآثاره ومنجزاته لجديرة أن تجذب الدارسين ليمضوا في رياضها الوقت الطيب ، باحثين مقبين ، وسيجنون خير الجني في تجوالهم وبحثهم ، ويقدمون الكثير المفيد الذي يغني المكتبة العربية ، ويضيف إليها الجديد .

أمضى الأستاذ الخطيب في رحاب مجمع الخالدين بدمشق خمسًا وثلاثين سنة، عمل فيها دائبًا دون كلال ، ما تأخر عن بذل ، ولا توقف عن عطاء .

ولقد قضى يومه الأخير (يوم الأحد ٢٩/٤/١٤١٦هـ -٢٤/٩/١٩٩٥م)(١) بيننا في المجمع كعادته في المواظبة على الحضور كل يوم ، والمشاركة في أعمال المجمع ، وعاد ظهرًا إلى منزله . ولم يَدُرْ في خَلَد أحدٍ منا أنه الفراق الأخير ، وأن المنية ستفجعنا بعد ساعات بفقيدنا الغالي فتختطفه دون إنذار أو إشارة .

لقد كانت الفجيعة فيه كبيرة ، جلّلت النفوس بالحزن والأسى ، وكانت الخسارة بفقده بالغة ، ملأت القلوب حسرةً وأسفًا . وفارقنا ، رحمه الله ، أشدَّ ما كان تصميمًا وعزمًا على أن ينجز ما كان عقد عليه النية من استكمال لموضوعات سابقة كان قد بدأها ، واستئناف لموضوعات تجمعت لديه مادتُها ، ليسطر بذلك خلاصة ما انتهى إليه في حياة حافلة بالدرس والاطلاع والعطاء .

وبعد ، فقد كان من أحب الأشياء إلى فقيدنا ، وآثرها عنده حضور مؤتمر

(١) وكانت ولادة الأستاذ الخطيب في (١٢/٤/١٣٣٢هـ - ٨/٣/١٩١٤م)

مجمع اللغة العربية بالقاهرة . كان ينتظر الموعد انتظار مشوق ، ويُعدُّ له ويهيّئ . وكانت أيامه في القاهرة ربيع عمره ، يَلْقى زملاءه وأصدقاءه في المجمع ، يجد المتعة والراحة في مجالستهم ، والتحدث إليهم ، ليعود إلى دمشق بذكريات جميلة تكون له خير زاد .

وإنه ليذكرُ حضوره الأول المجمع والفرحُ يغمر قلبه فيقول : " وكان مما أنعم الله به عليّ أن كنتُ واحدًا ممن حضروا سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦١م) المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة ، وجلستُ فيه إلى جانب رئيس مجمع دمشق الأمير مصطفى الشهابي ، وعنه اقتبستُ إلزامه نفسه بمواعيد الجلسات ،والانتباه إلى دقائق ما يدور بين أعضاء المؤتمر من مناقشات ، وتسجيل ما ينتهي إليه الرأي بينهم ، وما يتمُّ - عند اختلافهم - اتفاق الأكثرية عليه " (١).

وهو يأسَى أشد الأسَى لأن أسبابًا قاهرة لم تُتح له حضور المؤتمر السنوي للمجمع بانتظام ، حتى كانت سنة ١٣٨٩هـ (١٩٧٠م) فانتظم حضوره " بفضلٍ من إخلاص وحنكة الرئيس الجليل الدكتور إبراهيم مدكور" (٢).

وقد أخذ نفسه بتسجيل وقائع المؤتمر بكل الدقة والعناية بدءا من الدورة السابعة والثلاثين (١٩٧١م) . وكان ينشر ما سجل في مجلة مجمع دمشق تارة، وفي مجلة مجمع عمّان تارة أخرى، وقد يجمع بينهما . ولما احتفل مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعيده الذهبي عام ١٩٨٤م سارع الدكتور الخطيب فنشر كتابًا بعنوان : "العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية (١٩٣٤ - ١٩٨٤م)" ضمّنه وقائع احتفالات المجمع بعيده الذهبي ، ثم وقائع مؤتمرات المجمع لأربع عشرة دورة مجمعية خلت (الدورة المجمعية ١٩٧١/٣٧م - الدورة المجمعية ١٩٨٤/٥٠م) . وأورد في الفصل الأخير (السادس عشر) مسردًا لمقررات مجمع اللغة العربية في خمسين عامًا .

وكان الدكتور الخطيب من شهود الجلسة التي عقدت بمنزل الدكتور طه حسين وبرياسته،وتمّ بها تأسيس اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية عام ١٩٧١م (في ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٩١هـ الموافق

---

(١) العيد الذهبي لمجمع اللغة العربية للدكتور عدنان الخطيب : ٩ .

(٢) المصدر السابق ، والصفحة نفسها

١٣ آيار ١٩٧١م) (١) ، وانتُخب أمينًا عامًا مساعدًا للاتحاد ، فحاز ثقة زملائه، وظلّ في منصبه طوال حياته .

انضمّ الدكتور الخطيب إلى مجمع الخالدين بالقاهرة ، وكان أحد الأعضاء العاملين الثمانية الذين استقبلهم المجمع في العاشر من مارس(آذار)١٩٨٦م، في أثناء انعقاد مؤتمره السنوي في دورته الثانية والخمسين . وقد افتتح حفل الاستقبال الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع رحمه الله،وألقى الأستاذ عبد السلام هارون الأمين العام كلمة المجمع في استقبال الأعضاء الجدد، كذلك لقد ألقى كلمة الأعضاء الجدد الأستاذ الدكتور حسني سبح رئيس مجمع دمشق .

وتوثّقت صلةُ الأستاذ الخطيب بالمجمع ، فحرص الحرص كله ألا يتخلف عن شهود مؤتمراته . وكان يُلزم نفسه أن يقدم بحثًا من بحوث المؤتمر . وقد وقع عليه الاختيار غير مرة ليلقي كلمة الوفود المشاركة .

ومن كلماته التي نشرتها مجلة المجمع بالقاهرة . قصة دخول العلمانية في المعجم العربي ، والمعجم العربي الوسيط، والأرقام العربية بين مشرق الوطن العربي ومغربه (صلة الكلام في تسوية الأرقام)، والعامية عاميات، والواجون حمالها أنماط، وألفاظ ومعانٍ ليست في الفصحى ولكنها من الفصيح ، وعود على بدء وقد آن للأصوات الطيبة أن يسمع صداها.

وقد شارك في تأبين الأستاذ حسني سبح ، والأستاذ الدكتور اسحاق موسى الحسيني ، والأستاذ الدكتور أحمد عبد الستار الجواري في حفلات التأبين التي أقامها مجمع القاهرة . (٢)

لقد أمضى الدكتور الخطيب في كنف مجمع الخالدين بالقاهرة تسع سنوات ونيّفًا ، كانت حافلة بالعمل والنشاط ، وخلّف في نفوس زملائه وأصدقائه وعارفيه ذكرياتٍ تنفح طيبًا وتضوع أريجًا .

رحم الله الفقيد الرحمة الواسعة ، وأنزله منازل الأبرار المتقين .

رحم الله صاحبي وخديني
رحمة تغتدي وأخرى تروحُ

---

(١) اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية في خمس عشرة سنة ١ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة : ج ٢٢- ١٩٦٧م ، ج ٦٠ - مايو ١٩٨٧ ، ج ٦١ - نوفمبر ١٩٨٧م ، ج٦٢- مايو ١٩٨٨م ، ج ٦٤ - مايو ١٩٨٩م ، ج ٦٦ - مايو ١٩٩٠م ، ج ٧٠ - مايو ١٩٩٢م ، ج ٧٢ - مايو ١٩٩٣م ، ج ٧٣ - نوفمبر ١٩٩٣م

لا رال مسك وريحانٌ له أرجٌ يَسقي صَداك ومساه ومصبّحَهُ

على صداك بصافي اللون سلسال رِفْهًا ورَمْسُك محفوفٌ بأظلالِ

شاكر الفحام

عضو المجمع

من سورية

ثالثًا : تأبين الأستاذ الدكتور

حسين مؤنس

عضو المجمع

أقام المجمع حفلاً لتأبين الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عضو المجمع الراحل ، في جلسة علنية عُقِدت بدار المجمع في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء ١١ من المحرم سنة ١٤١٧هـ الموافق ٢٩ من مايو سنة ١٩٩٦م.

وحضر هذا الحفل الأستاذ الدكتور شوقي ضيف نائب رئيس المجمع ، والأستاذ إبراهيم الترزي الأمين العام للمجمع ، والسادة أعضاء المجمع .

كما حضره لفيف من رجالات الثقافة والتعليم العالي بمصر والعالم العربي ، ولفيف من رجالات الصحافة والإذاعة والتلفزيون .

وكان منهج الحفل على النحو التالي :

١- كلمة الأستاذ الدكتور رئيس المجمع.

٢- كلمة المجمع في تأبين الفقيد للأستاذ الدكتور محمود علي مكي عضو المجمع .

٣- كلمة الأسرة .

٤- كلمة الختام للأستاذ الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع .

فى تأبين الأستاذ الدكتور حسين مؤنس

للأستاذ الدكتور شوقى ضيف رئيس المجمع

سيداتى ، سادتى:

باسم المجمع أشكر لحضراتكم تلبيتكم لدعوتنا، وكريم مواساتكم فى تأبين زميل جليل ، هو المغفور له الأستاذ الدكتور حسين مؤنس . وقد كانت وفاته الفجائية صدمة كبيرة هزت أعصاب المجمعيين، والمؤرخين، والعلماء فى مصر وجميع البلاد العربية ، فالفجيعة فيه كانت عامة شاملة . ومن سنن المجمع أن يقيم حفل تأبين للراحلين من أعضائه، تكريمًا لذكراهم الطيبة وتنويهًا بما نهضوا به من جهود علمية صادقة فى خدمة العربية والعلم والأدب . وإني أبكى أخًا من إخواني الأقربين منذ أيام الدراسة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، وعلمًا شامخًا من أعلام مصر فى القرن العشرين ، وركنًا من أركان نهضتنا العلمية والفكرية والأدبية .

وقد ألّف ونشر – رحمه الله - المجلدات الضخام فى السيرة النبوية العطرة ، وفى علم الإسلام، وخصائصه، وثقافته ،وحضارته ، وفى تاريخ الإسلام وفتوحه السلمية فى إفريقيا وآسيا، وفى تاريخ المغرب العربى والأندلس الإسلامية . ومن مصنفاته تراث مصر القديمة ، والشرق الإسلامي فى العصر الحديث ، ومصر ورسالتها وعلاقتها بالعرب والدول الأفريقية والبحر المتوسط، ونور الدين بطل الحروب الصليبية، والحضارة ونشأتها ومسيرتها فى الأمم وفى العصر الحديث ، ووضع أطلس تاريخ الإسلام ، وهو دائرة معارف كبرى تاريخية وجغرافية تنوء بها العصبة أولو القوة .

وشارك الدكتور حسين مؤنس – منذ بواكير حياته - فى ترجمة الأعمال العلمية العربية القيمة ، من ذلك القسم الخاص بإسبانيا والبرتغال فى كتاب "تراث الإسلام" وكتاب " تاريخ الفكر الأندلسي" لبالنثيا ، وهو موسوعة كبيرة فى الفكر الأندلسي من جميع جوانبه الثقافية والعلمية والأدبية ، مع بيان أثر الفكر الأندلسي أدبًا وفلسفة وعلمًا فى الفكر الإسباني والأوربي.

وحين جمع بين أستاذيته فى كلية الآداب وإدارته للثقافة فى وزارة التعليم أنشأ

مشروعه المشهور "الألف كتاب" . لـيزود الشباب المصري بمواد كثيرة مترجمة مـن المعرفة العامة ونشرت من هذا المشـروع مئات من الكتب النافعة المفيدة . وترجـم بعض مسرحيات إسبانية . وله تحقيقـات علمية قيمة لطائفة مهمة من كتب الـتراث العربي والأندلسي .

وحين أسس لمصـر معـهد الدراسـات الإسلامية بمدريد أنشأ له مجلة علمية تتناول الأندلس فكرًا وتاريخًا وأدبًا .

وكان الدكتور حسين مؤنس أديبًا بارعًـا، وله مسرحيات وأقاصيص متنوعة صـوَّر فيها قضايا قومه تصويرًا بديعًا . ومنـذ أن كان طالبًا فى كليـة الآداب يكتـب فى الصحف والمجلات مقالات لا تكاد تحصى. ورأس تحرير مجلة الهلال سنوات متعاقبـة ، وكان له مقال أسبوعي فى مجلة أكتوبر ظل يكتبه إلى أن اختاره الله إلى جواره .

كلمة المجمع

في تأبين الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عضو المجمع

للأستاذ الدكتور محمود على مكى عضو المجمع

كان- رحمه الله - أمة وحده !

كان هذا هو ما يدور بخاطرى وأنا ألقى عليه نظرة الوداع الأخيرة ، وهو مُسَجًّى على فراشه . لم تكن تعلو وجهه تلك الصفرة وذلك الشحوب اللذان تتشح بهما وجوه الموتى ، بل كان وجهه ناضراً ومُوَرداً كالعهد به وهو فى عالم الأحياء ... وكانت تعلو شفتيه ابتسامة ، وكأنها تعبير عن الرضا والراحة بعد حياة قضاها طولاً وعرضًا وأدى خلالها رسالته فأحسن الأداء.

فى لحظات تواردت على مخيلتى ذكريات علاقة حميمة اتصلت بيننا على مدى ما يقرب من نصف قرن . كانت المشاهد والصور تتزاحم فى فكرى كأنها شريط سينمائي أُسيء تقطيع فصوله ، فاختلطت فيه صور قريبة العهد، لا يتجاوز عمرها أياماً، بصور أخرى ترجع إلى سنوات طويلة مضت ، ولكنَّها كانت جميعًا قريبة إلى النفس محببة إلى القلب .

كانت صلتى المباشرة به ترجع إلى منتصف الأربعينيات حينما جلست إليه مجلس التلميذ فى محاضرات التاريخ الإسلامى . وكانت مادة التاريخ مقسومة بينه وبين الدكتور حسن إبراهيم حسن ، فقد كان الدكتور حسن إبراهيم يدرس لنا تاريخ الدولة العباسية ، وكان الدكتور مؤنس يحاضرنا فى تاريخ مصر الإسلامية . وكانت هذه المادة مشتركة بين طلبة قسم التاريخ وقسم اللغة العربية الذى كنت أنتمي إليه .

بين الصحافة والتاريخ:

كثيرًا ما كان يراودنى - وأنا أستمع إلى محاضراته -سؤال لم أهتد إلى جوابه إلا بعد زمن لا أذكر مدى طوله . فقد كنت أقرأ - وأنا مازلت فى المرحلة الثانوية فى أقصى الصعيد - لكاتب يدعى حسين مؤنس ينشر مقالاته فى مجلة " الاثنين " الأسبوعية، التى كانت تصدرها دار " الهلال " . كان كاتبا رشيق العبارة يتناول بالنقد بعض

جوانب حياتنا وعيوب مجتمعنا فى فكاهة رقيقة وسخرية غير جارحة . وكنت أتتبع تلك المقالات فى شغف، إذ كانت أشبه بما كان القدماء يدعونه " السهل الممتنع " ، من بساطة تشد إليها القارئ، وخفة ظل تستحوذ على اهتمامه .

أيكون هذا الكاتب الصحفي هو نفسه ذلك الأستاذ المتخصص الذى يحمل طلابه على الحوار والمناقشة، ثم لا يبخل عليهم بعد نهاية المحاضرة بجهد أو وقت لكى يوجههم ويجيب عن أسئلتهم رفيقًا بهم حانيًا عليهم؟ أم أنهما شخصان مختلفان جمع بينهما تماثل الأسماء ؟ ومضى وقت غير قليل قبل أن أعرف أن الاسمين لشخص واحد . وكان ذلك أول مظهر أكتشفه من مظاهر تنوع الثقافة وتعدد الاهتمامات فى شخصية حسين مؤنس .

وكان المظهر الثانى هو ما تبين لى فى أثناء العطلة الصيفية لنفس السنة الدراسية، التى كان حسين مؤنس يلقى علينا فيها محاضراته حول مصر الإسلامية . وكنت أقضى هذه العطلة فى بلدى " قنا " فى جوف الصعيد . وكانت فى دارنا مكتبة غنية كانت تشتمل على عدد كبير من الكتب الأدبية والتاريخية مما كان يعنى بجمعه أخي الأكبر رحمه الله . وبين هذه الكتب إذا بى أعثر على مجلد ضخم مطبوع على ما أذكر فى سنة ١٩٣٤م وهو بعنوان " الشرق الإسلامى فى العصر الحديث " من تأليف حسين مؤنس . وعرفت أن هذا الكتاب كان رسالته التى تقدم بها لنيل درجة الماجستير ، ولعله كان أول كتبه فى ميدان الدراسات التاريخية ، وبعد شهور إذا بى ألتقى فى مكتبة جامعة القاهرة بكتاب آخر هو " فتح العرب للمغرب " لمؤنس أيضا .وهو رسالته لنيل درجة الدكتوراه، وتاريخ نشره هو عام ١٩٤٧م، ثم بدراسة أخرى منشورة له فى حوليات كلية الآداب بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٤٨م، وكانت باللغة الفرنسية وموضوعها " سقوط الخلافة الأموية فى قرطبة " . فكان عجبى يزداد من هذا الأستاذ الجامعى الذى يدرس تاريخ مصر الإسلامية، ويكتب فى تاريخ الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ،وينتقل بعد ذلك إلى تاريخ المغرب فى بداية حياته الإسلامية ، ثم يَثِبُ إلى الأندلس فيتحدث عن حقبة مضطربة من تاريخها العربى .

وهو فى ذلك يراوح فى الكتابة بين العربية والفرنسية ، ويضيف إلى كل ذلك كتابات يصعب تصنيفها ، فهى بين المقال الاجتماعي واللوحة القصصية والفكاهة الساخرة .

الأندلس : هواه الأول :

ومضت على ذلك سنوات تخرجت خلالها في كلية الآداب ، ثم أوفدت فى سنة ١٩٥٠م فى البعثة الأولى التى اختارها الدكتور طه حسين أثناء توليه لوزارة المعارف؛للدراسة فى إسبانيا، وذلك بمناسبة افتتاح المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد . وهناك علمت أن فكرة إنشاء هذا المعهد - وهو المؤسسة العلمية الوحيدة لنا فى الخارج - ترددت فى ذهن رائد ثقافتنا العظيم منذ سنة ١٩٣٨م حينما أصدر كتابه " مستقبل الثقافة فى مصر " ، ولكن الفكرة لم تتجسم فى هيئة مشروع مكتمل إلا بفضل مذكرة كتبها حسين مؤنس فى أوائل الأربعينيات ، وذلك بعد زيارة كان قد قام بها إلى إسبانيا فى صيف سنة ١٩٤٠م ، وكانت الحرب الأهلية الإسبانية قد وضعت أوزارها قبل ذلك بشهور، والخراب يعم أنحاء البلاد . ولكن مؤنسًا كان يرى ببعد نظره أن من مصلحة بلادنا توثيق علاقاتنا بهذا القطر الذى عاش أسلافنا العرب فى رحابه نحوًا من عشرة قرون . على أن أول مدير لذلك المعهد الذى افتتحه طه حسين سنة ١٩٥٠م كان أستاذنا الفاضل محمد عبد الهادى أبو ريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة ، وبعد سنتين قامت ثورة يوليه ١٩٥٢م ، فأتى إلينا مدير جديد هو على سامى النشار الذى ولى إدارة المعهد سنة واحدة . ثم إذا بحسين مؤنس يأتى إلى مدريد فى السنة التالية ، فيتولى إدارة المعهد سنة أخرى (بين ١٩٥٤ و ١٩٩٥م) . وعلى الرغم من قِصَر هذه المدة، فقد كانت خيرًا وبركة على المعهد وعلى العاملين فيه من أمثالنا من الطلبة، الذين كانوا يعدون رسائلهم لنيل الدكتوراه . فقد كان مؤنس خير عون لنا للمضيّ فى عملنا ،وجازيناه خيرًا بخير ،.فعاوناه على استكمال مكتبة المعهد حتى أصبحت من أغنى المكتبات العربية فى إسبانيا ، وعلى تحرير العدد الثانى من مجلة المعهد التى لم تلبث أن عُدَّت من خير المجلات الأكاديمية فى أوربا بقسميها: العربى والأوربي ، وكان مؤنس بالخبرة التى

ورثها عن عمله في الصحافة قد أرسى لمجلة المعهد من التقاليد ما أصبح ضوابطَ متبعةً فيما بعد، سواء في إخراجها وتبويبها ، أو في محتوى مادتها العلمية التي حرص على أن تكون في أرفع مستوى . ومن هنا خف إلى الاشتراك في تحريرها عدد من كبار المستشرقين الإسبان والأوربيين . ولم يسر مؤنس بأسًا في أن يفسح صفحات المجلة لنا، وكنا لا نزال نُعِدُّ رسائلنا الجامعية ، ففي هذا العدد الثاني نشرت أول بحث لي حول " التشيع في الأندلس " بالإضافة إلى الاشتراك في باب نقد الكتب . لم يطل مقام حسين مؤنس في إسبانيا ، فهو لم يتجاوز سنة واحدة ، ولكن ما أنجزه خلال هذا الزمن اليسير جعله دائم التطلع إلى إكمال ما بدأه هناك ... وقد صوَّر حنينَه إلى هذه البلاد قولُه في مقدمة كتابه " رحلة الأندلس " :" منذ ذلك الحين - يعني زيارته الأولى لإسبانيا سنة ١٩٤٠م - لم يخرج الأندلس من خاطري أبدًا : إذا كنت فيه فأنا بين آثاره ومغانيه ، وإذا كنت بعيدًا عنه فأنا مع تاريخه أتأمله وأستوحيه "

في مصر : مشروع الألف كتاب :

في سنة ١٩٥٥م يعود مؤنس إلى مصر ، فتعهد إليه وزارة التربية بما كان يسمى إدارة الثقافة ، وكانت إدارة كبيرة تتبعها إدارات مختلفة للنشر والترجمة والتعاون العربي والعلاقات الثقافية الخارجية . ومتنا كان أيسر على حسين مؤنس وأدعى إلى راحته أن يظل في هذا المنصب الكبير موظفًا مرموقًا، مثل غيره من الموظفين في انتظار الترقية إلى وكيل وزارة ... غير أنه كان طرازًا آخر من العاملين في الدولة : كانت راحته في تعبه ، وجهده أشبه بالمتنبي الذي يقول: إنه جوادُ أضرَّ بجسمه طول الجِمام (أي الراحة) ، فهو يحلم دائمًا بعمل كبير يعود بالخير على مجتمعه ووطنه ... ومن هنا انبثق من فكره مشروع "الألف كتاب " فقد كان يرى أن الأمة - أي أمة - لا تنهض إلا بالثقافة فهي حق للجميع. وإذا كان أستاذه طه حسين قد أعلن من قبلُ- في مقولة مشهورة -أن التعليم مثل الماء والهواء، وأن من حق كل فرد أن ينال قسطه من التعليم؛ فإن مؤنسًا كان يرى أن الثقافة أيضًا حق لكل مواطن وأن واجب الدولة هو أن توفر لكل فرد

حظًا من التثقف، تيسره لــه. وتجعلــه فى متناول يده بأيسر مؤونة .

وهكذا شرع مؤنس فى إعداد هذا المشروع الضخم : أن ينشر ألف كتاب فى السـنة، أى بمعدل نحو ثلاثة كتب فى اليوم الواحد، على أن تتناول هذه الكتب - ما بين مؤلف ومترجم - كل ما يعين على بناء المصـرى الجديد بـأن يواكـب حضـارة القـرن العشرين. . وتحولت إدارة الثقافة فى ظـل المشروع الكبير إلى خلية نحل : الموظفـون فيها يعملون ليل نهار ، ومعهم عاملون من خارج الإدارة ... بعضهم عاكفون علـى إعداد قوائم بالكتب المختارة،وعلى تكليف المؤلفين والمترجمين ، وآخرون للتعاقد مـع دور النشر أو المطابع مع إلزام أصحابها بأن تكون الكتب فى متناول الجميع بقـروش معدودة . وبعد شهور قليلة آتـت هـذه الجهود أُكُلَها ، فإذا بالشارع المصرى يمتلئ بهذه الكتب فى طبعات رخيصة الثمن تسد حاجة الجمهور إلى المعرفة بكل ألوانهـا . وإذا بهذا العمل الجليل الذى أطلق مؤنـس شرارته الأولى يصبح مَعلمًا من أهم المعـالم المضيئة فى مصر فى أواخر الخمسينيات .

وكنت - بعدَ أن أنهيت دراستى فى مدريد بنيل درجة الدكتوراه- واحدًا من معـاونى مؤنس فى إعداد هذا المشروع ، غير أنـه رأى بعد ذلك أن من الخـير لمعـهدنا فى مدريد أن أعود إليه لكى أواصل المسـيرة التى بدأها هناك ، فـانتقلت إلى إسـبانيا وكيلاً للمعهد قائمًا بعمل المدير ، فقـد كانت درجتى الوظيفيـة - بالإضافـة إلى صغر السن - لا تسمح بأن أتـولى هـذا المنصب بصفة رسمية . وكـان علـىَّ أن أواصل هناك العمل فى ضوء الخطة الـتى كان قد رسمها مؤنس أثناء إدارتـه الأولى للمعهد .

ظل حسين مؤنس فى إدارة الثقافة ثـلاث سنوات حقق خلالها من المشروعات - ولم نذكر إلا واحدًا منها - ما لم يتحقـق فى هذه الإدارة من قبل، على مدى سـنوات طوال، على أنه كان لا يـزال مرتبـطًا بالأندلس وبمعهد مدريد يرى فيـه - إلى جانب رسالته العلمية الأكاديمية - مركـزًا يربط بين العالم العربى والعالم المنبثق مـن إسبانيا، أى بلاد أمريكا اللاتينية الناطقـة بالإسبانية . ومن هنا كانت رحلته الطويلة التى كلفته بها مصلحة الاسـتعلامات، فى

أوائل سنة ١٩٥٧م؛ لزيارة هذه البلاد وإنشاء عدد من المراكز الثقافية فيها . وكانت جولة جاب فيها تلك القارة الهائلة الاتساع من المكسيك إلى شيلى مرورًا بالإكوادور وبيرو وبوجوتا ، وفى كلٍّ من عواصم هذه البلاد أنشأ مع زعماء الجالية العربية بها مركزًا أو معهدًا ثقافيًا يكون على صلة بمعهدنا فى مدريد .

الأندلس من جديد :

لعل حسين مؤنس كان يشعر بالرضا بعد إنجازه الكبير فى إدارة الثقافة ، غير أن أداءه المتميز فى هذه الإدارة لم ينسه أرض الأندلس التى ارتبط بها منذ زيارته الأولى فى سنة ١٩٤٠م ، وهكذا عاوده الحنين إلى هواه الأول ، وكأنه ينشد مع شاعرنا القديم :

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شِئتَ مع الهوى
ما الحبُّ إلاّ للحبيبِ الأوَّلِ

ومن هنا لم يتردد فى العودة إلى مدريد ليكون مديرًا لمعهدنا من جديد فى سنة ١٩٥٨م، وظل فى هذا المنصب حتى بلوغه سن التقاعد فى سنة ١٩٦٩م . وبقيت معه وكيلاً للمعهد حتى سنة ١٩٦٥م . ولعل هذه السنوات الاثنى عشرة كانت أكثر عهود تلك المؤسسة المصرية ازدهارًا وعطاءً، وأكثر مراحل عمر مؤنس خصوبة وإنتاجًا فى الوقت نفسه .

كنا نعمل فى المعهد صباحًا ومساءً، لا ننقطع عنه إلا نحو ساعتين فى وسط النهار. كانت المجلة معرضًا لما خُصَّت به من أبحاث علمية، اشترك فى كتابتها مصريون وعرب وأوربيون حول الحضارة الأندلسية بمختلف جوانبها . مطبوعات المعهد بالعربية والإسبانية تكاثرت وازداد الطلب عليها . لم يكن أسبوع يخلو من محاضرة يلقيها أحدنا فى مدينة إسبانية حول موضوع متعلق بالأندلس أو بالثقافة العربية الإسلامية القديمة أو الحديثة فى مدينة كبيرة أو صغيرة ، أو من ندوة نشترك فيها ، وقد اقتضى ذلك منا جولات لا تنقطع فى أنحاء شبه الجزيرة ، العلماء المستشرقون الإسبان وغيرهم من الأدباء و الأساتذة الجامعيين يترددون بغير انقطاع على المعهد محاضرين أو مشتركين فى أبحاثنا ، وبالتعاون معهم نظمنا ما يعرف باسم الجلسات الأندلسية التى كان يعقد لها مؤتمر سنوي، يقام كل عام فى إحدى العواصم الإسبانية ، وأصبح ذلك تقليدًا مستمرًا . الاهتمام بالثقافة

العربية و الإسلامية يتزايد متمثلاً فى إقبال عدد كبير من الطلبة على دروس اللغة العربية التى ينظمها المعهد، وفى تردد الجمهور على ما يلقى فيه من محاضرات أو ينظم من ندوات أو حلقات دراسية . ولم يكن ذلك يمنعنا من نشر كتب و مقالات فى مجلات العالم العربى وصُحُفه . وكنا نعمل أيضًا على تعريف جمهورنا العربى بالأدب الإسبانى عن طريق الترجمة، أو الدراسة .

خلال هذه السنوات أصدر حسين مؤنس عددًا لا يكاد يحصى من الكتب والمقالات بين تأليف، و ترجمة، وتحقيق نصوص . وكانت دائرة عمله الواسعة بطبيعتها تزداد اتساعًا ، فهو - إلى جانب تخصصه فى الدراسات الأندلسية - يكتب فى تاريخ الإسلام فى الشرق والغرب وترد عليه كتب بالعربية وبمختلف اللغات الأوربية فيكتب عنها عارضًا وناقدًا ، ويسوافى صحيفة الأهرام أو غيرها بمقاولات ذات طابع أدبى، يعرض فيها الجديد من النتاج الأدبى الإسبانى والأوربى . ولهذا فقد كان اسمه مألوفًا فى العالم العربى من الكويت إلى المغرب الأقصى، وخارج هذا العالم فى العواصم الأوربية والأمريكية .

كنا نتخذ من حسين مؤنس قدوة فى التنوع، والخصوبة، والانفتاح على كل ألوان الثقافة . وكنت أعجب من قدرة هذا الرجل على العمل وصبره عليه ، ومن طاقته العجيبة على الاشتغال فى أكثر من موضوع فى وقت واحد ، وما أكثر ما كنت أدخل عليه مكتبه فأراه -مع تصريفه لأعمال المعهد الإدارية - وقد بسط أمامه أوراق ما يكتبه تحقيقًا لنص تراثى قديم ، ثم لا يلبث أن يترك ذلك إلى ترجمة كتاب أو مقال ، وينتقل إلى تحرير مقال أدبى ، وهو فى أثناء ذلك لا يكف عن القراءة والتعليق على ما يقرأ ، ثم يستأنف العمل فى هذا أو ذاك من الموضوعات التى يشتغل بها بغير أن يضيق ذرعًا بهذا التنقل ، وكأن كل شىء حاهز فى ذهنه لا يحتاج منه إلى أدنى توقف.

وهو مع كل ذلك يحب الحياة،ويقبل عليها، ويحسن المتعة بها ، فلا يحرم نفسه من شىء منها : يستجيد الطعام فيحسب أطيبه ، وترتاح نفسه للنزهة فى أوقات فراغه وإن كانت قليلة ، وهو مألفٌ للناس

لا يغلق بابه دون أحد ، وإذا تحدث فعلى حديثه طلاوة ساحرة وعباراته لا تخلو أبدًا من فكاهة محببة أو نادرة مستطرفة .

سنوات الكويت :

بعد بلوغ مؤنس سن التقاعد كان عليه أن يعود إلى مصر ، ولكنه لم يستقر فيها إلا زمنًا قصيرًا . إذ لم تلبث جامعة الكويت أن دعته ليلحق فيها بقسم التاريخ . وفى البلد العربى الشقيق قضى ثمانى سنوات، كان يباشر العمل خلالها أستاذًا للتاريخ الإسلامي بمختلف فروعه ، وقد استأنف هناك كل ألوان نشاطه ، فنشر فيها بعض كتبه، وأعاد نشر ما سبق له تأليفه ، وفى مجلات الكويت العلمية والسيارة كانت أبحاثه ومقالاته لا تكاد تنقطع . ولم ينس اشتغاله المستمر بالصحافة ، فكان له عمود يوميٌّ فى صحيفة " القبس " بعنوان "كلمة طيبة " وكان يسجل فيها ما يعنُّ له من خواطر حول مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية والفكرية . ولم يَحُلْ كل هذا النشاط بينه وبين الوقوف على تحرير جديد للسيرة النبوية فى عدة مجلدات باللغة الإنجليزية ، وهو مشروع طموح كان بدأ العمل فيه في مدريد، ثم واصله بعد ذلك،بعد عودته إلى مصر ، إلا أنه لم يقدر له أن يخرجه قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

عودة الطير المهاجر : " الهلال " :

بعد أكثر من عشرين سنة فى هجرة متصلة كان على حسين مؤنس أن يقضى السنوات الأخيرة من حياته فى مصر ، ففى أواخر السبعينيات قرر العودة من الكويت، فانتظم فى الجامعة أستاذًا متفرغًا فى قسم التاريخ ، وهو القسم الذى بدأت حياته العلمية فيه . وفى الوقت نفسه عاوده الحنين إلى الصحافة التى جمع بينها وبين عمله الأكاديمي، منذ مطلع حياته . وكان من الاتفاق السعيد أن تكون عودته الصحفية أيضًا إلى دار " الهلال " التى بدأ عمله فى إحدى مجلاتها وهى " الاثنين " منذ أوائل الأربعينيات ، فقد اختارته الدار العريقة رئيسًا لتحرير مجلة " الهلال " الشهرية التى ظلت منذ إنشائها فى سنة ١٨٩٢م من أبرز معالم نهضتنا الثقافية .

وقد استمرت صلتى بمؤنس لم تنقطع خلال تلك السنوات . وكنت قد قضيت فى مصر أربع سنوات بعد عودتي من إسبانيا . ثم دعانى المعهد المكسيكى أستاذًا زائرًا فى سنة ١٩٦٩م ، وهناك قضيت سنتين دعتنى

بعدهما جامعة الكويت أستاذًا بها ، فرافقت أستاذى حسين مؤنس هناك فى الجامعة نفسها على مدى ست سنوات، عـدت بعدها إلى مصر فى آخر سنة ١٩٧٨م.

وفى " الهلال " تجدد لقاؤنا ، وكأن حياتى قد ارتبطت بحياته فى الغربة وفى الوطن ، فقد طلب إلىّ أن أعاونه فى تحرير المجلة ، فكنت أكتب فيها بابًا شبه ثابت بعنوان "من ديوان العرب " وهو يقوم على الإجابة عن أسئلة يبعث بها القراء إلى المجلة يستفسرون فيها عن بيت شعر مجهول القائل، أو عن قصة مثل مشهور، أو خبر لا تعرف تفاصيله ، وكانت تجربة طريفة سعدت فيها بلقاء قراء " الهلال " . كما كنت أكتب فى الهلال ما اتسع الوقت له من بعض الأبحاث أو المترجمات .

أما افتتاحيات مؤنس لأعداد المجلة ، وما كان ينشره فيها من مقالات أو تحقيقات فإنها تعد قطعا أدبية رائعة . وكان- بحكم سعة ثقافته وتنوعها - يُعالج فيها موضوعات بالغة الطرافة والتباين من تعليقات سياسية إلى اجتماعية أو فنية . كانت مثل المقالات التى بدأ بها العمل فى مجلة " الاثنين " غير أنها - بعد تلك الخبرة الطويلة فى الحياة والزاد العلمى والثقافى الذى حصله على مدى السنوات السابقة - كانت أعمق غورًا وأغزر فوائد وأكثر تألقا ونضارة .

ثم واصل مؤنس بعد ذلك الكتابة الصحفية فى مجلة " أكتوبر " فكانت مقالاته الأسبوعية فى هذه المجلة من أروع ما ازدانت به هذه المجلة ، وكان يقدم فيها أحيانًا صفحات من تاريخنا وتراثنا، وأحيانًا أخرى تعليقات نقدية لما يراه فى مجتمعنا المعاصر، أو معالجة لبعض قضايا الساعة .

ولم يمنعه ذلك العمل الدؤوب من استئناف جهوده البحثية . وكان قد انتخب عضوًا فى مجمع اللغة العربية ، وشاء حظّى أن أنتخب معه فى الجلسة نفسها.فتزاملنا أيضا فى هذه المؤسسة العتيدة . وكان نشاطه فى المجمع كالعهد به : يشارك فى عدد من لجانه، مقررًا أو عضوًا ، كما كان يسلهم فى مؤتمره السنوى بأبحاث أو محاضرات نالت دائما إعجاب الجميع . ولم ينقطع عن جلسات المجمع إلا بعد أن أقعده المرض قبل وفاته بنحو سنتين ، بعد أن جاوز الثمانين من العمر .

إنتاج لا مثيل له فى غزارته وجودته :

لو أن المرء تأمل ما خلفه قلم حسين مؤنس من كتب ودراسات لما تمالك نفسه من العجب : كيف ينتمي كل هذا النتاج إلى قلم واحد ، وهو كثير على جيل من الباحثين ؟ فى ميدان الكتابة التاريخية يكفى أن ننظر إلى مؤلفه الجامع " فجر الأندلس" الذى يقع فى نحو ٧٥٠ صفحة ، وفيه يتناول تاريخ الأندلس خلال نصف قرن فحسب . فهو من الدقة والعمق والاستقصاء بحيث لا مزيد . وكتابه عن "الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس" ويقع فى مثل هذا العدد من الصفحات ويُعدُّ أكبر بحث فى هذا الموضوع، الذى يجمع فيه بين المعارف الجغرافية والتاريخية . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن كتابه عن " التاريخ والمؤرخين " وعن " الحضارة " المنشور فى الكويت ، وعن " مصر ورسالتها " وهذان الكتابان الأخيران خلاصة لتجارب مؤنس وقراءاته فى التاريخ العام ، فهما دراستان تنتميان إلى ما يمكن أن يسمى بفلسفة التاريخ ، فهما أشبه بمقدمة ابن خلدون فى شمول الإحاطة بمسيرة الإنسانية، وعمق النظرة إلى بواطن الأمور ومغزاها العميق، لا إلى التاريخ فى ظاهر أحداثه .

وفى كتابيه " صور من البطولة " و " سيرة نور الدين محمود " دروس على القارئ المصري والعربي أن يستوعبها حتى يؤمن برسالة أمته فى قافلة الحضارة الإنسانية .

كل هذا و لم نتحدث عن مقالاته وأبحاثه التاريخية حول الأندلس والشرق العربى والإسلامي ، ولو جمعت هذه المقالات لألفت عدداً كبيرًا من المجلدات الضخمة .

وفى ميدان تحقيق التراث يكفى أن نشير إلى عمله فى إخراج كتاب " الحلة السِّيَراء " لابن الأبار البلنسى ، و " رياض النفوس " للفقيه أبى بكر المالكى القيروانى ، و " أسنى المتاجر " للونشريسى ، وهو كتاب حول أوضاع المسلمين الموريسكيين الذين خضعوا لدولة إسبانيا المسيحية ، "وضوابط دار السكة " للحكيم أبى الحسن على بن يوسف ، وهو كتاب يعالج موضوعًا اقتصاديًا بحتًا .

وفى ميدان الترجمة علينا أن ننوه بترجمته لدراسة المستشرق الإسبانى غرسيه غومس عن " الشعر الأندلسى " ولكتاب جونثالث بالنثيا عن " تاريخ الفكر الأندلسى " وهو

أشبه بموسوعة ضخمـــة حـــول الثقافـــة الأندلسية . والحقيقة أن فى إطلاق اســم الترجمة على هذا الكتاب ظلمًـــا لحسـين مؤنس ، ففيه من الإضافات والنصـــوص الكاشفة ما يجعل مؤنسًا مشاركًا فى تأليفه.

هذا عن الترجمة العلمية ، وأمـــا الترجمـــة الأدبية فلحسين مؤنس مشاركة قيمة فيها. فقد ترجم عن الإسبانية مسرحية للوركـــا هى " الزفاف الدامى "، ولعميد المســرح الإسبانى فى عصره الذهبى لوبى دى بيجـــا مسرحية " فونت أوبخيونـــا " أو " ثـــورة فلاحين " وهما من أجمل نصـــوص الأدب الإسبانى القديم والحديث ، وله ترجمة أُخرَة عن الإنجليزية لمسرحية جون شتاينبك " ثم غاب القمر " .

وفى ميدان الإبداع الأدبى نجد لـــه أيضًـــا إنتاجًا متميزًا أذكـــر منـــه " حكايـــات خيرستان "، وهى مجموعة من القصـــص الرمزية ، و " أهلاً وسهلاً " وهى روايـــة طويلة ذات مغزى سياســـي واجتمـــاعي و"الطريق الأبيض "، وهـــى مســرحية ، بالإضافة إلى مجموعـــات مـــن القصـــص القصيرة لعل أبقاها فى أذهان القراء قصتـــه المشهورة التى تتجلى فيها قدرته الساخرة " إدارة عموم الزّير " حـــول البيروقراطيـــة المصرية ، وكان من ذيوع هذه القصـــة أن ذهبت " إدارة عموم الزير " مثلاً سائرًا بين الناس .

* * *

وبعدُ فإن إنتاج حسين مؤنـــس فى ســـائر الميادين يتعذر استقصاؤه ، وهو- فى تنوعه ودلالاته وجودته الفائقة- يتطلب أكثر من دراسة . وإنما ألمحنا إلى عدد قليل منه علـــى سبيل التمثيل لا الإحصاء .

رحم الله هذا القلم الذى لم يخلد إلى راحـــة والذى كان غذاءً روحيًا وعقليًّـــا ممتعًـــا لجمهور عريض من القراء على مدى أكـــثر من نصف قرن !

رحم الله حسين مؤنس وتغمده برضوانـــه وأجمل فيه عزاء أسرته، وعزاءنا، وعزاء دار الهلال التى انتمى إلى أسرتها خلال شـــطر كبير من حياته .

رحم الله حسين مؤنس ، فقد كان أمـــة وحده !

محمود علي مكي

عضو المجمع

كلمة الأسرة

للأستاذة الدكتورة منى حسين مؤنس

الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية:

الأساتذة أعضاء المجمع الكرام :

السيدات والسادة :

اسمحوا لى بالنيابة عن أسرة المرحوم الأستاذ الدكتور حسين مؤنس أن أشكر لكم صادقَ مشاعرِكُم ، وجميلَ تقديركم ، وطيبَ وفائِكم . والحقُّ أن ما تقومون به اليومَ إنما هو بعضُ دوركِم فى الحياة الثقافية والعلميةِ للأمة ، وأنتم فى القلبِ من هذه الحياة ، وتقومون بدور الرائد الذى يهدى أهله ، ويقود خطاهم إلى طريق المعرفة والتقدم . وإذا كانت اللغة هى وعىُ الأمةِ وعلامة نهضتها فإن توليكم لأمور لها ، والقيام برعايتها وصيانتها ، إنما هو تولٍّ منكم للأمة فى أعز ما تملك ، ورعايةٌ وصيانةٌ لأسمى ما تمارس .

وقد كان والدى رحمه الله فخوراً بجميلكم، حريصًا على صلتِه الأصيلة بهذا المجمع الكريم ، حفيًّا بعلاقته بأعضائه الكرام .

وحين تؤكدون ، اليوم ، اعتزازكم بوالدي، وتقديرَكم لإنجازه ، وحرصَكم على تراثِه ، فإنما تؤكدون الأصيلَ فى حمايةِ وصيانةِ المنجزَ المتميز من ميراث هذه الأمة.ولذلك ، أكرر لكم الشكر باسم والدي المرحوم الأستاذ الدكتور حسين مؤنس .

وأدعو الله لكم جميعا بطيب الصحة والعافية .

والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الختام

للأستاذ الدكتور شوقى ضيف

رئيس المجمع

أيها السادة :

إننا مهما تحدثنا عن الأستاذ الدكتور حسين مؤنس فلن نستطيع الإحاطة بأعماله العلمية والأدبية الرائعة . وأنا أشكر الأستاذ الدكتور محمود مكى على ما صوَّر فى تأبينه للدكتور حسين مؤنس من أعماله المجيدة . وإني أتقدم باسمي واسم المجمع بالعزاء الخالص لأسرته ،وللسيدة الجليلة صاحبة العصمة حرمه، وللسيدة الفاضلة كريمته الدكتورة منى الأستاذة بقسم اللغة الإنجليزية بآداب جامعة القاهرة. وأشكر جميع الحاضرين لمشاركتهم لنا فى حفل تأبين الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، تغمده الله بواسع رحمته .

ثالثًا :

من أنباء المجمع

*** انتخاب عضو جديد بالمجمع :**

فاز بعضوية المجمع في هذه الــدورة الأستاذ الدكتور **شاكر محمد الفحــام**، الذي انتخب في المكان الذي خلا بوفـاة الأستاذ الدكتور **عدنان الخطيب** – رحمه الله– عضو المجمع من سورية .

*** أعضاء راحلون :**

فجع المجمع في هذه الدورة بفقد عضوين من أعضائه المصريين استأثرت بهما رحمة الله تعالى، هما :

- الأستاذ الدكتور **إبراهيم عبد الرازق البسيوني** .

وقد أقام المجمع حفــلاً لتأبينــه في السابع والعشرين مــن ديســمبر سـنة ١٩٩٥م،وألقى كلمة المجمــع في هــذا الحفل الأستاذ الدكتور محمد نايل أحمــد عضو المجمع .

- الأستاذ الدكتور **حسين مؤنس** .

وقد أبّنه المجمع في حفل أقامــه في التاسع والعشرين من مايو سنة ١٩٩٦م، حيث ألقى كلمة المجمع في تأبينه :

- الأستاذ الدكتور **محمود علي مكــي** عضو المجمع .

* ورُزِئَ المجمع في هذه الدورة أيضًا بفقد عضوين من أعضائه العرب استأثرت بهما رحمة الله تعالى، هما :

- الأستاذ الدكتور **عدنــان الخطيــب** عضو المجمع من سورية .

- الأســتاذ **محمــد بهجــة الأثــري** عضو المجمع من العراق .

*** خبير جديد بالمجمع :**

اختير في هــذه الــدورة الأسـتاذ الدكتور **سعد الدين الأنصاري** خبــيرًا بلجنة الجيولوجيا بالمجمع .

*** خبير راحل :**

- رُزِئ المجمع في هذه الــدورة بفقــد خبير من قدامى خبراء المجمع ، هــو الأستاذ الدكتــور **سـعد الديــن الأنصاري** .

*** صلات المجمع الثقافية :**

- اختار مجلس المجمع الأستاذ الدكتــور **شوقي ضيف** نائب رئيــس المجمــع لتمثيله في الحفل الذي أقامه مجمــع اللغة العربية بدمشق احتفاءً بذكــرى مرور خمسة وسبعين عامًــا علــى إنشائه.

- اختار مجلس المجمع كلاً من السادة الأساتذة :

- الدكتور أبي شادي الروبي

- الدكتور أحمد مستجير مصطفى

- الدكتور كمال محمد بشر

لتمثيل المجمع في الندوة التي أقامتها لجنة الثقافة العلمية بالمجلس الأعلى للثقافة تحت عنوان (اللغة العربية والثقافة العلمية) ، وذلك في المدة من ٩ إلى ١٠ من يناير سنة ١٩٩٦م .

وقد اختار المجلس الأعلى للثقافة الأستاذ الدكتور كمال محمد بشر ليكون المعقب العام على هذه الندوة .

- اختير الأستاذ الدكتور عطية عبد السلام عاشور عضو المجمع عضوًا في لجنة التخطيط بمنظمة اليونسكو .

أ- المسابقة الأدبية :

- أعلنت لجنة الأدب بالمجمع عن مسابقتها الأدبية لهذا العام ، وكان موضوعها : الأستاذ الدكتور محمد عوض محمد عضو المجمع - دراسة تحليلية لأدبه ونقده .

وعندما نظرت اللجنة الأعمال المقدمة وجدت أنها لم ترْقَ إلى المستوى المطلوب، فقررت حجب الجائزة.

- وقد وافق مجلس المجمع على أن تُمَدّ هذه المسابقة لعام قادم .

ب- مسابقة إحياء التراث :

وافق المجلس على تقرير لجنة إحياء التراث بالمجمع عن نتيجة مسابقتها للعام المجمعي (٩٥-١٩٩٦م)،وذلك على النحو التالي:

أولاً : منح الجائزة الأولى لمحقق كتاب : (المنتخب في محاسن أشعار العرب) ، وهو الأستاذ الدكتور عادل سليمان جمال أستاذ الأدب العربي بالجامعة الأمريكية .

ثانيًا : منح الجائزة الثانية لمحقق كتاب : (الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي لأبي منصور الأزهري)، وهو الأستاذ الدكتور محمد جبر الألفي الأستاذ بجامعة الأزهر، على أن يخصص رُبعها لمراجعي الكتاب، كما تقضي بذلك شروط الجائزة .

طبع بمؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر
٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة - تليفون : ٧٩٥١٨١٠/٧٩٥١٨١٨

